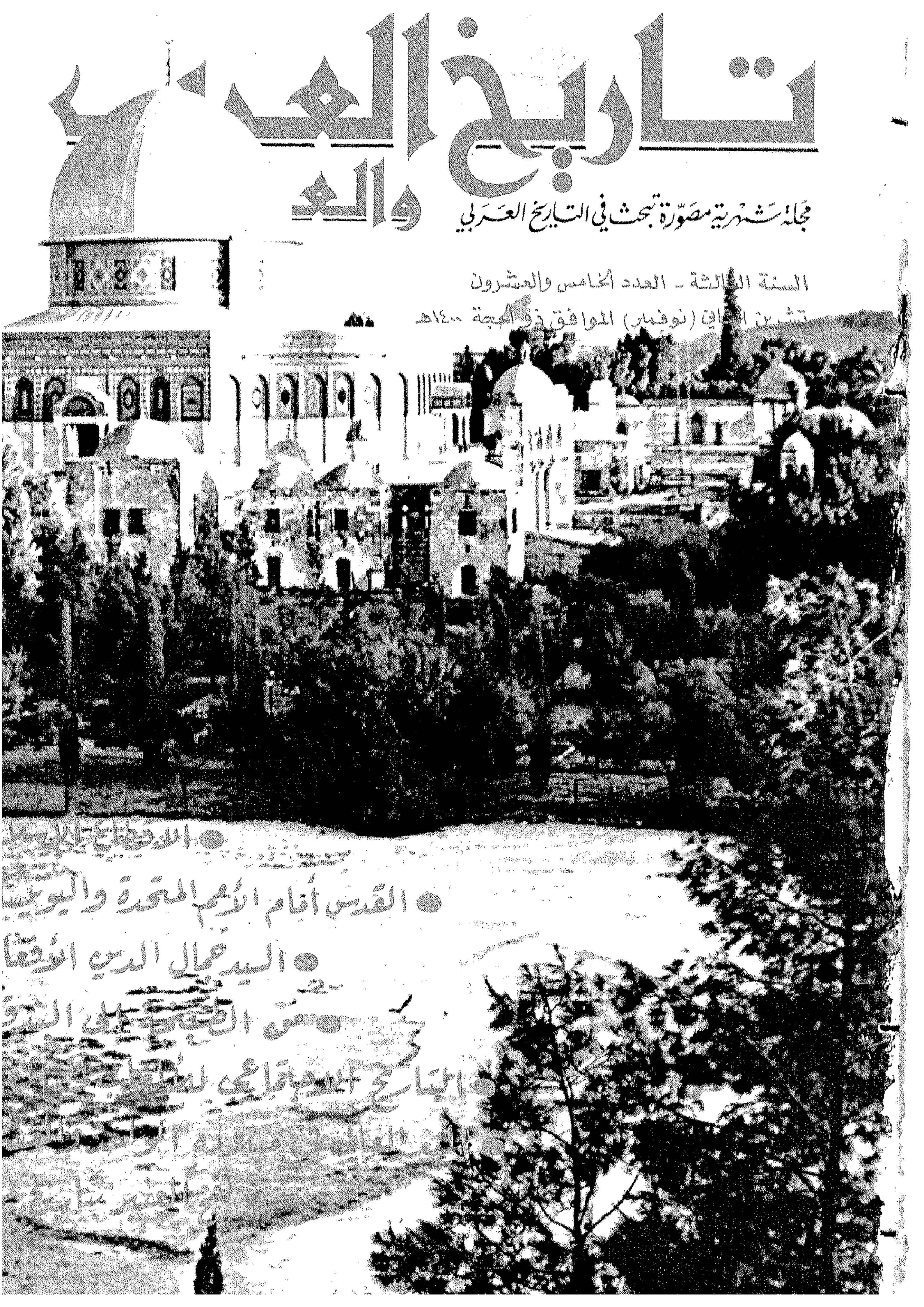

تاريخ الع
وال
مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي
السنة الثالثة - العدد الخامس والعشرون
تشرين الثاني (نوفمبر) الموافق ذو الحجة ١٤٠٠هـ
القدس أمام الأمم المتحدة واليو
السيد جمال الدين الأفغا

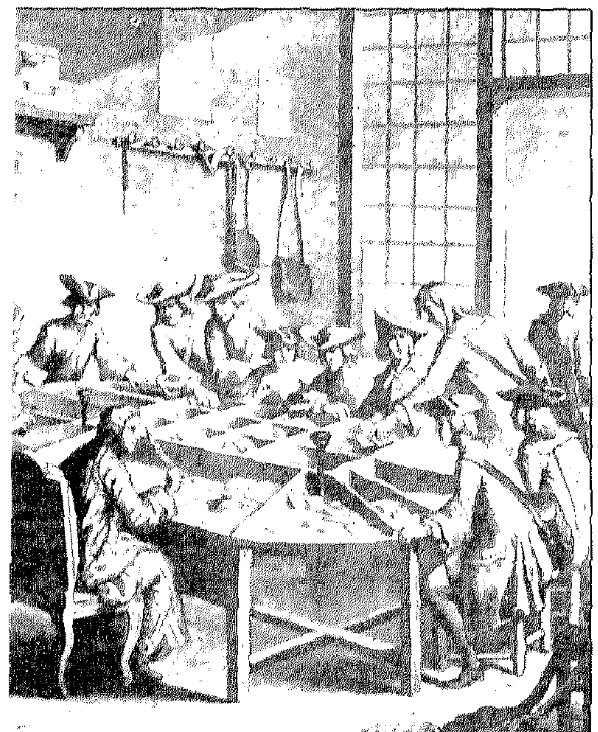
الماضي اللذي سيأتي في عددنا المقبل



بسمارك والمسألة الشرقية

تاريخ نظم البريد في العالم

داخل احد مراكز البريد الباريسي عام ١٧٦٠.





السنة الثالثة - العدد الخامس والعشرون - تشرين الثاني (نوفمبر) الموافق ذو الحجة ١٤٠٠هـ

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

رئيس التحرير : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ

المدير المسؤول : محمد مشموشي

الإنتاج : مطبعة المتوسط ش.م.ل. ● التوزيع : الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات

ثمن النسخة

لبنان : ٥ ل.ل.
العراق : ٨٠٠ فلس
السعودية : ٨ ريال
الاردن : ٥٠٠ فلس
دبي : ٨ درهم
البحرين : ٨٠٠ فلس
مسقط : ٨٠٠ بيزة
فرنسا : ١٠ فرنكات

سوريا : ٦ ل.س
ليبيا : ١ دينار
الكويت : ٧٠٠ فلس
أبوظبي : ٨ درهم
قطر : ٨ ريال
عدن : ٨ شلنات
المغرب : ٦ درهم
بريطانيا : جنيه استرليني
أميركا : ٣ دولارات

الإشتراكات

(بما فيها أجور البريد الجوي)

في لبنان : للأفراد ٧٥ ل.ل.
للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٠٠ ل.ل.
في الوطن العربي : للأفراد ١٠٠ ل.ل.
للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
خارج الوطن العربي : للأفراد ١٥٠ ل.ل.
للمؤسسات والدوائر الحكومية ٣٠٠ ل.ل.

تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية أو بريدية .

ص.ب : ٥٩٠٥ - بيروت، لبنان ، بناية أبو هليل - شقة ١١ ، شارع السادات - تلفون : ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
A MONTHLY ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM
SADATE ST. ABOU HLEIL
BLG. P.O.B. 5905
TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

Vol. 3. No. 25. Nov. 1980.
ANNUAL SUBSCRIPTION
$ 75 (INCLUDING $ 25 FOR
ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

تاريخ العرب والعالم

في عامها الثالث

في شهر تشرين الثاني من عام ١٩٧٨ ولدت «تاريخ العرب والعالم» وهي تحمل في صفحاتها الأولى شهادة الميلاد التالية:

«ان الوطن العربي يتعرض في الوقت الحاضر لغزوة فكرية شرسة، لا تستهدف الجيوش والحدود فقط وانما تستهدف التشكيك بتراثنا العربي ليكون هذا التشكيك والهدم مقدمة لاضعاف مقاومة الشعوب امام الغزو الفكري الجديد».

«لذلك فان امتنا مدعوة اليوم لبناء نفسها بناء حديثاً في شتى المجالات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والطريق الى ذلك هو تعميق الثقة بالنفس وابراز الكيان الفكري الذي يعتمد على تراث عربي مجيد...»

«ومجلة تاريخ العرب والعالم ما هي الا خطوة متواضعة على هذا الطريق الطويل...» بهذه الكلمات القليلة، البسيطة، المعبرة، زفت «تاريخ العرب والعالم» نبأ ولادتها الى المواطن العربي اولاً، ومن ثم الى كل من تهمه قضايا التاريخ والتراث في العالم.

* * *

كل صحيفة او مجلة تحرص على نجاحها.. والنّجاح المادي للصحف الملتزمة بخط وطني ليس هدفاً في حد ذاته وانما هو وسيلة لوصول الكلمة الحرة المكتوبة الى اكبر عدد من الجماهير.

ولكي تنجح المجلة، يجب ان تكون حية ومتجددة ومقروءة.. ولكي تكون مقروءة.. يجب ان يكون اسلوبها سهلاً وبسيطاً يفهمه الطالب والعامل كما يفهمه المثقف. وهذه مهمة ليست سهلة على الاطلاق.. واحياناً تكون بعض الموضوعات جامدة.. أو يكون الاهتمام بها محصوراً في دوائر محدودة بالرغم من أهميتها.. واجب الصحافة في هذه الحالة ان تجعل من هذه المادة او تلك، مادة حية نابضة تثير اهتمام الجماهير. ولم تكن المهمة سهلة. كانت تحتاج الى مجهود كبير لتحويل بعض الابحاث الجامدة الى كلمات سهلة من خلال تقسيمها وتبويبها واعادة صياغتها أحياناً واضافة الصور الوثائقية والتاريخية الحية التي اصبحت جزءاً رئيسياً من المجلة.

وبهذا العدد، تبدأ مجلة «تاريخ العرب والعالم» سنتها الثالثة.

ماذا حققنا خلال السنتين الماضيتين؟

لعلّ الانجاز الاول الهام هو، بكل بساطة، استمرار صدور المجلة.. فلقد صدرت المجلة في اواخر عام ١٩٧٨ بينما كان عدد كبير من الصحف والمجلات يتوقف عن الصدور او يهاجر..

والاستمرار ليس سهلاً عندما تكون المجلة مستقلة وغير مرتبطة بنظام معين او بمؤسسة خاصة او بفرد يمولها.

والاستمرار ليس سهلاً عندما تحاول ان تستقطب احسن الكتاب فتصطدم بان الاتعاب الرمزية التي تدفعها للكاتب أو المؤرخ تساوي ربع ما يستطيع ان يربحه من مجلة أخرى!

والاستمرار ليس سهلاً حين ترتفع أسعار الورق والطباعة ارتفاعاً اسطورياً كل ثلاثة أشهر.

على الرغم من كل هذه العراقيل.. فلقد صمدت مجلة «تاريخ العرب والعالم» واستطاعت ان تتخطى هذه المرحلة الصعبة وان تبدأ عامها الثالث وكلها امل وثقة بالمستقبل..

طموحنا الثاني كان ولا يزال وسيبقى، ان نتحرر مادياً لنستطيع ان نقدم للمواطن العربي عملاً علمياً وصحفياً ناجحاً، يمكّننا من اداء رسالتنا على الوجه الاكمل.. وفي هذا المجال نستطيع ان نؤكد لجميع الذين آزرونا ودعمونا بأن مجلة «تاريخ العرب والعالم» قد قطعت نقطة

اللارجوع واستطاعت بعد سنتين ان تقف على قدميها.. ولكن هذا الواقع يدعونا إلى بذل الجهد لتعويض الخسائر السابقة وذلك في تطوير المجلة مادة واخراجاً وطباعة وصورة.

طموحنا الثالث كان ان تدخل المجلة الى جميع الاقطار العربية دون استثناء.. وهذا ما حصل وتحقق بالفعل بعد سنتين من عمر المجلة. كان هدفنا ولا يزال، ان نخاطب امة عربية مترامية الاطراف تمتد من المحيط الى الخليج. كنا نؤمن ولا نزال بأن رسالتنا المتواضعة، يجب ان تصل الى الجميع، الى العامل في مدينة فاس والى الطالب في مدينة المنامة.

طموحنا الرابع كان ان نزيد عدد الصفحات وبالتالي ان نضيف ابواباً جديدة وان نضاعف عدد الصفحات الملونة في الداخل. ولكن تركيزنا على البنود الثلاثة الاولى لم يمكننا من تحقيق هذه التمنيات.

كان املنا ان نصمد بوجه هذه العقبات وان نبقيّ على سعر المجلة كما هو (٤ ليرات) ولكن ارتفاع تكاليف الطباعة والورق والاعباء الادارية اضطرنا الى رفع سعر النسخة الواحدة من اربع ليرات الى خمس وهو ما دفعنا الى زيادة قيمة الاشتراكات ايضاً بالنسبة نفسها.

* * *

الحرب الحديثة هي حرب معلومات بالدرجة الاولى.. بمعنى ان من يعرف اكثر يقترب من النصر اكثر.. وتتركز اهمية المعلومات في انها توضح الصورة امام القائد قبل ان يتخذ قراره.

لهذا فكلما كانت الصورة أوضح أمام القائد، اقترب قراره من النصر. لذا تُخصص لهذه الغاية أجهزة ضخمة ليس لها وظيفة سوى جمع المعلومات.. والرادار هو أحدها.

وقائدنا نحن هو المواطن العربي المفتقر إلى وعي أفضل لتاريخه ولذلك فتحركه في الاتجاه الصحيح يرتبط بوفرة المعلومات من جهة وتنظيم عرضها عليه من جهة أخرى.

ومهمة «تاريخ العرب والعالم» هي كمهمة الرادار.. مهمتها جمع المعلومات التاريخية الموضوعية وتحليلها ووضعها في متناول كل مواطن عربي ليتخذ القرار التاريخي السليم...

فهناك العديد من مصادر النشر والاعلام لا غاية لها سوى التشويش على التاريخ العربي والاسلامي وبالتالي على عقل المواطن العربي ومحاولة التأثير عليه وعلى قراره والتحكم بمستقبله.

* * *

لقد اكدنا في افتتاحية السنة الثانية بأن «تاريخ العرب والعالم» قد حاولت بمنهاج علمي ونظرة موضوعية ان تمارس التزامها القومي نحو المواطن العربي من خلال تركيز جهودها الجماعية لتقديم صورة حقيقية وشاملة لتاريخ العرب مع كل ما صاحب ذلك من ايجابيات وسلبيات معاً... وذلك بهدف ان تساهم بتحديد نوعية وابعاد الأرضية الفكرية السياسية والاجتماعية والاقتصادية لتجربة انسانية جديدة.

واذا كان الواجب يقضي في بداية السنة الثالثة ان نقوم بنقد ذاتي لنرى حصيلة «تاريخ العرب والعالم» في العامين الماضيين فان نظرة دقيقة تلقى على ما نشرته ترينا بان المجلة لم تبلغ بعد في أبحاثها ودراساتها الهدف الأخير الذي تطمح إليه هي وكل قارىء عربي. فاذا كان ثمة تقصير وهنات في بعض الأحيان، فمرد ذلك إلى العراقيل الطبيعية التي تجابه أي مشروع مستقل في بداية مسيرته وشفيعنا في ذلك جهدنا الصادق الامين وسعينا الدؤوب الى الافضل في خدمة ثقافتنا العربية.

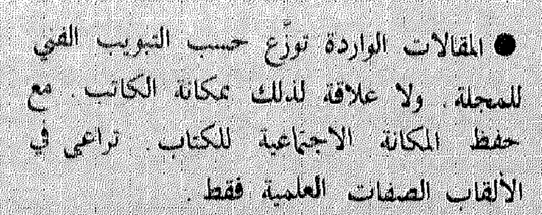
وبعد.. ان «تاريخ العرب والعالم» ستواصل التقدم خلال السنة الثالثة، بمنهاجها العلمي نفسه، ونظرتها الموضوعية، وجهدها الجماعي وثقتها التي لا تحد في شعبها العربي. ثقتنا بالمواطن العربي لا حدود لها.. ومن هذه الثقة سنستمد قوتنا ودعمنا واستمرارنا...

فاروق البربير

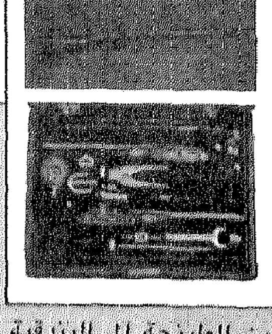
في هذا العدد



القدس
(راجع المقالتين ص ١٥ و ٣٢)



● المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة، ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الاجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط.



من الطبنجة إلى البندقية
(راجع المقالة ص ٤٨)

الموضوع — الصفحة

● المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة: ص. ب ٥٩٠٥ في بيروت

● المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا ترد إذا لم تنشر.



الحلقة الاولى

د. ابراهيم علي طرخان

تعيد مجلة «تاريخ العرب والعالم» نشر هذه المقالة التي سبق ونشرتها المجلة التاريخية المصرية، في المجلد السادس سنة ٩٥٧ وذلك نظراً لأهمية معالجة هذه الموضوعات في التاريخ الاقتصادي الاسلامي والعربي، وهو ميدان لا يزال بحاجة الى مزيد من المعالجة والتفصيل. ويكتسب في هذه المرحلة، امر استعادة المساهمات السابقة في هذا الموضوع، اهمية قصوى في محاولات اعادة قراءة التاريخ الاجتماعي العربي التي تجري في هذه الايام ولا سيما في مجال الملكية الزراعية واشكال الاستثمار التي عرفها التاريخ العربي.

أقدم ما عرف عن النظام ' الاقطاعي في الاسلام، ما ورد عن النبي على أثر قيام الدولة ' الاسلامية في المدينة بعد هجرته اليها، حيث أضحى رأس الحكومة الاسلامية الناشئة؛ ولا يعنينا، في هذا المقام، أن نوغل في الزمن السحيق لنرى صوراً من الاقطاعات القديمة، تقرب من هذا النظام او تبعد عنه: في العصر الفرعوني او فيما تلاه من عصور كعصر البطالمة، او بعض صور منه في العصر الروماني، كذلك في بلاد فارس

او الجزيرة العربية؛ ولا يعنينا بعد هذا، او لا يدخل في نطاق هذا البحث، ان نبحث الصور السيئة او الجانب الكريه الذي تطور اليه الاقطاع في العصر الحديث، من تمليك اراضي الدولة، لصفوة مختارة، ليس من الضروري أن تكون خير الناس، بغير ثمن، او بثمن اسمي.

والاقطاع او الاقطاعية او النظام الاقطاعي الفاظ جرى العرف والتاريخ على انها مترادفات للسوء والعهود البائدة، بل إن كل سوء ومكروه او ظلم واستبداد، إنما يوصم بالاقطاع او الاقطاعية، كما وصفت به حالة فرنسا قبيل الثورة الفرنسية اواخر القرن الثامن عشر الميلادي. على انها ظلت بهذا المعنى حتى العصور الحديثة. ولقد اوضح المؤرخون خصائص المجتمع الذي يسوده هذا النظام، وفصلوا أركانه، بأنه مجتمع جامد طبقي البنيان، وصل في تطوره الى حد التطرف من حيث اعتماد فريق منه، انحدر الى الطبقات الدنيا، على فريق آخر تسنم ذروة الرفعة، واغتصب لنفسه كل الحقوق والامتيازات كما اختص بوظائف هي من اخص وظائف الدولة في العرف الحديث. ولم يكن استعمال المؤرخين وغيرهم من بحاث العصور الغربية، هذا اللفظ والتقنين لاحداثه مجتمعة ومتفرقة، إلا بعد نهاية العصر الاقطاعي، وربما كان هذا الجانب من أبرز ما يميز الاقطاعية الغربية عن النظام الاقطاعي في الاسلام، ذلك الذي بدأ بهذا اللفظ وبقوانينه، بشكل ساذج بسيط ولهدف اصلاحي حيوي، لا يخفي وراءه السوء الذي تطور إليه فيما بعد.

ثم إن ما تفعله بعض الحكومات الحديثة من إقطاع القطائع في الأرض البور الصالحة للزراعة، لفريق من الناس، هذا بيع ولا يدخل في معنى الاقطاع التاريخي، كما ان الاقطاعات في العصر النبوي، أغلبها من أرض «الموات» المحتاجة الى إصلاح واستغلال، أما الارض المزروعة فعلاً، فقد قيدت تقييداً كبيراً رغم ان الفتوح وما ينضاف الى الدولة الاسلامية، كانت من حق القائمين وهم رجال الجيش ($\frac{٤}{٥}$ الفيء والغنائم).

وينصب البحث، بعد هذا العرض العام للصور المختلفة لمدلول الاقطاع والاقطاعية على دراسة الاقطاع النبوي وانتشاره وتطوره في الدولة الاسلامية. مبرزين خصائصه كما تنطقها الحوادث.

الاقطاع النبوي:

أضحى الرسول رأس الحكومة الاسلامية على اثر هجرته الى المدينة. وبدا له في ذلك الوقت المبكر عدة عوامل دفعته الى هذا التشريع. وأهم عامل هو العامل الديني، إذ اقتضى ما استهدفه من نشر الاسلام ودعم قواعده، ان يتألف على الاسلام من يرى تأليفه صلاحاً، والمؤلفة قلوبهم بنص القرآن من بين المستحقين للصدقة، جاء في حقهم: «إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل، فريضة من الله والله عليم حكيم»[١]، ولا ينفي لفظ الصدقة ان تكون مالاً منقولاً او عقاراً ثابتاً وقد شملت النوعين فعلاً، ومن العقار الثابت الارض: كما لا ينفي معنى الصدقة ان تسمى الارض الممنوحة إقطاعاً، ودلت الشواهد الكثيرة على انها منحت تحت هذا الاسم كذلك.

وأهم وثائق الاقطاع التي كتبت لهذا الفريق، فيما يبدو، وثيقة إقطاع تميم الداري وإخوته، كتبها لهم علي بن ابي طالب بأمر الرسول عام ٩ من الهجرة (٦٣٠م) وهي:

«نسخة كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كتبه»

«لتميم الداري وإخوته في سنة تسع من الهجرة بعد منصرفه»

«من غزوة تبوك في قطعة أدم من خف أمير المؤمنين علي وبخطه»

«نسخته كهيئته»

«بسم الله الرحمن الرحيم»

«الداري وإخوته حَبْرون والمرْطوم»

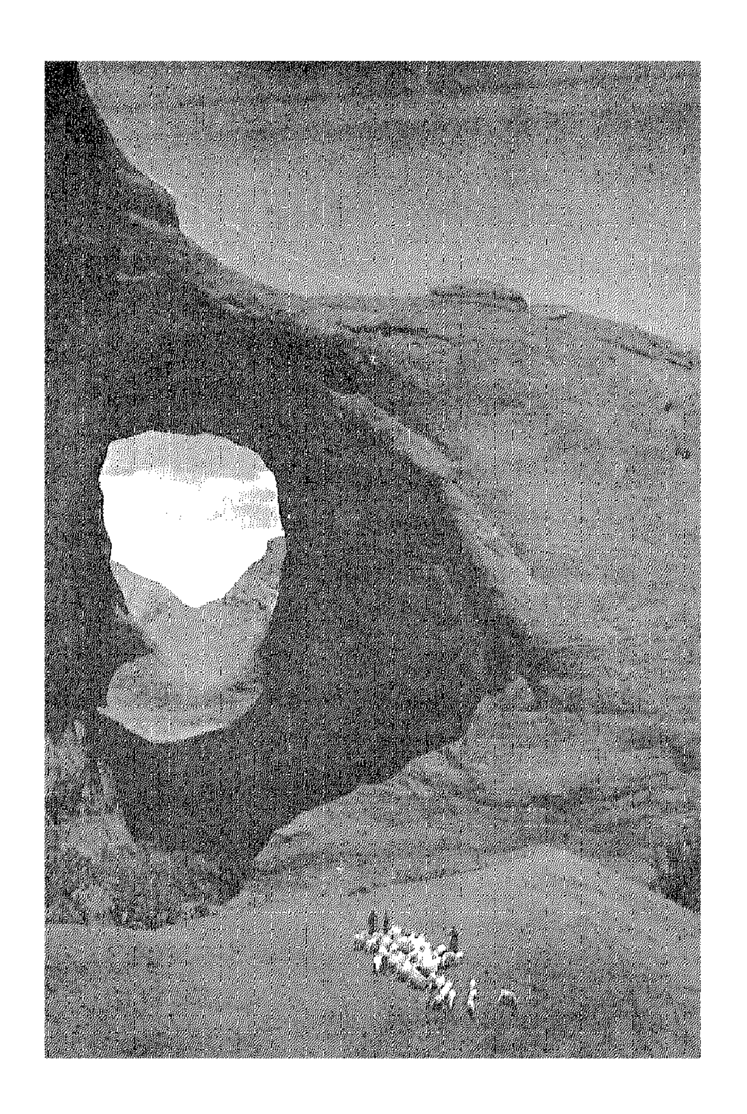
«وبيت عينون وبيت ابراهيم وما فيهن»

«نطية بت بذمتهم ونفذت وسلمت ذلك لهم»

«ولأعقابهم فمن أذاهم أذاه الله، فمن أذاهم»
«لعنه الله. شهد أبو بكر بن أبي قحافة وعمر بن»
«الخطاب وعثمان بن عفان؛ وكتب علي بن»
«أبي طالب وشهد»[٢]

جُدد الكتاب في عهد أبي بكر، ولما تم فتح فلسطين على عهد عمر بن الخطاب، اشترط الخليفة في كتاب أرسله الى عمرو بن العاص بفلسطين، ألا يسلم الداريين أقطاعهم إلا إذا جلا أهل القرى المقطعة عنها وإلا «فهي لهم وأحق بهم»[٣]. أكثر من ذلك، حدد عمر نوع الملكية وحقوق المقطعين فجعل الأقطاع وقفاً، بمعنى لا يملك المقطعون بيع رقبته، واشترط عليهم أن يكون ثلث خراجه صدقة لأبناء السبيل وثلث لعمارته والثلث الأخير للداريين[٤]. وأقر الأمويون هذا الاقطاع، بل ان الخليفة سليمان بن عبد الملك، كان إذا مر بهذه القطيعة لم يعرج عليها ويقول: «أخاف أن تصيبني دعوة النبي[٥]. ولم يتعرض لهذا الأقطاع أحد من الامراء والولاة إلا الامير سُقمان ابن أرتق[٦]، والي فلسطين من قبل السلاجقة، في القرن الخامس الهجري، إذ استفتى الفقهاء في شرعية بقائه لسلالة الداريين حتى ذلك الوقت، فمنهم من أفتى بعدم جوازه بحجة أن النبي أقطع ما لا يملك، غير أن الشيخ الغزالي، حين استفتي، طعن في الفتوى السابقة، وقال بصحة الاقطاع، مستدلاً بالحديث «زويت لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها..» وعقب قائلاً: «فوعده صدق وكتابه حق»[٧] وعلى أساس هذا الرأي ظل الاقطاع بأيدي أصحابه.

وترجع أهمية هذا الاقطاع ووثيقته حتى القرن العاشر الهجري والسادس عشر الميلادي، وممن رأى الوثيقة من المؤرخين: ابن عساكر المتوفي سنة ٥٧١هـ (١١٧٥م)، وابن فضل الله العمري المتوفي سنة ٧٤٢هـ (١٣٤١م) وأبو اليمن مجير الدين الحنبلي المتوفي سنة ٩٢٧هـ (١٥٢٠م) وظلت حتى القرن العاشر الهجري حجة للدّاريين، يستنصرون بها ولي الأمر القائم إذا تعرض لهم أحد بمكروه فيما يتعلق



بحيازتهم وتوارثهم ذلك الاقطاع. والوثيقة محفوظة في صندوق من الأبنوس وملفوفة في خرقة حرير، ومعها كتاب من الخليفة المستنجد العباسي بتأكيد حقوقهم[٨]

* * *

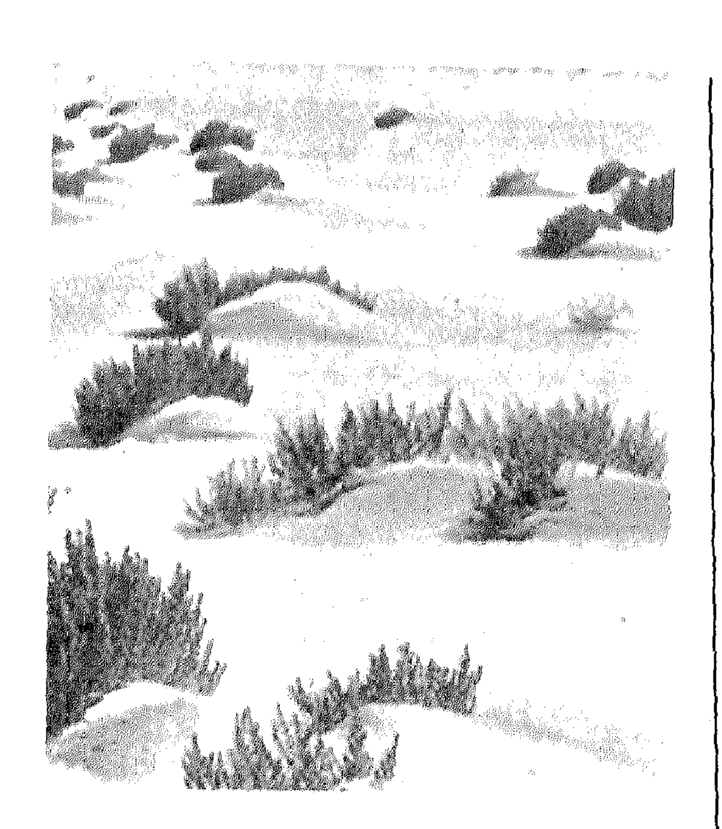
وأبو رقية تميم، يمني الأصل، سكن الشام ووفد على الرسول المدينة ومعه رهط الداريين، عام ٩هـ (٦٣٠م) والراجح أنه أسلم بمكة قبل هجرة الرسول الى يثرب، وكتابه بالاقطاع كان تجديداً لما كتب في مكة. قال للنبي، «لنا جيرة من الروم، لهم قريتان، يقال لأحدهما حبرى والأخرى بيت عنون، فإن فتح الله عليك الشام فهبهما لي» قال: «هما لك[٩]»

هذه قصة تميم واقطاع تميم. ومن الوفود التي جاءت فأسلمت فتألفها الرسول: وفد طيء، رأسهم وسيدهم زيد الخليل الذي سماه النبي زيد الخير. أقطعه الرسول قرية فَيْد، في منتصف

الطريق بين مكة والكوفة، وكتب له بذلك الاقطاع كتاباً[١٠]؛ ولما وفد حمزة بن مالك بن نمط سيد همدان قال لـه الرسـول: نعم الحي همدان، ما أسرعها الى النصر وأصبرهـا على الجهـد، وفيهم أبدال وأوتاد الاسلام. أسلموا جميعاً فكتب لهم النبي كتاباً أقطعهم به بعض مخاليف اليمن؛ وأقطع وائل بن حجر الحضرمي عقيق اليمامة، وغير هؤلاء كثيرون[١١]. وبـايع وفد عقيل بن كعب الرسول على الاسلام فأقطعهم العقيق[١٢]، وكتب لهم كتاباً بالاقطاع[١٣]، كما أقطـع الرقـاد بن عمرو بن ربيعـة من جعدة، ضيعة بالفلـج[١٤] وكتب له كتـاباً[١٥]. وممن أقطعوا تأليفاً على الاسلام، رجل من بني سليم يقال له عبد العزى، وهو راشد بن عبـد ربه السليمي، كما لقبه الرسول، أقطعه موضعاً يقال له رُهاط[١٦]، وعقد له على قومه وقال عنه «إنه خير بني سليم[١٧]»...

هـذه بعض أمثلة لاقطـاعات الـرسول، للتأليف على الاسلام وقد صلح إسلام هؤلاء المؤلفـة قلوبهم، ومنهم من أسهم في الفتـوح الاسلامية ومنهم من بـرز في العلوم الـدينية. فهذا تميم الداري، قيل إنه اشتـرك في غزوة بدر، مما يرجح إسلامه بمكة كما ذكر سابقاً، وكـان من أبرز الصحـابة في القـراءة ورواية الحديث، وروى له البخـاري ١٨ حديثـاً[١٨]. واشترك وائل بن حجر الحضرمي في الفتوح الاسلامية الكبـرى، شرقـاً وغربـاً، على عهـد الخليفة عثمان بن عفان، فأقطعه موضع زُراره وما يليه بالعراق[١٩] وهكذا. على أنه يبدو أن مبدأ الاقطاع للتأليف على الاسلام، كان موقوتاً بمدى تغلغل العقيدة في قلوب معتنقيها، حتى إذا ما امتزجت بهـا نفسه، ووقـر الايمان في سويدائه، جاز لولي الامر استرجاع الاقطاع إذا رأى المصلحة في ذلك، ودليل ذلك أن الاقرع بن حابس التميمي — وهو من المؤلفة قلوبهم — تقـدم الى ابي بكـر ومعـه عيينـة بن حصن الفـزاري، واستقطعاه أرضـاً، فـانبـرى عمـر ابن الخطاب، وقال: «إنما كان النبي يتألفكما على الاسلام، فأما الآن، فأجهدا جهدكمـا» وقطع الكتاب[٢٠]

أراد الرسول بمنحه الاقطاعات كذلك أن



يكافىء قوماً هم عدة الاسلام وأعلامه: في الجهاد أو الفقه أو الادارة سواء، ومثال ذلك إقطاعه فريقاً من الصحابة منهم: أبو بكر وعمر وعبد الـرحمن بن عوف والـزبـير بن العـوام وعلي ابن أبي طالب. وكان اقطاع أبي بكر والزبير من أموال بني النضير في العام الرابع من الهجرة؛ ويقـول ابن عوف: «أقطعني الـرسـول وعمـر ابن الخطاب أرض كذا وكذا..[٢١]»؛ والواضح أن الغـرض الاول من إقطـاع أمثـال هؤلاء الصحابة، هو تعويضهم عما فقدوه من أموال في سبيل الدعوة، بعد هجرتهم الى المدينة. وشملت الاقطاعات فوق ذلك، بعض فقراء الأنصار، مثل أبي دجانة سماك بن خرشة الساعدي وسهل ابن حنيف[٢٢].

ومن العـوامل التي دفعت الـرسول الى اقطاع الاراضي بجانب عـاملي الـدين والعون الاجتمـاعي، عـامـل الاستثمـار الاقتصـادي، لاستصـلاح الاراضي البـور (المـوات) لما في استصلاحها من رعاية لمصلحة المسلمين عامة، وفائدة حيوية للمقطع والناس بمـا تنتجه من خيرات وكذلك للدولة بما يقرر عليها من رسوم كثرت أو قلت. لذلك أقطع الرسول هذه الاراضي للقادر على إحيائها واستثمارها. بل جعل شرط الإحياء ضرورياً. ويتضح هذا المعنى من قوله:



«عادي الارض – أي قديمها – لله ولرسوله، ثم هي لكم من بعد، فمن أحياء شيئاً من موات الارض فله رقبتها(٢٣)». وممن أقطعوا الموات من أرض الدولة: الزبير بن العوام، فقد عين له الرسول إقطاعاً في موات البقيع بقدر ركض فرسه، فأجرى الزبير فرسه ورمى بسوطه رغبة في الزيادة. فلم يمانع الرسول وقال: «اعطوه من حيث بلغ السوط»(٢٤). تقول أسماء بنت أبي بكر وزوج الزبير: «كنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعه اياها رسول الله، على رأسي، وهي مني على ثلثي فرسخ(٢٥)، وعلى هذا النحو كان إقطاعه لبلال بن الحارث المزني، من أرض العقيق قدر ما يطيق إحياءه(٢٦).

من هذا وغيره، كتب أبو يوسف في القرن الثاني الهجري: «ولا أرى أن يترك الامام أرضاً لا ملك لأحد فيها ولا عمارة، حتى يقطعها، فإن ذلك أعمر للبلاد وأكثر للخراج»(٢٧) ويؤكد هذه القاعدة التي استنتجها من استقراء ما وقع فعلاً بتساؤله في موضع آخر: «ما الصلاح في أرض كثيرة لا يرى عليها أثر زراعة ولا بناء لأحد. ولم تكن فيئاً لأهل القرية ولا مسرحاً ولا موضع مقبرة، ولا موضع محتطبهم ولا موضع مرعى دوابهم وأغنامهم وليست بملك أحد ولا في يد أحد.. هي إذن موات، وللامام أن يقطع ذلك من أحب ورأى وأن يؤاجره ويعمل بما يرى فيه المصلحة(٢٨).

أما صفايا الرسول وهي قطائعه الخاصة فاقتصرت على أرض الحجاز لاختصاصه بفتحه، وجاءت من حقه في خمس الخمس من الفيء والغنائم. وهذا المعنى وارد في بعض الآيات القرآنية. قال تعالى: «واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل»(٢٩). وقوله تعالى: «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى وابن السبيل، كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم..(٣٠)»؛ وفي سورة الأنفال «يسألونك عن الأنفال، قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم(٣١).

وحدث استصفاء الرسول لأموال بني النضير في السنة الرابعة من الهجرة حين صالحوه على أن يخرجوا من بلده ولهم ما حملت الإبل وللرسول أرضهم ونخلهم والحلقة وسائر السلاح؛ فصارت خالصة للرسول. ومن هذه الاراضي حاز النبي جزءًا لنوائبه، وقسم الباقي بين المهاجرين ولم يعط الانصار إلا اثنين فقيرين هما أبو دجانة وسهل ابن حنيف(٣٢). أما خيبر فقد جزأها الرسول ثلاثة أجزاء، قسم جزءين منها بين المسلمين وحبس جزءاً لنفسه ونفقة أهله، وما فضل عن نفقتهم رده الى فقراء المهاجرين(٣٣). وبعد انصراف الرسول من خيبر، أرسل الى أهل فدك يدعوهم الى الاسلام، لكنهم صالحوه على نصف الارض، فأضحى نصف فدك خالصاً للرسول، وتطور أمر فدك بعد ذلك، بين إقطاعها لآل محمد واستردادها(٣٤) ثانية ويضاف الى هذه الصفايا أرض ملكها وصية مخيريق اليهودي من الأحبار، وصى بها الرسول(٣٥)، وكذلك كان له الثلث من أرض وادي الغزى(٣٦).

اقطاع الخلفاء الراشدين:

وعلى ضوء هذه القواعد العامة، التي وضعها الرسول في إقطاعه القطائع، سار الخلفاء الراشدون من بعده، على أنهم يختلفون عن بعضهم البعض، في مدى التوسع

أو الاختصار، في تطبيقها، فكل سار وفق ما بدا له صواباً، دون الخروج على الأهداف العامة التي هدف إليها الرسول؛ مع النزول على الأوضاع الزمنية والجغرافية الاسلامية النامية.

ويعتبر أبو بكر الصديق من المقلين في الاقطاع إلى درجة المنع، فلم يعرف أنه أقطع أحداً، سوى تجديد إقطاع للزبير بن العوام، كان منحه من الرسول(٣٧). وانصب اهتمام عمر ابن الخطاب على إقطاع أرض الموات بصفة خاصة، لما رآه في ذلك من النفع العام، حتى أنه خرج يقطع ما بقي من موات الأرض بالعقيق، وقال: «أين المسْتَقْطعون؟» فاستقطعه خوَّات ابن جبير الأنصاري(٣٨). ولم يقف اهتمام عمر عند مجرد إقطاع الموات، بل نظم هذا الاقطاع، فاذا كان الرسول قد اشترط الإحياء وجعله أساساً لبقاء الاقطاع في يد صاحبه، فان عمر زاد وحدد مدة الأحياء بثلاث سنوات بحيث لو عجز المقطع عن استغلال إقطاعه خلال هذه المدة استرجعه منه أو استرجع القدر الذي لم يطق عمارته، وتشدد في هذا حتى أنه كان يسترجع الاقطاعات التي منحها الرسول نفسه، ما دام المقطع غير قادر على استغلاله، فلا تتعطل أرض أو تحجّر - كما يقول المصطلح.. هكذا فعل مع بلال بن الحارث المزني، إذ استرجع منه ما عجز عن زراعته(٣٩). أما الأرض العامر المزروعة فعلاً، والتي انتقلت الى حوزة المسلمين، بالفتح، فيئاً كانت أو غنيمة، فلم ير عمر إقطاعها، مثل أرض السواد بالعراق؛ حقيقة أنه أقطع جرير بن عبد الله البجلي وقومه بأرض السواد، لبلائهم في وقعة القادسية عام ١٥هـ (٦٣٦م)؛ إلا أنّه رأى استرجاع ما أخذوه بسبب تزايد عدد السكان، قال عمر لجرير «لولا أني قاسم مسؤول، لتركتكم على ما أنتم عليه، وإني أرى الناس قد كثروا، فرُدوا ذلك» وقبل جرير فأجازه عمر(٤٠). كما أن عمراً لم يقطع أحداً بمصر سوى ابن سندر تنفيذاً لوصية الرسول فحسب(٤١).

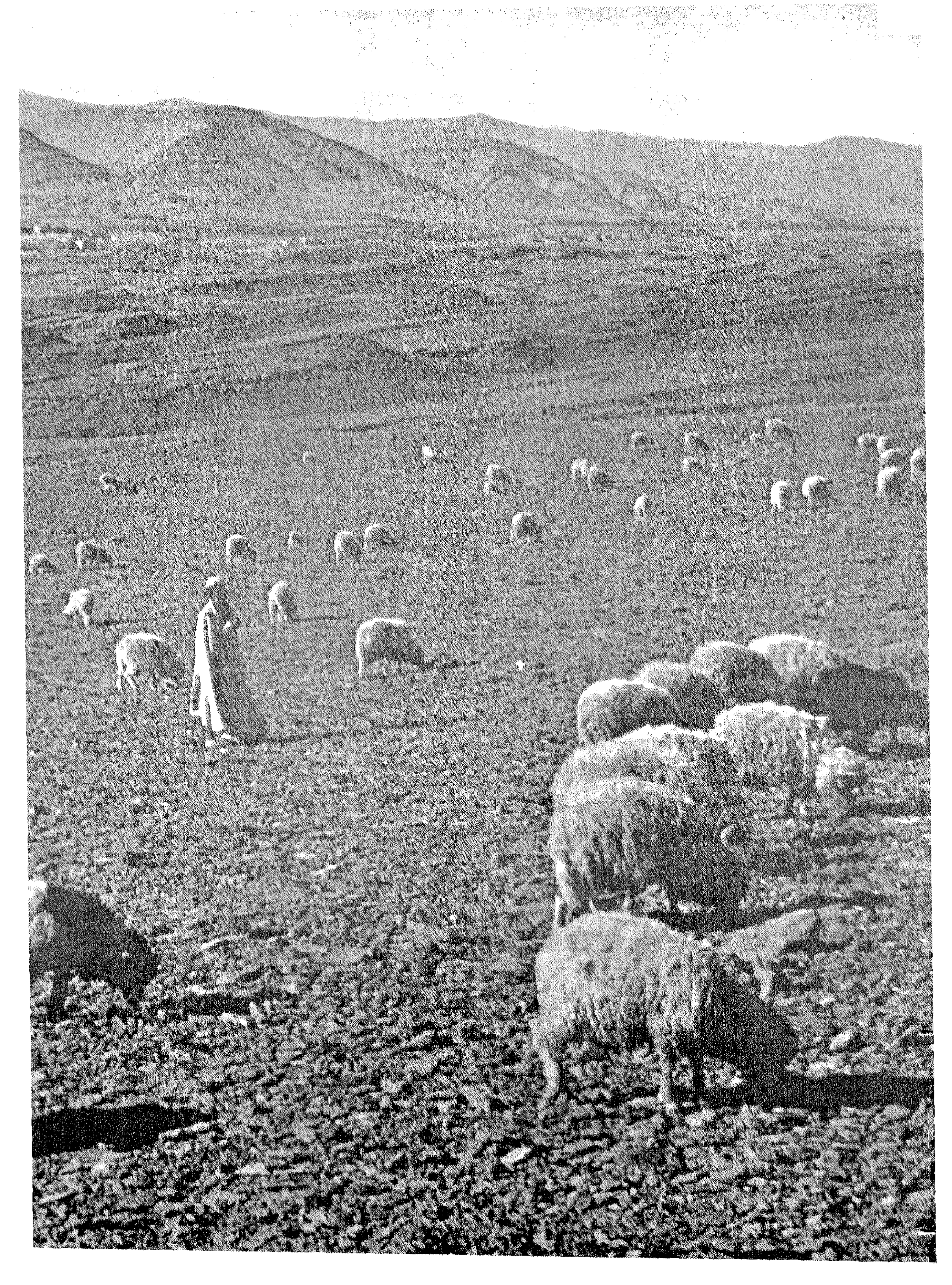
ولأن عثمان بن عفان توسع في منح الاقطاعات، مما كان من أسباب النقمة عليه، حتى لقد قال الناقمون: «إنما السواد بستان قريش»؛ نجد أن علياً بن أبي طالب يحتاط في إقطاع القطائع، ويحذّر واليه في مصر في كتاب منه: «ولا تقطعن لأحد من حاميتك وحاشيتك قطيعة...(٤٢)».

المراعي من المنافع العامة:

أما إقطاع *المراعي* فكان نادراً جداً، وفي نطاق ضيق، لأنها من *المنافع العامة*: وفي إقطاعها لشخص أو جماعة حرمان *لأهل القرى* وغيرهم، ولذلك نجد النبي يشير الى هذا، في وثائق إقطاعاته التي منحها: جاء في وثيقة إقطاع همدان أنه لم يعطهم أي حق في التفرد باستغلال المراعي، وعبارته «لا يأكلون علافها ويرعون فيها(٤٣)» أي أجاز لهم أن يرعوا فيها كغيرهم من المسلمين. بل إنه منع إحياء بعض أراضي الموات بالزراعة، ضماناً للصالح العام وتوفيراً لأرض الكلأ، حتى يكون ذلك الجزء الذي استثناه «لنبت الكلأ ورعي الماشية». وقد حمى الرسول بالمدينة جهة البقيع ومساحتها ستة أميال مربعة، وجعلها مرعى لخيل المسلمين من المهاجرين والأنصار. ومن أقواله: «المسلمون شركاء في ثلاث: الماء والكلأ والنار» ومعنى هذا، أنه لا يجوز لأحد من الولاة أن يأخذ من أرباب المواشي عوضاً عن مراعي موات أو حمى(٤٤).

ولما جاء عمر بن الخطاب، نظم استغلال المراعي ولم يقطعها، ووضع لها القواعد الدقيقة، كما هو شأنه، وفي مصر، أرض الريف، فغدت كل قبيلة من القبائل التي استوطنت مصر بعد الفتح، تخرج للارتباع في جهة معينة: فكانت قبيلة هذيل تخرج للارتباع في ببا وبوصير، وبلي في منف وفهم في أتريب وعين شمس ومنوف وهكذا(٤٥).

ولم يعرف عن عمر بن الخطاب أنه أقطع المراعي إلّا في البصرة حين مصرها الا انه لم يعمم هذا بل أقطع رجلا واحداً هو أبو عبد الله نافع، إذ سأله أن يقطعه أرضاً قرب دجلة ليسرح فيها خيله، فكتب له عمر كتاباً إلى عامله على البصرة وهو أبو موسى الأشعري عام ١٧هـ (٦٣٨م): «إن أبا عبد الله نافع سألني أرضاً على شاطىء دجلة، يغتلي فيها خيله، فإن لم تكن من أرض





الجزية ولا يجزأ اليها ماء الجزية فأعطها إياه(٤٦). والواقع أن عمر أقطع هذا الرجل على أساس أن أرضه مجاورة لتلك البقعة، وأن أبا نافع كان أول من رعى فيها، وأنها لا تضر أحداً(٤٧). كذلك أقطع علي بن أبي طالب سويدا ابن غفلة الجعفي مرعى لدوابه(٤٨).

والواضح أن القلة برزت في إقطاع المراعي. أما إقطاع المساكن، فهذا أمر معروف منذ فجر الاسلام، ويذكر عن النبي حين قدم المدينة أنه «أقطع الناس الدور(٤٩)» وذلك للضرورة القائمة للتعمير والاستقرار، وإسكان المهاجرين والنازحين، وإقامة المدن والأمصار. وعلى هذا الأساس أقطع عمر بن الخطاب المساكن حين مصر الأمصار، فمثلاً يوم بدأ بناء البصرة عام ١٤هـ (٦٣٥م) أمر ببناء المسجد ودار الإمارة، وإقطاع الناس المنازل، وأول دار بنيت في البصرة هي دار نافع بن الحارث(٥٠). وفي بناء الفسطاط بمصر عام ٢١هـ (٦٤١م) أقطع كل واحد منطقة أو خطة لبناء داره، فكانت خطة لمسلمة بن مخلد وخطة لعقبة ابن نافع.. وغيرهما(٥١).

شروط حيازة معادن الأرض:

وهناك مورد آخر، جاء ذكره بصدد الاقطاع، وهو المعادن المستنبطة من الأرض؛ هذه لم يقطعها الرسول وإنما جعل استغلالها حقاً لمن يردها أولاً؛ مثل ملح مأرب باليمن؛ استقطع الابيّض بن جمال ابن مرثد السبأى الرسول، ملح مأرب، فاقطعه إياه، فقال الأقرع بن حابس التميمي: «يا رسول الله، إني وردت هذا الملح وهو بأرض ليس (فيها غيره) من ورده أخذه، وهو مثل الماء العد (العذب) بالأرض»؛ فاستقال الرسول الأبيّض في قطيعة الملح، فأجابه الأبيض: «قد أقلتك على أن تجعله مني صدقة» قال النبي: هو منك صدقة. وذلك على اعتبار أن القطيعة صارت له بمجرد قبول الرسول إقطاعها له أو لا. وحينئذ أصدر الرسول قراره في إقطاع المعادن: «هو مثل الماء العد من ورده أخذه»(٥٢).

وقد فعل رجل من أهل اليمن مثل ذلك فأقره الرسول (ص) اقطاعة[٥٣].

أي أن الرسول أجاز حيازة المعادن لمن يردها أولاً، لكنها لا تقطع، أما ظهور بعض المعادن في إقطاع بلال، فيما بعد، فذلك لم يكن معروفاً أو ظاهراً يوم تسلم إقطاعه من النبي. وكان إقطاعه مجرد أرض موات، من ذلك استنتج صاحب الأحكام السلطانية أن المعادن الظاهرة لا تقطع، وبالتالي إن عرف بالأرض معدن ولو لم يكن ظاهراً للعيان، فهذه لا تقطع كذلك، أما اذا لم يعرف كما في إقطاع بلال، فيجوز إقطاعه بمعنى بقاء المعدن الذي يظهر فيما بعد في الإقطاع في يد المقطع[٥٣]. ■



الهوامش

(١) سورةالتوبة، آية ٦١.

(٢) ابن عسكر: التاريخ الكبير، ج٣ ص٣٥٤، العمري: مسالك الأبصار، ج١ ث١٧٤، القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٣ ص١١٩ – ١١٢، المقريزي: ضوء الساري بمعرفة خبر تميم الداري (مخطوط) ورقة ١٦٥، ١٦٦، مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل، ج٢ ص٤٢٩.

(٣) صبح الأعشى ج ١٣ ص١٢٠ – ١٢١، التاريخ الكبير: ج ٣ ص ٣٥٣.

(٤) ضوء الساري ورقة ١٦٨، صبح الأعشى ج ١٣ ص ١٠٤.

(٤) ضوء الساري ورقة ١٦٨، صبح الأعشى ج ١٣ ص ١٠٤.

(٥) ضوء الساري ورقة ١٦٧، البلاذري: فتوح البلدان ص ١٣٥.

(٦) الأمير قطب الدين سقمان بن أرتق بك بن أكسب التركماني، ولي فلسطين نيابة عن تتش أخي السلطان ملكشاه السلجوقي، وكان تتش قد أقطع الشام كله.. (مسالك الأبصار ج ١ ص ١٧٥، القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، صفحات: ١٣١ – ١٣٢، ١٣٧، وغيرها.. السلوك (نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة، ج ١ ص ٨٦، ٢٤٩، ٤٤١، أبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٠٦، ١٤٧، ١٥٩ وغيرها.. سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب (ترجمة رياض رأفت، ص ٢٧٧).

(٧) ضوء الساري ورقة ١٧٠، الشعراني: الميزان (في الفقه) ج ١ ص ٢٠٨، مختصر تذكرة الامام عبد الله القرطبي (للمؤلف السابق، ص ١٠٤).

(٢) مسالك الابصار ج ١ ص ١٧٣، ١٧٦، التاريخ الكبير ج ٣ ص ٣٥٣، الأنس الجليل ج ٢ ص ٤٢٨ – ٤٢٩.

(٩) ضوء الساري ورقة ١٦٥، طبقات ابن سعد ج ٢ ص ١٠٧، الخطط ص ٥٠ (مجموعة Memoires, Edité Pr G.Wiet).

(١٠) طبقات ابن سعد ج ٢، ص ٨٦، تاريخ الطبري ج ١ ص ٧٤٦ أ، المقريزي: إمتاع الأسماع (مخطوط) ج ١ ورقة ١٦٧ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٩٤٧ أ، المقريزي: الحلبية ج ٣ ص ٣٤٩، السهيلي: الروض الانف ج ٢ ص ٣٤٣، مراصد الاطلاع ج ٢ ص ٣٧٠، ٣٧١، معجم البلدان ج ٦ ص ٤٠٨ – ٤٠٩.

(١١) ابن سيد الناس: عيون الأثر (مخطوط) ورقة ١٧٥، ٣٦٥، وفاء الوفاج ١ ص ١٩٠، الروض الآنف ج ٢ ص ٣٤٩.

(١٢) هذا العقيق باليمامة، والمعروف أن في بلاد العرب أربعة أعقة وهي عبارة عن أودية قديمة شقها السيل.. (وفاء الوفاج ١ ص ١٩٠ – معجم البلدان ج ٦ ص ١٩٨).

(١٣) طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٦٦.

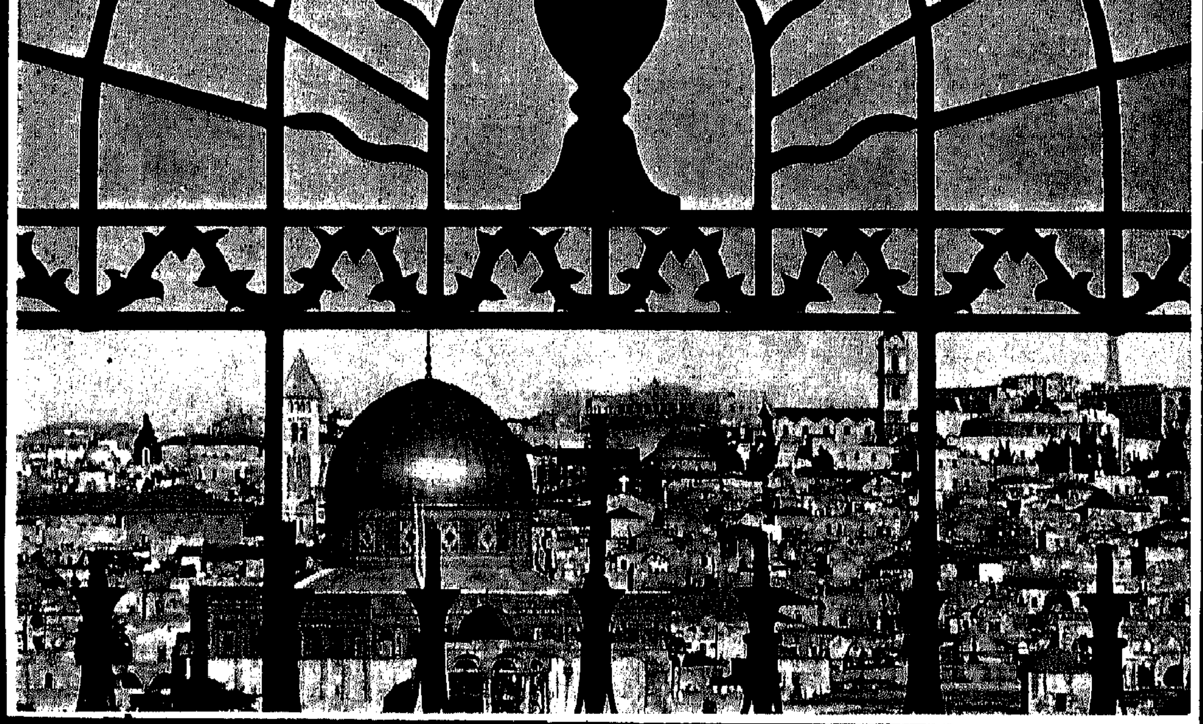
(١٤) الفلج وادي بين البصرة ومكة (معجم البلدان ج ٥ ص ٢٩٣، ابن خرداذبة ص ١٥٢ - ١٥٣.
(٥) طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٦٧.
(١٦) رهاط قرب مكة على طريق المدينة (ياقوت ج ٤ ص ٣٤١).
(١٧) ابن كثير ج ٥ ص ٩٣.
(١٨) الجرداني: الجواهر اللؤلؤية في شرح الأربعين النووية ص ٦٩ - ٧٦ حاشية ٢، الزركلي: الاعلام ج ١ ص ١٦٦، النووي: في الأربعين ص ١٠، ضوء الساري ورقة ١٦٢، البطراوي: تحفة الأنام من فضائل الشام (مخطوط غير مرقم الصفحات)، ابن كثير: البداية والنهاية ج ٥ ص ٨٧.
(١٩) فتوح البلدان ص ٧٣، ٢٧٤، النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٤٦، معجم البلدان ج ٤ ص ١٨١.
(١٠) ابن حجر العسقلاني: الاصابة في تمييز الصحابة ج ١ ص ٥٨ - ٥٩، فتوح البلدان ص ٢٩٨.
(٢١) امتاع الأسماع ج ٥ ورقة ١٠٤٦.
(٢٢) فتوح البلدان ص ١٨ - ٢١، يحيي بن آدم: الخراج ج ٣ ص ٢٦ - ٢٧، ولفنسون (أبو ذؤيب): تاريخ اليهود ص ١٣٥ - ١٣٩، عيون الأثر ورقة ٢٩٨ - ٢٩٩.
(٢٣) ابن ادم: الخراج ج ٣ ص ٦١ - ٧٤، الطواري: تكملة البحر الرائق على كنز الدقائق ج ٨ ص ٣٨.
(٢٤) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ١٨١.
(٢٥) إمتاع الأسماع ج ٥ ورقة ١٠٤٥.
(٢٦) السمهودي: وفاء الوفا ج ١ ص ١٨٨ - ١٨٩، ١٩١ - ١٩٢، النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٢٣ - ٢٤٤، معجم البلدان ج ٦ ص ١٩٩.
(٢٧) الخراج ص ٣٤.
(٢٨) المصدر السابق ص ٣٦.
(٢٩) سورة الأنفال آية ٤١.
(٣٠) سورة الحشر آية ٦.
(٣١) سورة الأنفال آية ١.
(٣٢) عيون الأثر (مخطوط ورقة ١٧٦) فتوح البلدان ص ١٩ - ٢١.
(٣٣) فتوح البلدان ص ١٩ - ٢١، عيون الأثر ورقة ٢٩٥ - ٢٩٦، إمتاع الأسماع ج ٥ ورقة ٩٨٤.
(٣٤) فتوح البلدان ص ٢٩ - ٣٢، ٤٥، ٤٧، الأوائل (مخطوط) ورقة ١٤١، ابن كثير ج ٥ ص ١٨٩، وفاء الوفاج ١ ص ١٦٠ - ١٦١، ولفنسون ص ١٧٢ - ١٧٣ وغيرها...
(٣٥) ولفنسون ص ١٣١ - ١٣٢، وفاء الوفا ج ١ ص ١٥٢ - ١٥٣، ١٥٦.
(٣٦) ولفنسون ص ١٧٢.
(٣٧) خطط ص ٤٩. (Memoires; T. 33)، وفاء الوفا ج ١ ص ١٨٨.
(٣٨) يحيى بن آدم: الخراج ج ٣ ص ٥٧، فتوح البلدان ص ١٢، ١٥، ٢٦٧، وفاء الوفا ج ١ ص ١٩١، أبو يوسف: الخراج ص ٢٤، الخطط ص ٥٣ (Memoires)
(٣٩) إمتاع الأسماع ج ٥ ورقة ١٠٤٥، ابن آدم ج ص ٥٧، أبو يوسف ص ٣٥ وفاء الوفا ج ١ ص ١٩٠ - ١٩١
(٤٠) فتوح البلدان ص ٢٦٧، ابن رجب: الاستخراج ورقة ١٥، ٣٠
(٤١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص ١٣٧ - ١٣٨، النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٧١ - ١٧٨، ١٩٣، خطط ج ١ ص ١٥٦.
(٤٢) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٠٢، الإسلام والحضارة العربية ج ٢ ص ١٤٢.
(٤٣) الروض الأنف ج ٢ ص ٣٤٩، الأحكام السلطانية ص ١٧٦ - ١٧٨
(٤٤) الأحكام السلطانية ص ١٧٦ - ١٧٨.
(٤٥) فتوح مصر ص ١٤١ وما بعدها ج ٣ ص ٥٧.
(٤٦) فتوح البلدان ص ٣٤٥ - ٣٤٦، يحيى ابن آدم: الخراج.
(٤٧) فتوح البلدان ص ٣٤٦، الاستخراج ورقة ٦٣.
(٤٨) خطط ج ١ ص ١٥٦.
(٤٩) إمتاع الأسماع ج ٥ ورقة ١٠٤٥.
(٥٠) فتوح البلدان ص ٢٤٣.
(٥١) فتوح مصر ص ١٣٢ - ١٣٩، النجوم الزاهرة ج ١ ص ٦٤، الانتصار ج ٤ ص ٥ - ١٢.
(٥٢) إمتاع الأسماع ج ٥ ورقة ١٠٤٥، الاصابة ج ١ ص ١٤.
(٥٣) الاصابة ج ١ ص ١٤، يحيى بن آدم: الخراج ج ٣ ص ٧٦.
(٥٤) الماوردي ص ١٨٢، ١٨٧ - ١٨٧، خطط ج ١ ص ١٥٥.

أمام الأمم المتحدة واليونسكو

القدس



السفير الدكتور حليم ابو عز الدين



أتيح لي أن أشارك، لعدة دورات، في تمثيل لبنان في اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة، وأن أرأس الوفد اللبناني لدى الدورتين السابعة عشرة والثامنة عشرة للمؤتمر العام لليونسكو، عامي ١٩٧٢ و١٩٧٤. وكان موضوعا القضية الفلسطينية، بصورة عامة، والقدس، بصورة خاصة، يتصدران جدول اعمال الدورتين.

وبمناسبة اقدام اسرائيل في ٣٠-٧-١٩٨٠ على اقرار تشريع يضم القدس اليها، خلافاً لكل قانون أو شرع او عرف، رأيت أن يطلع القارىء العربي على تطورات موضوع القدس امام الأمم المتحدة واليونسكو منذ حرب عام ١٩٦٧.



كان احتلال اسرائيل العسكري للقدس العربية، في السابع من حزيران ١٩٦٧، اكبر خسارة حلت بالعرب بعد خسارة القسم الأوفى من فلسطين عام ١٩٤٨. فقد أطبقت قوات اسرائيل على هذه المدينة، جوهرة المدائن، مقام السيد المسيح ومرتعه ومسرى النبي العربي، اولى القبلتين وثالث الحرمين، ومقر المسجد الأقصى، وجارة المهد ومسار الجلجلة ومثوى القبر المقدس.

المدينة التي حنا عليها العرب وحفظوها لأربعة عشر قرناً - خلا بعض قرنين منها استولى عليها خلالهما الفرنجة - كانت القدس خلالها مفتوحة لجميع المؤمنين، يحيطها العرب، مسلمون ومسيحيون، بافئدتهم ومحبتهم وتقديسهم، ويرنو اليها العالم بالتجلة والاحترام.

دخلت القوات الاسرائيلية المدينة واحتلتها ورفعت فوقها العلم ذا النجمة السداسية، وبادرت الى التصرف بها تصرف الغزاة المستوطنين، وامعنت فيها هدماً وتغييراً. ازالت حي المغاربة لتفسح المجال لانشاء ساحة كبيرة أمام حائط المبكى، وحائط المبكى، كما قد لا يعلم الكثيرون، هو جزء لا يتجزأ من الأوقاف الاسلامية في القدس. وبهذا افتت حتى المحاكم البريطانية العليا، خلال الانتداب البريطاني على فلسطين، في الوقت الذي كان الانتداب يستهدف فيه سياسة انشاء الوطن القومي اليهودي.

وأزالت القوات الاسرائيلية الحدود بين القدس العربية وسائر القدس المحتلة، وضمتها الى أراضيها، واستصدرت قانوناً من «الكنيست» الاسرائيلي يقرر توحيد المدينة، محاولة ان تسبغ على هذا الاحتلال العسكري القسري صفة التوحيد الشرعي.

ثم عملت سلطات الاحتلال على تغيير معالم المدينة فأضافت اليها أحياء جديدة، وأنشأت فيها عمارات شاهقة شوهت معالمها التاريخية، ونقلت اليها بعض الادارات الحكومية الاسرائيلية زيادة في الامعان في تهويد المدينة. وقامت فيها بحفريات عديدة بالقرب من الحرم الشريف وكثير من المقدسات الاخرى الاسلامية والمسيحية، معرضة تلك الآثار الثمينة للخطر والضياع. ثم عمدت الى احاطة المدينة الغالية بسوار خانق من العمارات الشعبية العالية، حتى طمس افق المدينة، وتغير شكلها، وحشدت في تلك العمائر اعدادا كثيفة من المهاجرين اليهود، محاولة بذلك ان تضع العالم امام الأمر الواقع.

ولم تكتفِ بذلك، بل حاول بعضهم حرق المسجد الأقصى، كما يعلم الجميع، والصقوا هذه التهمة بمخبول، وتطاولوا على حرمة عرش السيدة العذراء.

سارع العرب لكشف هذه التصرفات غير القانونية لدى الرأي العام العالمي، وتقدموا بشكاوى حولها الى الأمم المتحدة التي قامت، منذ عام الاحتلال ١٩٦٧، بإنذار اسرائيل، وبشدة، للامتناع عن اجراء اي تغيير في وضع المدينة القانوني، او في معالمها التاريخية ومقدساتها، او في مخططها المدني.

فقد أصدرت الجمعية العمومية للأمم المتحدة في ٤ تموز ١٩٦٧ القرار رقم ٢٢٥٣ «بدعوة اسرائيل لالغاء كل الاجراءات التي اتخذتها (في القدس)، وبالطلب منها الامتناع عن القيام بأي عمل يغير وضع القدس».

وفي ١٤ تموز ١٩٦٧ اتخذت الجمعية العمومية قرارا اخرا برقم ٢٢٥٤ «يستنكر عدم قيام اسرائيل بتنفيذ قرار الجمعية العمومية رقم ٢٢٥٣ (المذكور انفا)، ويدعو اسرائيل مرة اخرى، الى الغاء جميع الاجراءات المتخذة، والى الامتناع عن القيام بأي عمل يغير معالم القدس».

وفي ١٤ كانون الأول ١٩٧٣، اتخذت الجمعية العمومية القرار رقم ٣٠٩٢ الذي تعرب فيه «عن اهتمامها العميق بنقض اسرائيل لاتفاقية جنيف الخاصة بحماية الاشخاص المدنيين في زمن الحرب، المؤرخة في ١٢ اب ١٩٤٩، وغيرها من الاتفاقات الدولية... وذلك بنهبها الآثار الثقافية والتاريخية في الأراضي المحتلة».

ونصت المادة الثانية من هذا القرار على «اعتبار كل الاجراءات المتخذة من قبل اسرائيل لتغيير المعالم الطبيعية والتركيب الديموغرافي، والنظم الأساسية، أو وضع الاراضي المحتلة، او



الحفريات الاسرائيلية في جوار المسجد الأقصى

أي جزء منها لاغياً وغير معترف به».

ودعت المادة الثامنة من القرار سائر الدول والمنظمات والوكالات الدولية «لعدم الاعتراف بأية تغييرات اجرتها اسرائيل في الأراضي المحتلة الخ...».

اما مجلس الأمن، فقد اتخذ في ٣ تموز ١٩٦٩ القرار رقم ٢٦٧ وفيه «يستنكر، بأقوى الألفاظ، كل الاجراءات المتخذة بهدف تغيير وضع مدينة القدس، واعتبرت المادة الرابعة من القرار كل الاجراءات التشريعية والادارية التي اتخذتها اسرائيل في القدس لاغية وغير ذات مفعول».

وكذلك اتخذ مجلس الأمن قرارا بالمعنى ذاته، مضيفا اليه استنكاره لعدم تجاوب اسرائيل معه وذلك تحت رقم ٢٩٨ بتاريخ ٢٥ ايلول ١٩٧١.

اما اليونسكو، وهي منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة والاعلام، فقد تناولت الموضوع من ناحيته العلمية والثقافية. فأصدر المؤتمر العام الخامس عشر لليونسكو، في خريف عام ١٩٦٨ القرار رقم ٣٣٤٣ وتضمن دعوة اسرائيل «للمحافظة بدقة على كل المواقع والمباني وسائر الممتلكات الثقافية (في الأراضي المحتلة)، وخاصة في مدينة القدس القديمة». ونصت الفقرة الثانية من نفس القرار على وجوب «امتناع اسرائيل عن القيام بأية حفريات، او نقل ملكية، او تغيير معالمها، او تغيير طابعها الثقافي والتاريخي».

لم تأبه اسرائيل لكل هذه القرارات، بل استمرت في طغيانها وفي الفتك بمعالم المدينة المقدسة، فأصدر المجلس التنفيذي في منظمة اليونسكو سلسلة من القرارات تدور كلها حول استنكار ما تقوم به اسرائيل من حفريات خطرة في المدينة المقدسة ومن تغيير لمعالمها، وتنص هذه القرارات على الاستنكار، ومن ثم ادانة اسرائيل لقيامها بهذه الاعمال غير الشرعية، وتطلب منها

التوقف الفوري عنها.

وتحقيقاً للبحث العلمي حول الموضوع، اشير الى ارقام هذه القرارات الصادرة عن المجلس التنفيذي لليونسكو:

١ - القرار رقم ٣٣٤٣ الصادر عن المجلس التنفيذي لليونسكو في دورته الخامسة عشرة بتاريخ ٢٠ تشرين الثاني ١٩٦٨.

٢ - القرار رقم ٤٤٣ الصادر بتاريخ ١٦ ايار ١٩٦٩.

٣ - القرار رقم ٤٣١ الصادر بتاريخ ٢٠ تشرين الأول ١٩٦٩.

٤ - القرار رقم ٤٣١ الصادر بتاريخ ٢١ تشرين الأول ١٩٧١.

٥ - القرار رقم ٤٤١ الصادر بتاريخ ٢٤ حزيران ١٩٧٤.

ولما بقيت كل هذه القرارات بلا جدوى، فقد عرضت الوفود العربية والمؤيدة الموضوع على المؤتمر العام لليونسكو في دورته العامة السابعة عشرة في خريف ١٩٧٢ الذي اتخذ قراراً رقم ٣٤٢٢ بتاريخ ٢٠ تشرين الثاني ١٩٧٢ يستنكر فيه استمرار اسرائيل بقيامها بالحفريات في القدس وبتغييرها معالم المدينة ويطلب منها، في الفقرة الثانية من القرار:

أ - «ان تتخذ التدابير الكفيلة بالحفاظ بدقة على كل المواقع والمباني وغيرها من الآثار الثقافية (في الأراضي المحتلة) وخاصة في مدينة القدس القديمة».

(ب) «ان تمتنع عن اجراء اي تغيير في معالم مدينة القدس».

(جـ) «ان تمتنع عن اجراء اية حفريات، أو أي نقل للملكية الثقافية، او اي تعديل في معالمها او في طابعها الثقافي والتاريخي، وعلى الأخص فيما يتعلق بالمعالم الدينية المسيحية والاسلامية».

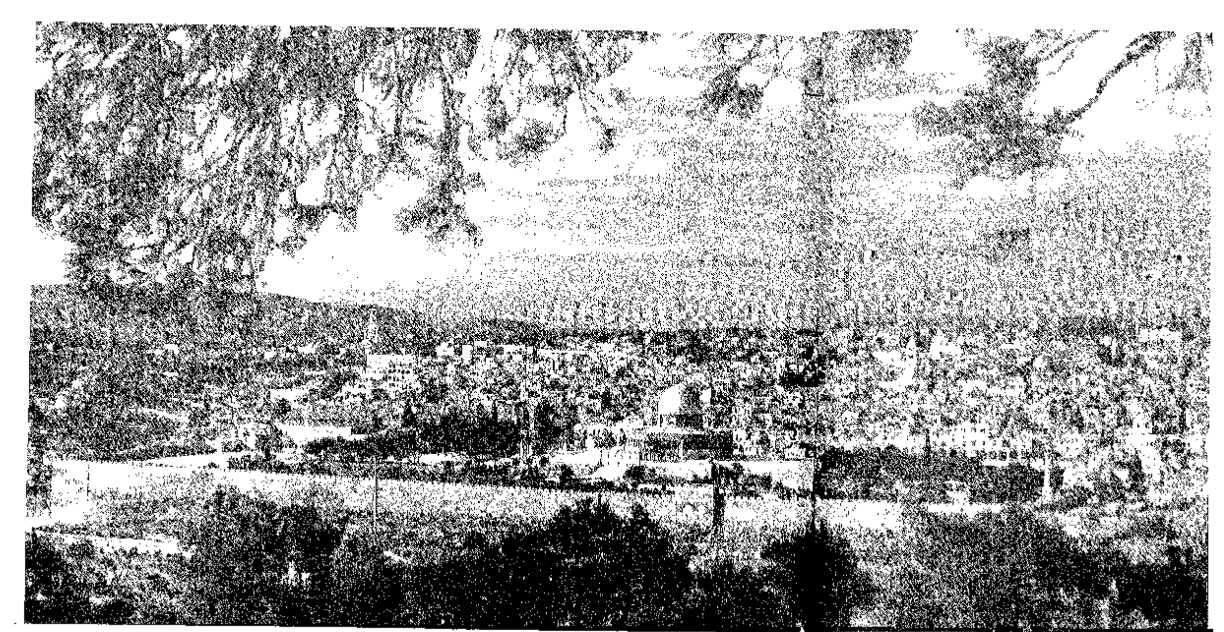
(د) «ان تحترم اسرائيل بدقة القواعد التي نص عليها الاتفاق الدولي الخاص بحماية الملكية الثقافية في حالة النزاع المسلح (لاهاي ١٩٥٤)».

ودعى القرار في فقرته الثالثة المدير العام لليونسكو لاقامة «وجود» لليونسكو في القدس من اجل التحقق من تنفيذ هذه المقررات.

استمر موقف اسرائيل المتعنت من هذه القرارات حتى تمكن المدير العام السابق لليونسكو، السيد رينه ماهو، من اقناعها بقبول «وجود» اليونسكو في القدس، وعين عام ١٩٧٤ الاستاذ ريمون لومير Raymond Lemaire، البلجيكي، والسكرتير العام للمجلس الدولي للمعالم والمواقع الأثرية ICOMOS، ممثلاً له في القدس للاشراف على تنفيذ مقررات المنظمة الدولية.

وقد قام السيد لومير بزيارة القدس في الفترة ما بين ١٦ و٢٣ نيسان ١٩٧٤، ووضع تقريراً رفعه الى المدير العالم لليونسكو الذي احتفظ به واودع المجلس التنفيذي للمنظمة نبذة مختصرة عنه.

وهذا التقرير لايتجاوب تماما والمهمة التي



كلف المدير العام بتنفيذها بواسطة ممثله في القدس، فقد اقتصر على ذكر نواح فنية بحتة تتعلق بالحفريات التي تجريها اسرائيل في القدس وما زالت مستمرة فيها، رغم قرارات اليونسكو التي تمنعها من ذلك.

على ان التقرير، رغم الهنات التي وردت فيه، دل بوضوح على امعان اسرائيل في تحدي قرارات اليونسكو، وفي استمرارها في اجراء الحفريات في القدس وفي تغيير معالم المدينة المقدسة.

وتقدمت الوفود العربية والمؤيدة بمشروع قرار الى المجلس التنفيذي يدين اسرائيل لمخالفاتها الكثيرة ولاستمرارها في تجاوز قرارات الأمم المتحدة واليونسكو في موضوع القدس، ويطلب طرح الموضوع على المؤتمر العام الثامن عشر لليونسكو. وقد فاز مشروع القرار هذا باقرار المجلس التنفيذي له باكثرية ٢٤ ضد لا شيء وامتناع ١١. وكان ذلك في ٢٤ حزيران ١٩٧٤.

وطرح الموضوع امام المؤتمر العام الثامن عشر لليونسكو بموجب قرار اعدته الوفود العربية والمؤيدة وفيه سرد تاريخي لقرارات الأمم المتحدة واليونسكو السابقة حول الموضوع، وتبيان موقف اسرائيل الرافض منها، ودعوة المؤتمر العام، بالتالي، لادانة اسرائيل، وقطع اعاناتها عنها. وقد كان لهذا المشروع ضجة كبرى في اوساط اليونسكو، وكذلك في الاوساط الخارجية، وسرت اشاعات حوله بأنه يسيّس موضوع القدس الثقافي، ويسيّس المنظمة الثقافية العالمية، كما وانه سيؤدي إلى إخراج اسرائيل من اليونسكو، وبالتالي الى وقف مساهمة بعض الدول في موازنة اليونسكو واعمالها احتجاجا منها على هذا الموقف.

وقد لاقى العرب ومؤيدوهم واصدقاؤهم

الكثيرون عراقيل جمة خاصة من بعض الدول الكبرى وغيرها من الدول الغربية ولكن ذلك لم يفت في عضدهم وتمكنوا، برغم تلك الصعوبات، من طرح مشروع القرار على المؤتمر العام الذي صوت عليه، بعد مناقشات طويلة اشترك فيها بالاضافة الى اعضاء اليونسكو منظمة التحرير الفلسطينية – التي كانت قد قبلت في مطلع الدورة كعضو مراقب في اليونسكو – وعدد من المنظمات اليهودية والصهيونية.

وفي ٢٠ تشرين الثاني ١٩٧٤، فاز المشروع العربي بأكثرية ٦٤ صوتاً ضد ٢٧ صوتاً وامتناع ٢٦ وغياب ١٧ صوتاً.

واذكر فيما يلي الفقرات الثلاث العملية للقرار:

١ – «يؤكد جميع القرارات المشار اليها آنفاً ويصر على تنفيذها».

٢ – «يدين اسرائيل لموقفها المناقض للأهداف التي تتوخاها المنظمة كما وردت في ميثاقها التأسيسي، باستمرارها في تغيير معالم مدينة القدس التاريخية وفي اجراء الحفريات التي تشكل خطرا على اثارها، وذلك عقب احتلالها غير الشرعي لهذه المدينة».

٣ – «يدعو المدير العام الى عدم تقديم اي عون في ميادين التربية والعلم والثقافة لاسرائيل، وذلك الى ان تحترم بدقة القرارات المشار اليها انفاً.»

هذه القرارات، الصادرة عن الجمعية العامة للأمم المتحدة، وعن مجلس الأمن، وعن اليونسكو، لم تكن لتوقف اسرائيل عن السير في خطتها لضم القدس؛ حتى انه يمكن القول انه لم تخلُ دورة فيما بعد، من دورات الأمم المتحدة واليونسكو الا وكانت القدس على جدول اعمالها. ولن اتطرق الى ذكر مجموعة القرارات الصادرة عن تلك الدورات فكلها تدين اعمال اسرائيل وترفض الاعتراف بها.

ونصل الى العام ١٩٨٠، عندما باشرت اسرائيل اتخاذ الخطوات التشريعية الأخيرة بضم القدس نهائياً اليها. فتقدمت الدول الاسلامية بشكوى الى مجلس الأمن، وأرفقتها بمشروع قرار ناقشه المجلس واجرى عليه تعديلات طفيفة، ثم أقره في ٣٠ – ٦ – ١٩٨٠ بأكثرية ١٤ صوتاً وامتناع الولايات المتحدة الاميركية عن التصويت . وتضمن القرار رقم ٤٧٦ النقاط الست التالية:

١ – التشديد على الضرورة القصوى لأنهاء الاحتلال الاسرائيلي للأراضي العربية المحتلة منذ العام ١٩٦٧، بما في ذلك القدس.

٢ – التنديد بشدة باستمرار رفض اسرائيل التقيد بقرارات مجلس الامن والجمعية العامة.

٣ – التأكيد مجدداً ان الاجراءات الاشتراعية والادارية والأعمال التي اتخذتها اسرائيل والتي تهدف الى الغاء وضع مدينة القدس هي اجراءات غير قانونية وتشكل خرقاً فاضحاً لميثاق جنيف المتعلق بحماية المدنيين في زمن الحرب، كذلك تشكل عقبة خطيرة في طريق الوصول الى سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط.

٤ – التشديد على اعتبار كل هذه الاجراءات باطلة ولاغية تمشياً مع قرارات مجلس الأمن.

٥ – دعوة اسرائيل بصورة معجلة الى التقيد بهذه القرارات والقرارات السابقة لمجلس الامن، والكف حالاً عن الاستمرارا في اتخاذ اجراءات تؤثر على وضع مدينة القدس المقدسة.

٦ – التشديد مجدداً، على ضوء عدم انصياع اسرائيل لهذا القرار، على النظر في سبل ووسائل يفرضها ميثاق الأمم المتحدة لضمان تنفيذ القرار تنفيذاً كاملاً.

هذا القرار ، مثل غيره، لم يؤثر على اسرائيل، ولم يقنعها بوقف اعمال ضم المدينة، بل بالعكس، كان حافزاً لها للتحدي، وللاسراع في ابرام عملية الضم.

فبعد شهر بالتمام من تاريخ قرار مجلس الأمن السالف الذكر، اي في ٣٠ – ٧ – ١٩٨٠، أقر الكنيست الاسرائيلي قانون ضم القدس بأكثرية ٦٩ صوتاً ضد ١٥ وامتناع ٣ نواب عن التصويت. وينص القانون الاسرائيلي على البنود التالية:

١ – ان القدس الموحدة كاملة هي عاصمة اسرائيل.

٢ – ان القدس مقر رئيس البلاد والكنيست والحكومة والمحكمة العليا.

٣ – ان الاماكن المقدسة ستُحْمَى من التدنيس ومن اي اضرار واي شيء يمكن ان يؤثر على الوصول الحر لكل الديانات الى اماكنها المقدسة، او على مشاعرها نحو هذه الأماكن.

٤ – ان الحكومة ستشرف على تطوير القدس ونموها.

لم يفاجيء هذا القرارا أحداً، فقد كانت نوايا اسرائيل تشير اليه منذ العام ١٩٦٧. ولكنه حفز العرب والمسلمين وكثيراً من سائر الدول، الى رفضه واعلان بطلانه.

وكان، بالطبع، اول صوت يعلو برفضه صوت فلسطين. فبادرت اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، في ١-٨-١٩٨٠، لإصدار البيان التالي:

١ – «ان ما اقدم عليه العدو الصهيوني في شأن القدس يشكل انتهاكاً صارخاً للشرعية الدولية وقرارات الأمم المتحدة في شأن القدس، واعتداء صارخاً على ارادة الرأي العام العالمي. وهو يمثل حلقة جديدة في سلسلة الاعتداءات والجرائم الاسرائيلية ضد الشعب الفلسطيني وحرمة ترابه الوطني، كما تمثل عدواناً على القيم الدينية للمسلمين والمسيحيين، ويفرض عليهم مواجهة مصيرية وعقائدية وجوداً وعقيدة وممارسة.

٢ – ان صدور هذا القانون العدواني في اعقاب القرارات التي اتخذتها الأمم التحدة في شأن القدس وقضية فلسطين، والتي كان آخرها القرار رقم ١ في الجلسة الاستثنائية الطارئة رقم ٧ يمثل الاستعمار الصهيوني الاستيطاني في تناقضه الدائم مع الشرعية الدولية، واستهتاره بقيم جميع المؤمنين ومعاكسته تيار التاريخ. وان هذا التحدي الصهيوني يكشف عزلة الكيان الصهيوني على الصعيد العالمي.

٣ – ان مسؤولية هذا العدوان الصهيوني على القدس تقع في المقام الأول على كاهل الولايات المتحدة الامريكية التي تقدم الى الكيان الصهيوني الدعم المادي والعسكري والسياسي غير المشروط لتمكينه من ممارسة اعتداءاته وجرائمه واستمرار اغتصابه واحتلاله للأراضي الفلسطينية والعربية وتنفيذ مخططاته التوسعية. ولا تزال تقوم بذلك، مشاركة في هذا الكيان الصهيوني المعزول في تحديه للقرارات الدولية والاستهتار بالقيم والمثل الانسانية والقوانين الدولية.

٤ – ان القدس هي عاصمة وطننا فلسطين العربية منذ ان بناها اجدادانا اليبوسيّون الكنعانيون العرب في قلب فلسطين، وهي قبلة المؤمنين، ومن ثم فان تحرير القدس من محتلّيها الصهاينة المنكرين للمسيحية والاسلام قضية مصيرية لشعبنا وأمتنا، وهو السبيل الوحيد لتأمين حرية العبادة فيها لجميع المؤمنين.

٥ – ان اللجنة التنفيذية، وهي تقدر مواقف الدول التي استنكرت هذا العدوان على القدس، تدعو الأمم المتحدة الى تحمل مسؤوليتها حيال هذا العدوان بتطبيق العقوبات التي نص عليها ميثاقها، كما تدعو جميع دول العالم الى اتخاذ اجراءات عملية تساهم في ردع التعدي الصهيوني.

ان اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، وهي تدرك من موقع مسؤولياتها الوطنية والقومية والدولية خطورة هذا العدوان، تعاهد شعبنا وامتنا والعالم اجمع على مواصلة الكفاح بجميع الوسائل لتحرير التراب الوطني الفلسطيني وفي مقدمته القدس الشريف».

وسارعت الدول العربية والاسلامية الى رفض القرار الاسرائيلي بضم القدس طالبة من مجموعة الدول عدم الاعتراف به. واتخذت الحكومتان العراقية والعربية السعودية قراراً مشتركا في ٦ – ٨ – ١٩٨٠ بقطع كل العلاقات السياسية والاقتصادية مع اية دولة تستجيب لقرار الكيان الصهيوني، او تبقي على سفارتها في القدس بعد ذلك القرار. وتبنت دول عربية اخرى هذا القرار واعلنت تقيُّدها به.

وتحرّكت منظمة المؤتمر الاسلامي فبادر رئيسها الحالي رئيس حكومة الباكستان الى توجيه رسالة الى رئيس مجلس الأمن يلفت نظره فيه الى قرار المجلس رقم ٤٧٦ (السابق ذكره) الذي يشير، في حال عدم اذعان اسرائيل

لمضمون القرار، الى «دراسة الطرق والوسائل العلمية وفقاً لميثاق الأمم المتحدة لضمان التنفيذ التام لقراره». واضافت الرسالة ان «اسرائيل، القوة المحتلة، وهي تتجاهل تجاهلاً تاماً عواطف وإرادة المجتمع الدولي، تنتهك انتهاكاً فاضحاً قرارات مجلس الامن المتعلقة بالوضع الخاص لمدينة القدس المقدسة، وقد ثابرت على تصميمها لتغيير وضع المدينة المقدسة، وأصدرت قانوناً يعلن مدينة القدس المقدّسة عاصمة لاسرائيل».

وطلب رئيس منظمة المؤتمر الاسلامي اجتماع مجلس الأمن «نظراً للمضاعفات الخطيرة ولجدية للعمل الاسرائيلي وما له من نتائج بالنسبة للسلام والأمن العالمين».

اجتمع مجلس الأمن وبحث الموضوع، واتخذ في ٢٠ - ٨ - ١٩٨٠ القرار رقم ٤٧٨ بأغلبية ١٤ صوتاً مقابل لا شيء وامتناع الولايات المتحدة الاميركية عن التصويت. وفيما يلي نص القرار:

«ان مجلس الأمن،

إذ يذكر بقراره رقم ٤٧٦ (١٩٨٠) بتاريخ ٣٠ حزيران، وإذ يؤكد مجدداً أن الاستيلاء على الأراضي بالقوة هو أمر غير مقبول، وإذ يعبّر عن قلقه العميق لتشريع «قانون أساسي» في البرلمان الاسرائيلي يعلن تغييراً في طابع ووضع مدينة القدس المقدسة، مع انعكاسات ذلك على السلام والأمن،

وإذ يسجل ان اسرائيل لم تلتزم بقرار مجلس الأمن رقم ٤٧٦ (١٩٨٠)، وإذ يعيد تأكيد تصميمه على دراسة طرق ووسائل عملية وفقاً لميثاق الأمم المتحدة لضمان التنفيذ التام لقراره رقم ٤٧٦ (١٩٨٠) في حال عدم اذعان اسرائيل:

١ - يستهجن بأقوى الأساليب التشريع الذي وضعته اسرائيل في «قانون اساسي» حول القدس، ورفضها الاذعان لقرارات مجلس الأمن في الموضوع،

٢ - يؤكد ان تشريع «القانون الأساسي» من قبل اسرائيل يشكل خرقاً للقانون الدولي، ولا يؤثر على استمرار تطبيق اتفاقية جنيف الرابعة بتاريخ ١٢ - ٨ - ١٩٤٩ الخاصة بحماية المدنيين في وقت الحرب في الأراضي الفلسطينية والعربية الأخرى المحتلة منذ حزيران ١٩٦٧ بما فيها القدس،

٣ - يقرر ان كل الاجراءات والتدابير التشريعية والادارية المتخذة من قبل اسرائيل، القوة المحتلة، والتي غيرت او توحي بتغيير في طابع ووضع مدينة القدس المقدسة، وخاصة «القانون الأساسي» الأخير بشأن القدس، هي لاغية وباطلة، ويجب الغاؤها فوراً.

٤ - يؤكد ايضاً ان هذا العمل يشكل عائقاً خطيراً امام الوصول الى سلام شامل وعادل ودائم في الشرق الأوسط.

٥ - يقرر عدم الاعتراف بـ «القانون الأساسي» وبأعمال اسرائيل الأخرى التي تقوم بها، كنتيجة لهذا القانون، ابتغاء تغيير طابع ووضع القدس، ويدعو كل اعضاء الأمم المتحدة:

(أ) لقبول هذا القرار.

(ب) الطلب من الدول التي انشأت بعثات دبلوماسية في القدس سحب هذه البعثات من المدينة المقدسة.

٦ - يطلب من الأمين العام تقديم تقرير لمجلس الأمن عن تنفيذ هذا القرار قبل ١٥ - ١١ - ١٩٨٠.

٧ - يقرّر أن يبقي يده على هذا الوضع الخطير».

ونتيجة لهذا القرار بادرت ثلاث عشرة دولة - هي مجموع الدول التي كانت سفاراتها تقوم في القدس - الى نقلها الى تل أبيب، ولم تبق، على ما نعلم، اي سفارة اجنبية في القدس.



حي من القدس القديمة.

هذه لمحة عامة عن موقف الامم المتحدة واليونسكو من القدس منذ حرب حزيران ١٩٦٧ وحتى اعداد هذه الدراسة في تشرين الأول ١٩٨٠.

هذا الموقف يعارض، بلا شك، بل يرفض، العدوان الاسرائيلي على المدينة المقدسة.

ولكن هذا الموقف، مع سلامته القانونية، لا يعيد المدينة العزيزة الغالية، جوهرة المدائن، الى السيادة العربية، بل انه لا يشكل حتى سند تملّك للعرب.

انه قرار يضاف الى المجموعة الضخمة من القرارات التي استصدرها العرب واصدقاؤهم من الأمم المتحدة ووكالاتها العامة حول القضية الفلسطينية، التي اصبحت قضية الشرق الأوسط.

انه قرار يدعم الحق، ولكنه لا يعيد الحق.

انه قرار يلهو به التاريخ!

التاريخ الذي أنصف القوي، وحرم الضعيف.

التاريخ الذي ينقض قول شوقي امير الشعراء: «يا فاتح القدس خلِّ السيف ناحية»، وإن كان شوقي ينطلق منه الى الاعتبارات الروحية.

فبالسيف دخل اللنبي القدس عام ١٩١٧، وبالدبابة دخل الاسرائيليون القدس، بعد نصف قرن، عام ١٩٦٧،

وبأمضى من السيف وأقوى من الدبابة، يستعيد العرب القدس.

وانهم لفاعلون. ■



● إذا ضمن الشرف الشبان والمستقبل، فقد ضمن كل شيء وهانت عليه خسارة الحاضر وإن كانت جسيمة.
العقاد



مشهد من قلعة بربر في إيعال

نفح العنبر بتاريخ بربر

رسالة مخطوطة لإلياس صدقة الطرابلسي

د. عمر عبد السلام تدمري

«مصطفى بربر» حاكم طرابلس وملحقاتها، له تاريخ حافل وهام في ولايته بشكل خاص، وفي لبنان بشكل عام. وله مشاركة مؤثّرة في أحداث الثلاثينات الأولى من القرن التاسع عشر، وخاصة أثناء الحملة المصرية الى بلاد الشام، والصراع العنيف الذي كانت تشهده المنطقة بين السيطرة العثمانية والولاة والباشاوات الذين كانوا يحاولون بسط نفوذهم خارج إرادة الدولة أو عن طريقها. فهو معاصر لمحمد علي الكبير وابنه ابراهيم باشا، وأحمد باشا الجزار، والأمير بشير الشهابي، وغيرهم.

وسيرة هذا الحاكم القريبة من الأسطورة لما تميّزت به شخصيته الفذة، مبثوثة في كتب التواريخ التي تتناول بلاد الشام في تاريخها الحديث بشكل عام، ولبنان بشكل خاص. الى جانب بعض المؤلفات الخاصة التي وُضعت عن سيرته الذاتية.

وحين وضع «أغناطيوس الخوري» كتابه بعنوان «مصطفى بربر، حاكم ايالة طرابلس وجبلة ولاذقية العرب (١٧٦٧ - ١٨٣٤)»، اعتمد فيما اعتمد عليه من مصادر ومراجع على مصنّف وضعه «نوفل نوفل الطرابلسي» ينقل فيه عن مخطوطة صغيرة لإلياس صدقة الطرابلسي (١٨١٠ - ١٨٨٣) أسماها «تاريخ مصطفى بربر». فهو (أعني أغناطيوس) لم يطّلع على كرّاسة الياس صدقة، وإنما اخذ عنها بوساطة معاصره نوفل. وذكر ذلك صراحة في التعريف

* د. عمر عبد السلام تدمري: رئيس قسم الآثار، استاذ التاريخ الاسلامي في الجامعة اللبنانية، فروع طرابلس.

بمصادر كتابه، فقال: «**الياس صدقه** وضع كراساً عن بربر اسماه «تاريخ مصطفى بربر». وقد بحثنا عنه كثيراً لنتدبره ونستند اليه في تأليفنا هذا، نظراً لمكانته من القيمة والثقة، ولكون مؤلفه هو من عصر بربر، أو شاهد عياني لما كتب وروى، وقد قيل لنا انه في حوزة العلامة عيسى المعلوف، صديقنا الكريم، فطلبنا منه فأنكره وأكدّ لنا انه عند زميله الأستاذ جرجي ينّي، صديقنا البحاثة أيضاً وصاحب مجلة المباحث في طرابلس، رحمه الله، وهذا أيضاً أنكر الكراس، وحاول إقناعنا ان الأستاذ معلوف قد احتازه بعده، ولم يعد يسمع عنه خبراً، مما انكره المعلوف ثانية... فتم في موقفنا بين الصديقين العالمين، المثل السائر «بين حانا ومانا ضاعت لحانا». أي بين ينّي ومعلوف ضاع تاريخ بربر الذي من قلم المرحوم الياس صدقة»(1).

ومنذ مدة قريبة، وقعت تحت يدي رسالة مؤرخة في سنة ١٨٤٠ تحمل عنوان «**نفح العنبر بتاريخ بربر**» وهي قسم من الكرّاس الذي وضعه الياس صدقة - على الأرجح - تتضمن سيرة بربر خلال الفترة الواقعة بين سنتي ١٧٦٧ - ١٨٠٨ أي منذ نشأته وحتى نهاية فترة حكمه الأولى لطرابلس. والمعروف ان بربر حكم طرابلس على أربع دفعات (١٨٠٠ - ١٨٠٨) و(١٨١٠ - ١٨٢٠) و(١٨٢١) و(١٨٣١ - ١٨٣٣) وكانت وفاته في قرية إيعال القريبة من طرابلس يوم الاثنين ١٨ شوال ١٢٥٠هـ / ٢٨ نيسان ١٨٣٥م.

وكراسة صدقة تعتبر أهم مصدر مكتوب في تاريخ بربر، إذ أن كاتبها كان معاصراً للأحداث، وصديقاً شخصياً لبربر، فذكر ما شاهده بنفسه، وما سمعه منه شفاهاً، وما أخذه منه عسكر جيشه. ونظراً لهذه الأهمية رأيت نشر هذا القسم كما كتبه صاحبه بالعامية المزوجة بالفصحى، وساعمل على تصويب بعض ألفاظه وعباراته وأخطائه النحوية واللغوية دون تشويه في صياغته التي تعطينا مثالاً عن نماذج كتابات المؤرخين اللبنانيين في القرن التاسع عشر.

نفح العنبر بتاريخ بربر

[بسم الله... ... ...]

«أما بعد، فهذه مسودة رسالة «نفح العنبر بتاريخ بربر»، رسمت عباراتها بلغة سهلة الفهم، مُتَرخة بالتاريخ المسيحي، وسوف أضع معه التاريخ الهجري، حسبما طلبه مني... ...(2) عندما اجتمعنا معه ببيته، وقد جمعت هذه الأخبار حسبما شاهدته وسمعته منه، ومن عسكر جيشه. وبالله الاستعانة والتوفيق.

غب هذه المقدمة نرسم على ورقة الكدش ما يأتي:

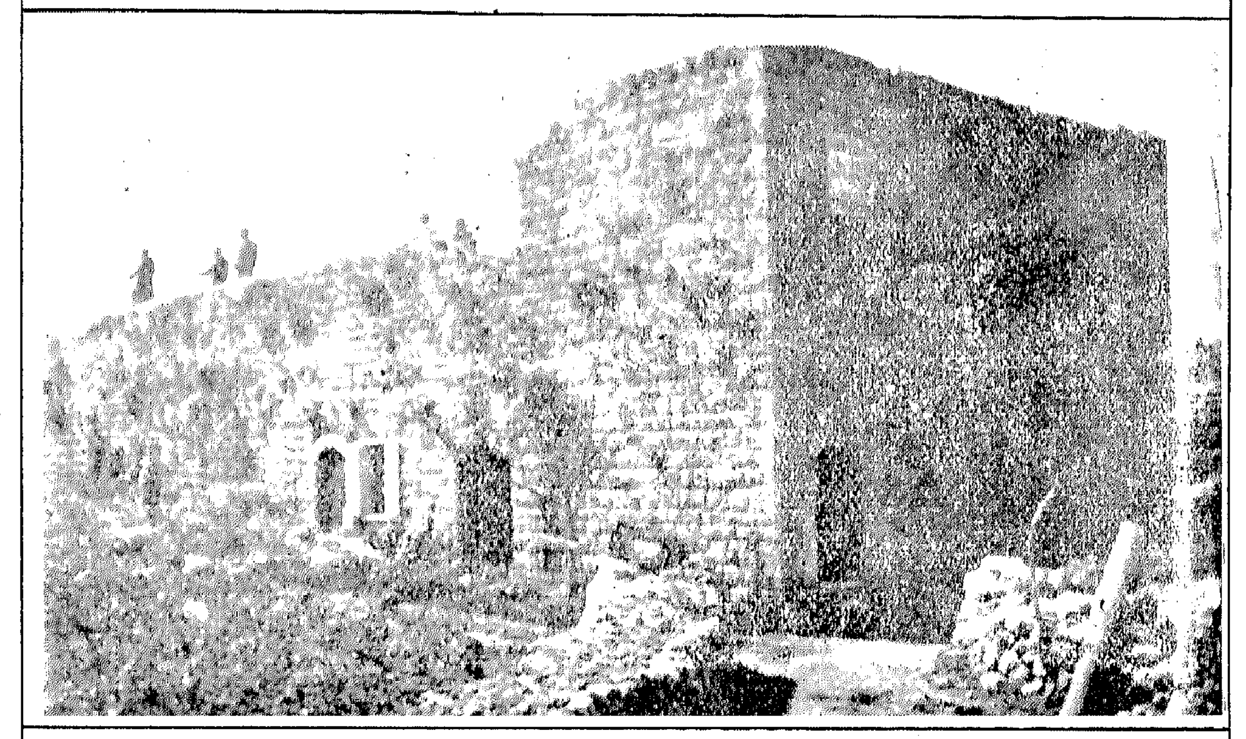
هو مصطفى آغا ابن حسن القرق، من أهالي المحميّة المحروسة(3).

ولد سنة ١١٨٠ هجرية، التي يقابلها ١٧٦٧ مسيحية. ينتمي الى عيلة القرق من طرابلس. أما كلمة «بربر» فهي بلغة دولتنا العلية، وتعني الحلّاق، وقد يكون، والله أعلم، أحد أجداده اشتغل حلّاقاً فأطلق عليه اسم بربر، كما تُكنى أكثر عيلات (عائلات) المحميّة، فإنهم يُنسبون الى أحد أجدادهم، والمثل بيقول: (لولا اللبايق (الألقاب) ما نعرفت الخلايق).

مات أبوه مخلّفاً مصطفى وأخاه(4) محمد المشهور بعزرايين (عزرائيل)، وأمهما في حالة فقر شديدة، فأخدتن (فأخذتهم) أمّهم الى ضيعة «بَرْسا» بمنطقة الكورة ظاهر المحمية، وقد كَبُر ببرسا وصار يتقلّب في الخدمات الوضيعة قبل ان يعزّه الله بالولاية، فخدم عند الأمير «علي الأيوبي» بضيعة «ددّه» بالكورة، وبعدين (وبعدئذ) خدم عند الشيخ رعد صاحب الضنيّة، كما خدم براس النحاش عند الأمرا الأيوبية، وعند مشايخ بني زكريا حكام القويطع. وكانت وظيفته

أن يركض إدّام (أمام) الأمير، ويحمل مرتينته (بندقيته) على كتفه وقت يكون الأمير راكب الفرس، ورايح لأحد المحلّات، كعادة أهل البر في بلادنا.

ولكن بعد مدة من الزمن، بعد أن خدم هؤلاء الأمرا، ملّ من هذه الشغلة المتعبة، فأراد الرجوع الى شغلته التي كان يشتغلها أيام طفره (فقره)، وصار يبيع البلّان لفران (لأفران) طرابلس منشان (من أجل) الوَقْد وخَبْز الخبز عليها. واتفق مع أحد كالة الزيت النصارى على ضمان زيتون «البلمند»[٥]، ولكن فقرن أعجزهن (فقرهم أعجزهم)، فاتفقوا على أن يشتركوا مع «يوسف خلاط» ليمدهن (ليمدهم) بالمال، وعاهداه على إعطائه تلت الربح، فأعطاهم المال، وتمّت التضمينة، وصار بربر ينقل الزيت للمحمية ويبيعه للمصابن، ثم ياخذ التمن لشريكه خلاط، وقد ربحت التضمينة لزيتون «دير البلمند» ألفاً وثمانماية غرش (غرشاً)، واشترى حصاناً وسلاحاً، ومضى الى الأمير «يوسف شهاب» والتحق بخدمته فارساً حتى سنة ١٧٨٨ وعندما كان بخدمته صحبه في حملته. وعاد بربر في تلك السنة - ١٧٧٨ - من خدمة الأمير «يوسف شهاب» وقد تزنكل (أثرى) بماله، وتمرّس على حياة الأمرا. وحضر الى ضيعته «برسا» وابتاع هنالك بيتاً



باكية برسا أو باكية بربر

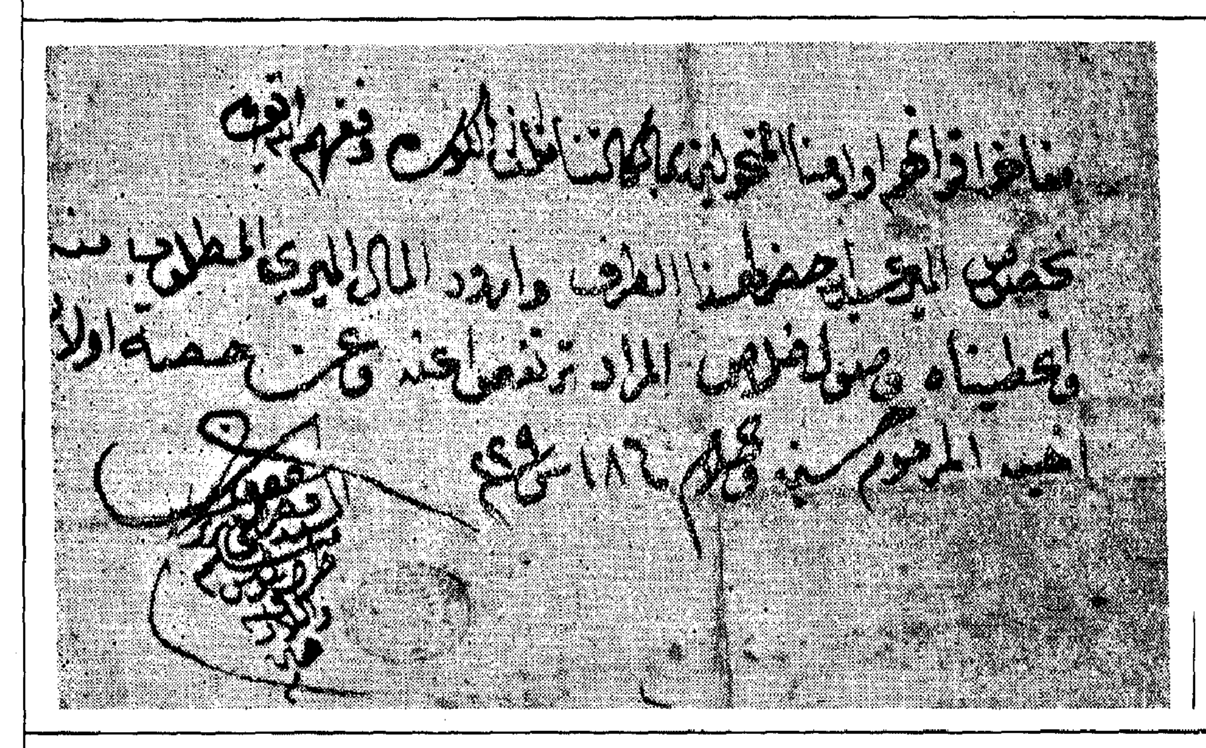
وبعض الأملاك. وعمل أبضايا (قبضايا = فُتُوَّة) بالضيعة، فخاف منه «محمد الأسعد» قيمقام (قائمقام) طرابلس. وفي أحد (إحدى) السنوات نهب أعداء بربر موسم الحرير من أملاكه وباعوه بالسوق، فما جسر (تجرّأ) أحد على شرائه.

وحدّثني ثقة فقال: عمل اعدائه (أعداؤه) عصابة عليه لقتله، وحلفوا بالأيمان المغلّظة لكتم الأمر، ولكن خاف احدهم ان يخرب تدبيرهم، فتسلّل من قريته «ددّه» الى «رسا» بالليل، فوصل الى دار بربر وخبط على الحيط، ولم يكلم بربر حتى لا يحنث في اليمين والعهد، وقال: يا حيط يا حيط بَدُّنْ يقتلوك الليلة احذر. فأجابه بربر بقرع على الحيط، ثلاث مرات، من جوّات البيت، وعمل الحَيْطَة وظل صاحياً، ونجا من القتل بالحيلة، وصار يعتقل المتعصبين لقتله واحد ورا واحد.

وعندما كان «بربر» عامل أبضاي ببرسا كان في طرابلس جماعة من وجـاق (فرقـة)

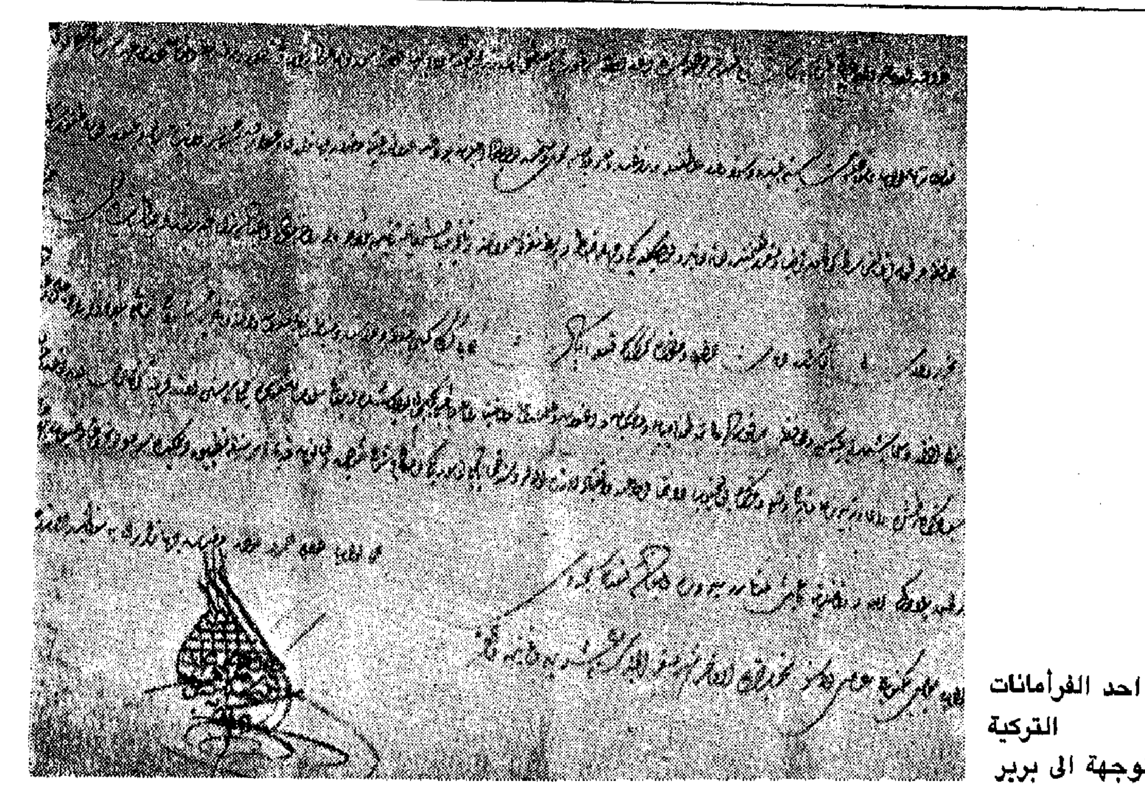
الانكشاري قد وقع بينهم خلاف خطير، وكان زعيمهم «ابراهيم آغا سلطان» فناوأه كبيرهم «مصطفى اغا الدلبة»، وأصل الشـران «ابراهيم أغـا سلطان» استقـدم فوج (فـوجاً) من الأرناؤوط، فعاثوا في طرابلس فساداً، فضجّ الناس منهم وأيّدوا «مصطفى آغا الدلبة» في حركته، ودخل بربر طرابلس في هذه المدة، والحرب عالقة بينهم، فحارب مع «مصطفى آغا الدلبة» وعمل ترسه حزمة بلّان حملها أمامه، وصار يتّقي بها ضرب السيف، وحارب حرباً شجاعة. وكان جيش الدلبة لا يتمكنون من جيش سلطان لأن جيش سلطان تترّسوا بالسراي، فنقب عليهم بربر حيط السارية من أحد البيوت المجاورة، ودخل عليهم فأنزل بهم الفتك، فأحبه الانكشارية و«مصطفى الدلبة» بعمله هذا، فصار انكشارياً من «أوتوزالتي». ورسم على ساعديه شعارهم، فأكسبه دهاؤه[٦] وحيلته وحسن عشرته حبّ الانكشارية، وصار يحضر اجتماعاتهم ويستشيرونه في الأسرار التي تهم الوجاق الانكشاري.

ولما انتظم بربر في وجاق الانكشارية بطرابلس لم يلبث ان ركب في نفر من الجند الى عكا، فانخرط في خدمة واليها «احمد باشا الجزار» وقد أثار إعجاب مولاه به لحكمته ودهائه، فأرسله



امضاء مصطفى بربر الرسمي

الى بيروت زعيماً للانكشارية فيها، وأقام بها زماناً. وعندما تـولى «عبد الله بـاشا العظم» الدمشقي طرابلس هرع بربر الى عكا طالباً من الجزار السماح له بالذهاب الى طرابلس، فزوّده بالرجال والعتاد، وأرسله على رأسهم الى طرابلس. وعندما وصل الى طرابلس اراد دخول القلعة والتولّي على طرابلس. وكانت حامية القلعة تغلق الأبواب عند المساء ويقيمون على حراستها، واتفق مع جنده على دخول القلعة، وبعث رجلاً من جنده يدعى «محمد آغا القوندقجي» لينام مع الحراس، فذهب الى القلعة، ولما حلّ الليل ونام العسكر، نهض «محمد أغا» هذا وربط حبلاً طويلاً بأحد المدافع ودندله (دلّاه) من فوق القلعة، فأخذت فرقة بربر يتسلقون الحيط حتى وصلوا الى الداخل بما فيهم بربر نفسه، وهجموا على الدزدار وقتلوه، ثم هجموا على باقي الأنفار، وكان عددهم ثلاثين، فلما خلّصوا منهم ضربوا مدفعاً[٧] لكل قتيل، على عادة أيامنا هذه [سنة ١٨٤٠]، فقوّص المدفع ثلاثين تقويصة على عدد القتلى، فارتاع الزلم (الأزلام) الموجودة



احد الفرامانات التركية الموجهة الى بربر

(الموجودون) في البلد، ولم يعرفوا الخبر الصحيح حتى مطلع الضو، وعلموا الخبر.

وعندما تولى بربر القلعة كان المتسلم «ابراهيم سلطان» متسلماً من قِبَل «عبد الله باشا العظم»، فطرده بربر من طرابلس الى خارج الإيالة، فعلم «عبد الله باشا» فأرسل فرماناً[8] لبربر يعزله وأنه لم يولّه، ويعينٌ شخصاً مكانه. فأخذ بربر الفرمان ومسح اسم الشخص ورسم اسمه وأخفى الفرمان حتى عُزل «عبد الله باشا» عن الشام، وظهر هذا الأمر، فبعث بالهدايا الى الجزار والتهاني، فعيّنه متسلّماً عليها، ثم تصالح «عبد الله باشا العظم» مع الجزار فأعاده الى الولاية، فأرسل العظم الى مصطفى بربر فرمانين، الأول منح بربر رتبة الآغوية، والثاني تعيينه متسلما على طرابلس، وإهداءه[9] خلعة كرك سمور[10]. وبعد مضي مدة من توليته على ايالة طرابلس وملحقاتها لزم اقليم الشعرة لسنة واحدة الى «شديد المصطفى شملي» وكيلاً عن «درويش اغا ابن حسن الحمزة دندشلي» بمبلغ اربعة آلاف قرش اسدية من اول سنة ١٢١٦ الى انتهائها.

وعندما صارت سنة ١٢١٧ هجرية الموافقها ١٨٠٢ مسيحية عمّر فيها بربر سبيل ماء قرب بوابة الحدادين جاء تاريخه:

وله التاريخ يعطي شربة من ماء زمزم[11]

١٢١٧

كما ورد في أول ذي[12] الحجة ١٢١٧ هجرية فرمان عليشان (عالي الشأن) من اسلامبول مرسوم بالخط الهميوني من «ابراهيم» كتخدا التحرّيات الجهادية يبقيه فيه محافظاً على القلعة.

وفي سنة ١٨٠٣ سافر مصطفى آغا بربر الى عكا لتحية الجزار، وأناب عنه وكيلين في غيابه بموجب بيورلدي، فأناب الأول، وهو «الشيخ عباس شديد رعد» على المدينة، و«الحاج مصطفى اغا زهرة» على القلعة.

وفي هذه السنة غضبت الدولة العلية على «عبد الله باشا العظم» وانتزعت منه الشام وملحقاتها وإيالة طرابلس، وأحالتها الى الجزار. ثم بعد مدة رفعت الدولة العليّة غضبها عن



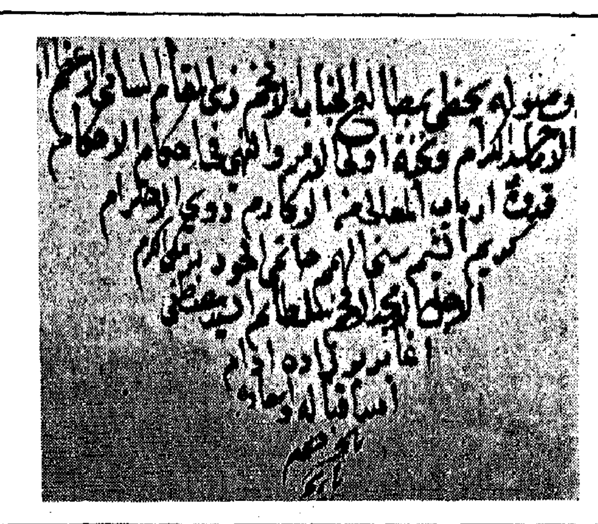
كتابة فوق محراب المصلّ بالقلعة الذي جدده مصطفى أغا بربر حاكم طرابلس سنة ١٢١٦هـ

العظم بسبب خلاف بين الجزار و«محمد باشا بومرق»، وحاصر الجزار بعسكره يافا مضيّقا على «بومرق»، فأصدرت الاستانة الأمر للجزار بالعدول عن الحصار، فلم يجب، فبعثت بفرمان تعلن غضبها عليه. وسار العظم بجيوشه الى طرابلس مضيقاً على بربر وحصره في القلعة، فبعث بربر يطلب النجدة من الجزار، فأرسل اليه النجدة، فلما وصلت للمينا كبسها «الكنج يوسف باشا» وأوقع فيها القتل. وأخذ العظم يشدد الحصار، فأرسل الجزار نجدة ثانية، فطلع عليها النّوّ فأغرق منها ثماني سفن حربية. ثم استرضى الجزار الدولة العليّة واتّهم العظم بأنه صار موهّبيا[١٣]، وأرسل اليه بجيش، فاضطر العظم أن يفك الحصار عن طرابلس.

وفي سنة ١٨٠٥ ورد الى بربر فرمان من الاستانة العليّة من قايد الانكشارية الأعلى «ابراهيم حلمي» باللغة التركية، يتضمن تجديد الولاية والمحافظة على القلعة وسائر شؤون الإيالة.

وفي سنة ١٨٠٦ رفع شيخ النصيرية «صقر المحفوض» راسه، وأبى دفع الميري، فسار اليه بربر بجيش من سائر المناطق بلغ ثلاثة آلاف زلمه (رجل) وشعل (أشعل) عليهم الحرب، وقطع خمسة عشر رأساً وأرسلهم الى عكا، و أدخلهم الى الطاعة، وشدّد عليهم. ورجعت العساكر لبلادها؛ فأرسل أهل صافيتا عرضحال الى «سليمان باشا» يطلبون أن يقبلهم بدين الاسلام، وأنهم يدينون بالطاعة، وسيبنون جامعاً للعبادة، وأن يردّ اليهم «صقر المحفوض» و«الشيخ دندش».

في سنة ١٢٢٢هـ - ١٨٠٧ تنازل «عبد الله باشا العظم» عن الشام ولزم داره بأمر الدولة، وعيّنت خَلَفًا له «الكنج يوسف باشا» فقبض بيد حديد على الحكم، وقطع الشاقوات واللصوصيات، وأرسل يطلب بربر، فخاف على نفسه ولم يروح (يذهب) لعنده، فغضب عليه. وذهب أعداء بربر الى الشام وحرّضوا الكنج عليه. وأراد بربر ان يتوسط بالصلح مع الكنج، فطلب ثمانماية كيس ليرفع الحصار عن طرابلس، فكتب الى «الأمير بشير» وأعلمه الأمر، فكتب



من الرسائل الموجهة إلى بربر آغا: غب وصوله يحظى بمطالع الجناب الأفخم، ذي المقام السامي الاعظم، افتخار الأماجد الكرام، ونخبة أولي الامر والنهي في أحكام الأحكام، قدوة أرباب المعالي من ذوي الاحترام، كريم الشيم، سني الهمم، حاتمي الجود، برمكي الكرم الاجلّ الأمجد الافخم سلطانم، السيد مصطفى آغا بربر زاده أدام الله إقباله واسعاده بالخير للدوام.

«الأمير بشير» الى والي باب الكعبة العليّة، وجرى الصلح على يديه تحت اربعماية كيس، وانتهت هذه الأزمة.

ثم إن «الكنج يوسف باشا» والي الشام خرج سنة ١٨٠٨ بجيش وفير الى بلاد صافيتا لتأديب النصيرية وقصاصهم على قتلهم الامير «مصطفى اليزيدي» وما فعلوا من الفساد بالأرض، وهجم[١٤] الجيش عليهم، فسلبت اموالهم وقتلتهم واحتّلت برج صافيتا وهدموه. ودام هذا الحال شهرين، وغُرّمت النصيرية ستميّة كيس. ثم ان الكنج نهض بشهر آب ١٨٠٨ قاصداً لطرابلس، فلما وصل الكنج الى «المنية» أرسل لبربر ان يسلّم القلعة وأن يقدّم الطاعة، وأعلمه ان معه فرماناً سلطانيا[١٥] يأمر بالانتقام منه، فردّ بربر عليه بأنه طايع لله والسلطان وليس له اعتراض على الوزير، وانه يسلّم طرابلس لمن شاء. أما القلعة فلا يستطيع تسليمها، وكان عند بربر في القلعة «احمد اغا الحجي» وأخوه[١٦]، فأرسل اليهم الكنج سراً يطلب منهم أن يقتلوا بربر، فتعهدوا له بذلك، فخرج من الشام على ذلك المرام. ثم عزم الكنج على العودة على طرابلس، فأرسل لهم مكتوبات سراً يطلب الاسراع بقتل بربر، فأظهروا «مصطفى ابو ديّة» على ما يعزمون عليه، وطلبوا منه العون. وبعد مدة وقع بينهم خلاف، فأعلم «مصطفى زهرة» بربر ما يعزمون عليه، فلما تحقق له المقال أرسل في الحال وقبض على المذكورين وقطع روس الاثنين، ووضع «مصطفى زهرة» بالسجن، ثم استقدم خمسمية نفر من الارناووط من مصر، فعيّنهم وأسكنهم بالعماير خارج القلعة. ولما علم أهل طرابلس بقدوم الكنج رحلت بعيالها وبما أمكنهم حمله الى خارج البلد وهربوا الى البال والآكام وبيروت ودمشق، فلما وصل الكنج جعل مقامه بالبداوي[١٧]. ونهب العسكر الأثاث والتحف من أهل طرابلس، وأخذ العسكر أموالاً لا تحصى، لأن اهل طرابلس وضعت أموالها وأغراضها بالخانات مؤمّلين أن الكنج لا يسمح للعسكر بأن يأخذ منها شيئاً، ثم دبت الحرب فقُتل من عسكر الوزير خلق كثير وقاتلت الارناؤوط قتالاً شديداً. وبقي الكنج محاصراً القلعة الليل والنهار، وطلب «يوسف باشا» من «سليمان باشا» لغومجية (لَغّامين) ليعملوا لغومة، فعملوا لغومة، ولم تنفع اللغومة لأن اللغم الأول طلع فيه صخرة، ثم حفروا لغماً [١٨] آخر فطلع محلّه ماء، وأما الثالث فشافهم (فرآهم) بربر، فدلق على اللغم ميّة (ماء) من فوق القلعة فبطلت اللغومة وهرب اللغمجية لعكا. ثم جاء قنصل فرنساوي وتعهد بأنه يحضر طبجية (مدفعية) يهدموا القلعة، فحضر طبجي فرنساوي ومعه مدفع كبير من أرواد، وعملوا متاريس كبيرة، وصار الكنج ينقل التراب بنفسه، وعملوا تلاً عالياً وحطّوا المدفع فوقه وصاروا يضربون[١٩] علقلعة (على القلعة) فلم يؤذوها. وكان بالقلعة عند بربر طبجي شاطر بعمله، فضرب بالمدفع والبندق على المحاصرين، فهدم من المتاريس، وخرّب المدفع الكبير. ثم عملوا متاريس مرة ثانية فضربهم بربر وقتل خلقاً كثيراً[٢٠]، منهم «درويش علي داليباش» راس

عسكر الوزير، ثم عمل الوزير متاريس عظام بالقبة[٢١] ووضعوا فوقها مدافع عظام، فهدمها عليهم بربر، وقتل «درويش علي دالبياش» فندم الوزير على هذه الورطة، وعلم انه لن يفتح هذه القلعة. ثم نقل المدفع الى تل الرمل[٢٢] نحو المينا وضرب على القلعة فهدم ثلاثة[٢٣] ابراج من الخارج، ووقع الأمل في تملّكها، ثم تضايق الكنج من طول المقام فعين على طرابلس «علي باشا الأسعد» وأمره بالقيام بالحصار. وفي ذلك الوقت وقع حيط من حيطان القلعة فزداد (فازداد) الكنج بأنه سيفتح القلعة، وعاد ينصب آلات الحرب. ولما طال الأمر على بربر أرسل رسولاً بالسر الى «سليمان باشا العادل» يستجير به، فأرسل «سليمان باشا» الساري «على دالبياش» وأمره بأن يركب بميتين (بمائتين) الى طرابلس، وينهي الخلاف. وتم الاتفاق، بأن يخرج بربر بمتاعه وماله ويسير الى عكا بالبحر، وان يأمن على حياته. وخرج المحاصرون، وكانوا ألفين، بما فيهم النساء والحريم. وتسلم «علي باشا الأسعد» القلعة. ووصل بربر الى صيدا فأبقى[٢٤] أهله بها وسار الى عكا لعند سليمان باشا، فطيّب خاطره وأكرمه أيّما اكرام. ودام هذا الحصار خمسة أشهر كاملة». ●

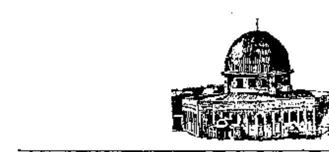
الصور من كتاب مصطفى آغا بربر للأب أغناطيوس الخوري ط٥٧.

المصادر والحواشي:

(١) مصطفى آغا بربر – اغناطيوس الخوري – ص ١٠ و١١ – بيروت ١٩٥٧.
(٢) هاء الضمير تعود الى مصطفى بربر في الأرجح.
(٣) يقصد بالمحمية: طرابلس الشام.
(٤) في الأصل «أخوه».
(٥) دير جنوبي طرابلس بناه رهبان القديس «برنردس» المعروفون بالسستر سين، وبنوه تيّمنا باسم القدّيسة «سيدة بلمنت» Abbatia Belmontis». وقد صُحّف الاسم على مر الزمن من بلمنت الى «بلمند»، وكان بناؤه في ٣٠ أيار ١١٥٧.
(٦) في الأصل «دهائه».
(٧) في الأصل «مدفع».
(٨) في الأصل «فرمان».
(٩) في الأصل «إهدائه».
(١٠) نوع من الفرو.
(١١) الأبيات كاملة:

شاد لله سبيلا	حاكم الوقت المكرمْ
مخلصا لله فيه	وبحسن القصد يعلم
مصطفى اغا سي بربر	السيد الشهم المكرم
وله التاريخ يعطي	شربة من ماء زمزم

(١٢) في الأصل «ذو».
(١٣) أي صار من اتباع المذهب الوهابي الذي انتشر في الجزيرة العربية على يد الداعية محمد بن عبد الوهاب.
(١٤) في الأصل «وهجمت».
(١٥) في الأصل «فرمان سلطاني».
(١٦) في الأصل «وأخيه».
(١٧) ضاحية في الشمال من طرابلس تشتهر ببركتها ذات الأسماك الملونة والمسجد الذي يقوم عندها.
(١٨) في الأصل «لغم».
(١٩) في الأصل «يضربوا».
(٢٠) في الأصل «خلق كثير».
(٢١) محلّة بطرابلس مشرفة على القلعة من الجهة الشمالية الشرقية، وهي المحلة ذاتها التي عسكر فيها السلطان قلاوون وحاصر الصليبيين في القلعة والمدينة حتى فتحهما سنة ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م. ولذا عرفت بقبة النصر.
(٢٢) هو منطقة التل الحالية حيث يقوم مقهى التل العالي، قرب مبنى البلدية.
(٢٣) في الأصل «ثلاث».
(٢٤) في الأصل «أبقا».



المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام
«فلسطين»١٩ – ٢٤ نيسان ١٩٨٠

تقديراً من مجلة «تاريخ العرب والعالم» للمؤتمر الثالث لتاريخ الشام الذي عقد مؤخراً في عمان ما بين ١٩-٢٤ نيسان ١٩٨٠ الموافق ٤-٩ جمادي الثانية ١٤٠٠هـ. اعد «مركز التوثيق والابحاث» في مجلة «تاريخ العرب والعالم» صورة ملخصة عن بعض البحوث التي قرئت في المؤتمر وكانت على جانب كبير من الاهمية والاثارة. على ان تنشر متتالية في المجلة والاولوية حسب اسبقية موافقة الكاتب.

وفي هذا المجال نود ان نؤكد أنها تقدر جميع البحوث المقدمة الى المؤتمر، كما انها تقدر الجهود الكبيرة التي بذلتها جامعة عمان وجميع الجهات الرسمية وغير الرسمية التي عملت في سبيل انجاح هذا المؤتمر ونتمنى ان تستمر الجهود في جميع انحاء الوطن. ألعربى لدرس تاريخ العرب دراسة متعمقة مكثفة تضمن للعرب رؤية أوضح لتاريخهم وثقة أكبر بأن هذا التاريخ يكون ركيزة أصيلة لانطلاقهم في مجال بناء تاريخهم الحديث بناء سليما ثابت البنيان.

كما نود أن نشكر جميع الباحثين والمؤرخين الذين أبدوا موافقتهم مشكورين على نشر أبحاثهم او ملخصا عنها في مجلة «تاريخ العرب والعالم».

بناء وزخارف قبة الصخرة في القدس

دراسة تحليلية

د. صفوان التل

* د. صفوان التل: استاذ مساعد في كلية الآداب – قسم التاريخ – الجامعة الأردنية.

يمثل بناء قبة الصخرة في القدس، عددا من الاتجاهات الادبية والعلمية التي برزت في عهد استقرار الدولة الاسلامية، في العهد الاموي.. وعلى أثر استقرار أمية في دمشق وما انبثق عن ديوان الخليفة عبد الملك بن مروان من القرارات الهامة، لدليل واضح على تكامل الشخصية العربية الاسلامية في مواجهتها لعدد كبير من القضايا بكثير من الحكمة والاتزان والابداع.

ان خصائص الفنون والاداب لا تسلك طريقها، في أي حضارة ما لم يتح لها الاستقرار السياسي والاقتصادي، وعليه كان عهد الخليفة عبد الملك ابن مروان عهدا نموذجيا من حيث الاستقرار والتكامل الاقتصادي للدولة الاسلامية قياسا بالظروف التي مرت على الدولة قبل وبعد هذا الخليفة.

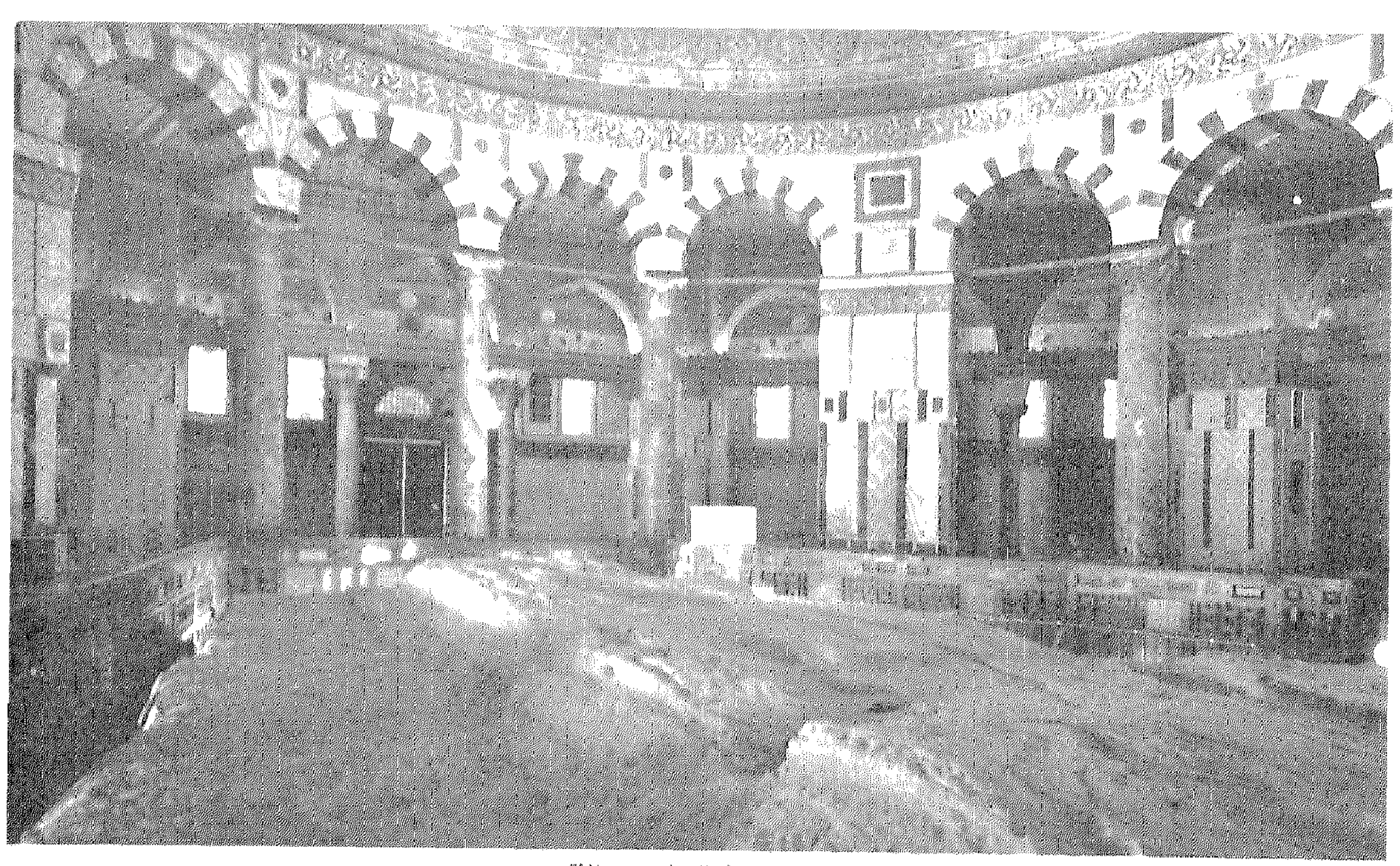
لقد ساهمت بلاد الشام بكل جدارة واصالة في استيعاب الفكر الاسلامي كما تمكنت من تنسيق الآداب والفنون الاسلامية باتجاهات عربية ذات طابع خاص مميز، ومع دخول الفكر الاسلامي الى هذه الديار ندرك دور العروبة المتصل بجذور التاريخ وما عكس عليه الاسلام من صفاء الروح وعذوبة الاخلاق ونكران الذات، وما ساهمت به الامة العربية لدفع حركة الاسلام الى آفاق الارض بالسرعة التي لم يشهد التاريخ لها مثيلا، هذا التكامل والتفاعل هو الذي سطر في تاريخ العرب والاسلام كثيرا من الصفحات المتألقة بالآداب والعلوم.

ونتيجة للاستقرار الذي شهدته الخلافة الاموية، رأى الخليفة عبد الملك ان يقام صرح مناسب وجميل فوق الصخرة المقدسة ليحفظها وليحرسها، ولكي يستقطب المسلمين حولها.

فكان المخطط الذي وضعه كل من المهندسين العربيين (رجاء بن حياة ويزيد بن سلام)، في وسط الحرم الشريف في قلب مدينة القدس ولم يكن اهتمام عبد الملك بمدينة القدس عرضيا، بل كان اهتماما موصولا بتاريخ الاسلام، ومن المنطلق الروحي للعقيدة الاسلامية، فهي موطن الديانات، وهي تقترن بمعجزة الاسلام في الاسراء، من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الى السماء وهي قبلة الاسلام الاولى.

وعليه كان لا بد من احياء هذا التراث في قلوب المسلمين وفي عيونهم.. فكان بناء قبة الصخرة يمثل الصورة الصادقة للشخصية العربية المسلمة، بكل ابعادها الفلسفية والفنية.

تركزت الابعاد والاتجاهات الفلسفية في بناء القبة على دقة اختيار الشروط التالية:



صخرة المسجد الاقصى

(أ) مكان البناء الجغرافي العام (مثلا في مدينة القدس).

(ب) الموقع الطبوغرافي الخاص (ممثلا في ساحة الحرم الشريف).

(ج) موقع البناء المباشر (فوق الصخرة الشريفة.

أما الاتجاهات المرتكزة على الاسلوب الفني فهي ما يلي:

١ - معادلة مخطط البناء الهندسي = ثماني منتظم من الجدران، طول كل جدار ٢٠,٦٦م + (ثمانية قواعد + ١٦ عامودا) + (٤ قواعد + ١٢ عامودا).

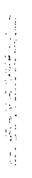
٢ - قبة مركزية قطرها (٢٠,٤٤م) تطل على الصخرة المشرفة، لحفظها ولانارتها بواسطة(١٦) نافذة، موزعة حول العنق.

٣ - أربعة أبواب في الاتجاهات الاربعة الطبيعية، عرض كل بوابة(٢,٦٠م) وأرتفاعها(٤,٣٠م) ويوجد (٤٠) نافذة موزعة على الجدران الخارجية بالتساوي.

٤ - زخارف الفسيفساء الهندسية والنباتية(الأرابسك) التي توحي بالصفاء الروحي المثالي.

٥ - الكتابات الاسلامية التي تدفع الى التأمل بالقدرة الالهية والحكمة الاسلامية. ان علاقة الفنون الاسلامية بفنون سوريا قبل الاسلام، هي كعلاقة الاسلام بالعرب انفسهم، ولا شك ان اجتهادات عدد كبير من المستشرقين او علماء تاريخ الفنون حيال علاقة الفن الاسلامي بالفن المسيحي او بالبيزنطي السوري، ليس لها ما يبررها بعد أن ندرك أن العرب في سوريا قد قبلوا بالاسلام بعد ان كانوا يدينون بالنصرانية.. لقد انصاع العرب في سوريا لرغبات وتوجيهات الدولة والكنيسة البيزنطية قبل التحاقهم بالدولة الاسلامية في المدينة ثم دمشق.

وهذا الحال لا ينطبق على المسلمين الذين ينتمون الى اصول غير عربية كالفرس والترك والهنود مثلا... فقد نقلوا تأثيراتهم الحضارية السابقة الى الفنون الاسلامية عندما التحقوا بالديانة وبالدولة الاسلامية. وعليه فإن واقع الحال يستوجب اهتمامنا بالتراث العربي الذي شاع في سوريا أبان الاستعمار اليوناني والروماني والبيزنطي، باعتبارها ممارسات اجنبية على جزء من الامة العربية، يعيش في هذه



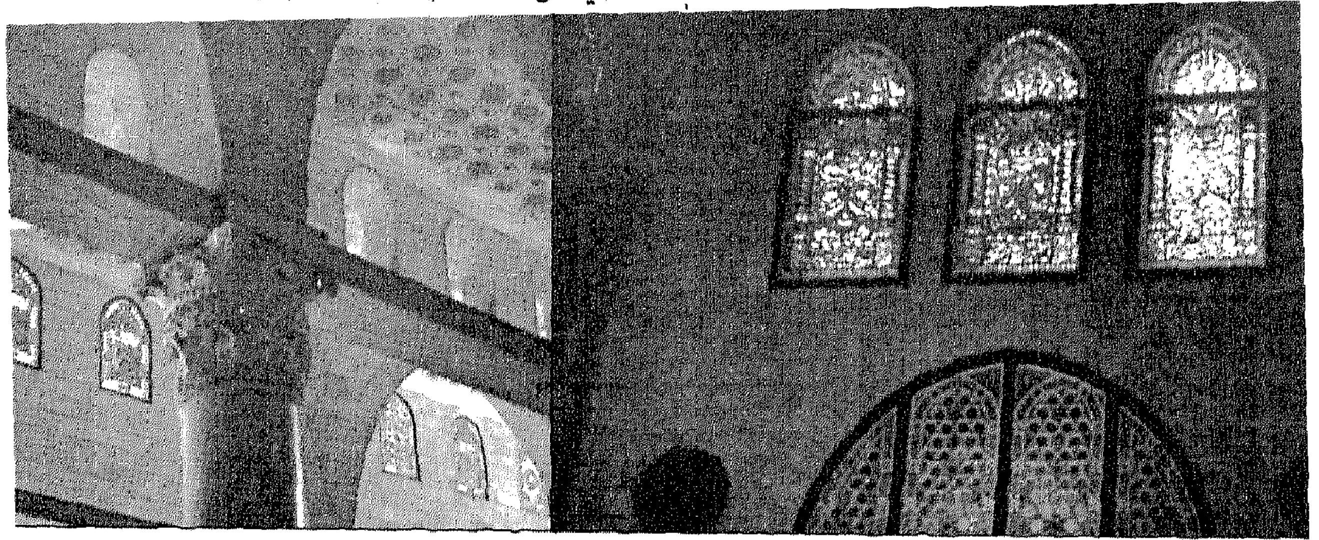
البلاد، ونتيجة لما يربط الجزيرة العربية مع بلاد الشام من علاقة تاريخية انطلقت منذ الهجرات السامية الاولى، في دفع الجنس العربي ليأخذ مواقعه على الارض العربية منذ آلاف السنين. لقد كانت الصلات والعلاقات مع اطراف هذه الارض تتناسب طرديا مع نشاط الامة العربية في تاريخ العالم القديم الاقتصادي والسياسي والديني.

لقد وضع عدد من علماء الآثار والمستشرقين علامات استفهام لا ضرورة لها حول علاقة الفن الاسلامي بالفن العربي قبل الاسلام. وهل يمكن ان نعتبر هذا جريمة في تاريخ الحضارات..؟ ولماذا يحاولون خلق هذه الحساسية التي لا مبرر لها بين الديانات المتنوعة من جهة، وبين الشعب الواحد من جهة اخرى..؟ فمهما تنوعت المعتقدات فقد تم صناعة الحضارة العربية بأيد عربية.. حتى يثبت العكس لهذا الواقع.

لقد اعتمد عدد من علماء الفن اطلاق

وبفضل نعمة الاسلام تمكنت الشخصية العربية من اثبات وجودها وتعزيز دورها الانساني... وعليه كان لا بد من تأميم النشاطات الادبية والفنية القديمة لهذا الشعب ضمن بوتقة الفنون الاسلامية وفلسفتها، ومن خلال ملاحظتنا لهذه الفنون، نلاحظ ان فيها اذابة تامة لكل الخصائص العربية التي شهدتها المنطقة عبر تاريخها وذلك بأتجاه منضبط، يساير المفاهيم الاسلامية ويواكب تعاليمها.

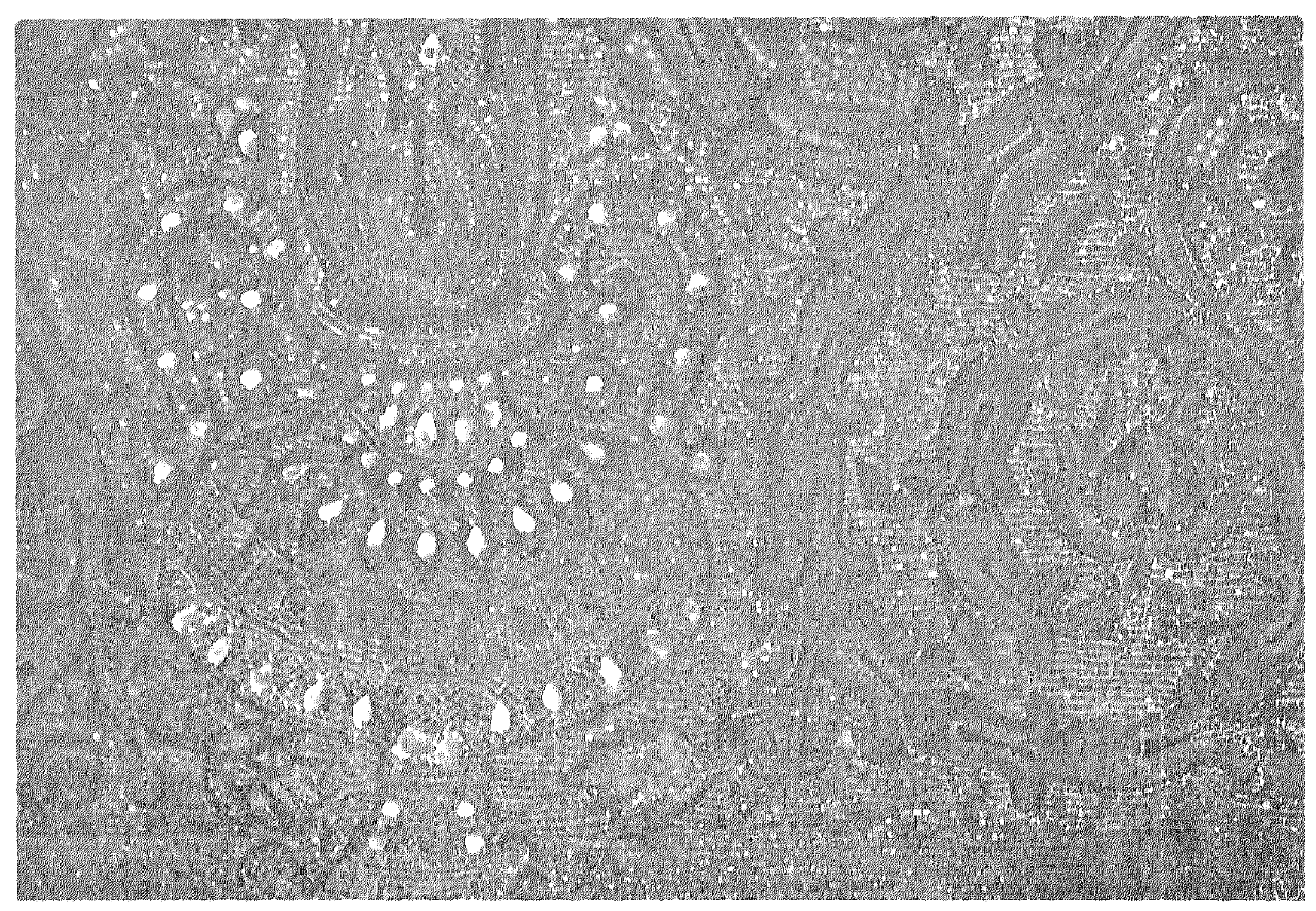
ومع بقاء بناء قبة الصخرة في مدينة القدس أول شاهد لتكامل حركة الفنون والآداب الاسلامية منذ ايام الخليفة (عبد الملك بن مروان) نجد ان هذا البناء يمثل قمة في التخطيط الهندسي المبدع وهو أول انتاج للفنون الاسلامية المبتكرة، ومهما تأملنا شكله الخارجي، وتركيبه الداخلي، وقبته، لا يمكن لنا الا ان نتذكر الشادر او السرادق الفخم القائم على الاقواس والقواعد والاعمدة التي بلغ عددها في الداخل اربعون.



الخطوط على زجاج الواجهات الملوّن.

اسم الفن(البيزنطي السوري) على الفنون في سوريا الطبيعية قبل الاسلام. واخالهم يبتعدون عن استعمال الاصطلاح (الفن العربي السوري) في العهد البيزنطي، وبعد قبول عرب سوريا بالديانة الاسلامية تكلّلت الشخصية العربية بأسلوب جديد وصل مع العرب الشاميين انفسهم الى شمال افريقيا والاندلس.

لقد تركت الزخارف في قبة الصخرة اثرا كبيرا في منهاج الفنون الاسلامية وذلك باعتبارها من اقدم الزخرفة الاسلامية على الاطلاق. ومن خلال دراسة هذه الزخارف التي اعتمدت على الفسيفساء الزجاجي الملون نجد ان القائم على هذه الزخرفة لم يكن مطلق اليد او حر التنفيذ، بل نراه مقيداً وملتزما بعدد من



نقوش من على قبة الصخرة.

التعليمات الصارمة حتى يتوافق العمل الفني مع الفلسفة والتقاليد الاسلامية.

لقد اثبت الفنان العربي في العهد البيزنطي، مقدرة فنية عظيمة بفنون الفسيفساء، ولم تكن انجازات هذا الفن العريق في مادبا وجرش وأم قيس وبيسان وشهبا والسويداء وانطاكيا وتدمر وبعلبك الا شواهد اصيلة لهذا الفن.

احتوت فنون قبة الصخرة على عدد من النماذج الفنية الاساسية في الفن والذوق الاسلامي الذي استمر على مر العصور فكان اهمها:

١ - الكتابات والخطوط المتنوعة على الواجهات الداخلية والخارجية.

٢ - الفسيفساء الزجاجي الملون والصدف على الواجهات الداخلية.

٣ - النحت على الحجر والرخام.

٤ - الاشرطة المعدنية النحاسية الصفراء، والحمراء التي فوق حلوق الجسور بين الاعمدة.

٥ - الخشب المحفور.

٦ - البلاط المزجج، والملون، والمزخرف بالكتابات والنقوش الهندسية والنباتية يغطي الواجهات الخارجية.

٧ - الزجاج الملون على النوافذ.

ومن خلال هذه النماذج المتنوعة للذوق الاسلامي نكتشف وبسهولة العناصر والمقومات الفنية الاساسية للفن الاسلامي، الكتابات تمثل الاسلوب الكوفي البسيط وتبدو على قمة الواجهات الداخلية، مكتوبة بالفسيفساء الزجاجي الملون، الذي يمثل المدرسة الاولى لاسلوب الخط العربي غير المنقوط، ولا ينفك عن الحركة والاستمرار في شريط ضيق بلغ طوله(٢٤٠) مترا.

اما الفسيفساء التي سيطرت على زخارف بناء قبة الصخرة الداخلية فهي تمثل الاسلوب العربي الشامي الذي ساد سوريا في الفترة البيزنطية عندما كانت كنائس القرن السادس والسابع مغطاة في واجهاتها وأرضياتها بهذا النوع من الزخارف. غير أن الاسلوب الفني

لا يتفق مع الاسلوب البيزنطي المسيحي من الناحية الفلسفية، لقد كانت زخارف قبة الصخرة تمثل اسلوبا نباتيا وهندسيا متداخلا ضمن اطارات تواكب الاقواس والقواعد، وكأنها لوحات مقصوصة لكي تناسب الاسلوب المعماري من الداخل.

لقد بدأت التوزيعات الفنية عشوائية التنظيم بحيث يصعب تصور منظر كامل من خلال النظرة الى واجهة الجدار، بل نجد ان فوق كل سطح جداري عدداً من الاشكال المستقلة المتجاورة... فهذا يمثل شجرة نخيل، والثاني يمثل أوراق الاكانتوس والآخر يمثل أناء... وهكذا.... كما نجد أن المناظر جامدة ولا تحتوي على حركة فنية متكاملة... لكن الواقع يثبت أن كل شكل من هذه الاشكال يمثل الاسلوب الاسلامي الاموي، ففيه المركزية والتناظر، وفيه الجمود وكثرة الالوان والمبالغة في الشكل وفي التركيب، وفيه الحركة النباتية بإطار هندسي منتظم، وعليه فقد اكتفى الفنان الاموي بهذه النماذج مبتعدا عن تصوير أي مخلوق، وما أنسجامه مع الخضرة والنبات والثمار والازهار إلاّ صفاء للروح، ومنهل للتأمل والخشوع بين يدي الله.

اما تحت الاعمدة والتيجان فقد انسجم مع الاسلوب العربي الشائع في سوريا أبان الفترة البيزنطية والرومانية، حيث بدت التيجان مطلية بماء الذهب، كما ظهر عليها ملامح تذكرنا بأسلوب جرش في نحت بعض تيجان الاعمدة في تشكيلات الوجوه والملامح البشرية، بواسطة تموجات اوراق الاكانتوس او اوراق العنب. ولكن الذي يحدد الاسلوب الاموي هو اعتماد واجهات الجدران الداخلية التي تمثل الاقواس النصف دائرية والمرتفعة لاعطاء الفرصة لرفع السقف الى اقصى مسافة ممكنة، ثم لاتاحة دخول الضوء المنبعث من نوافذ القبة الى الاقسام الداخلية من البناء... وتكامل الفن المعماري بفن الزخارف التي غلب عليها كثرة التنويع في نماذج اللفائف المتموجة والمتعاقبة خلف بعضها، وفي دقة توزيع المزهريات وانتشار الاغصان على شكل حلقات متموجة ودائرية منتظمة، كل هذا حافظ على ايقاع عربي وشرقي يمثل طرازا جديدا في اساليب الفنون الاسلامية... ثم ان هذه التموجات المنتظمة ساهمت بشكل كبير في تعبئة الفراغ الفني في اللوحات او على الواجهات المزخرفة، وهذا ما جعل هذه الميزة ايضا من ابرز خصائص الفن الاسلامي.

ومع اعتماد الاسلوب النباتي الهندسي في زخارف الفسيفساء في قبة الصخرة نجد ان الاسلوب ذاته تم استعماله في زخرفة الصفائح المعدنية لتغطية حلوق الاقواس بين الاعمدة، وهذا يبرهن على ان هذا الاسلوب الفني قد تم اقراره واعتماده على انماط مختلفة من النماذج.

ولطالما اشتهرت منطقة بلاد الشام العربية في العهد الاسلامي المبكر حتى ايامنا هذه بحسن انتاجها لهذا النوع من الصناعات التقليدية، فكان الطرق على المعادن وخاصة النحاس والفضة قد دفع كثيرا من المؤرخين في تاريخ الفنون الى اعتبار هذه الصناعة من الصناعات والفنون الشامية العربية. ان الاسلوب الذي ساهم بتحويل الاشكال الهندسية الى اشكال نباتية هو نفسه الذي وجه اسلوب الكتابة الكوفية او النسخية الى مثل هذه المهارة الفنية، لقد تمكن الفنان المسلم من تقسيم اللوحة المعدنية الى عدة اشرطة متناظرة لها مركز متوسط يختلف عن بقية الأشرطة حجماً وشكلاً، ويبدو المنظر معقداً ولكن التأمل فيه يفرز نموذجين او ثلاثة، تتكرر بهدوء ودقة، وهذا ايضا أضاف للفن الاسلامي خصائص جديدة، وهي اسلوب التكرار للنماذج المختارة بشكل يثير الدهشة والتقدير.

لقد شهدت القبة عدة اصلاحات، نتيجة للاحداث الطبيعية التي مرت بها، فمثلا تم تجديدها عام ١٠٢٢ على يد الظاهر لاعزاز دين الله، في الفترة الفاطمية، وتم تعليق ثريا فخمة بلغ وزنها حوالي طن بمركز القبة وقد تم تغطية القبة بالرصاص غير ان هذه الثريا المعلقة قد سقطت عام (١٠٦٠).

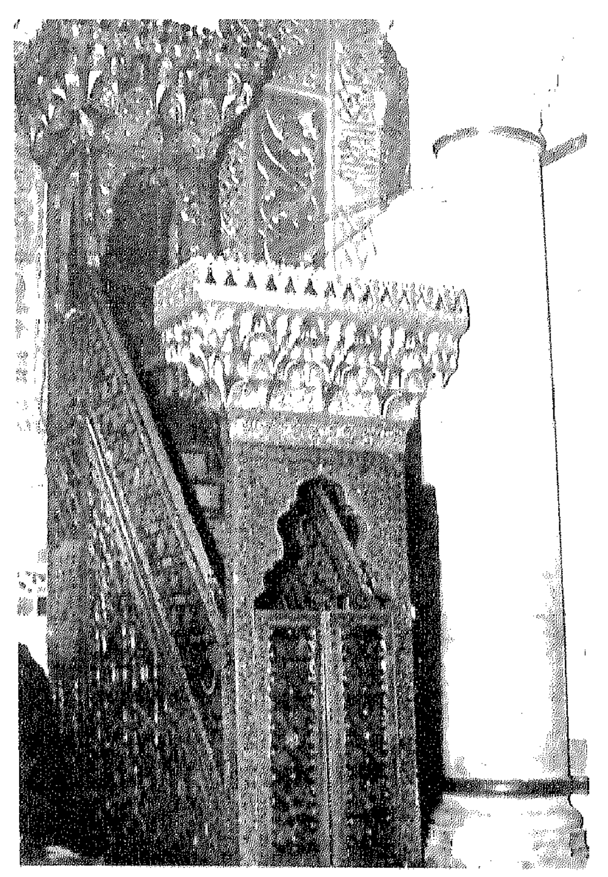
في عام(١٠٧٧) حكم السلاجقة الاتراك القدس وجميع فلسطين، وفي نهاية القرن الحادي عشر استولى الفرنجة على مدينة القدس وباحتلالهم للمدينة، سيطروا على بناء الصخرة

واسموها (Templum Domini) واقاموا مذبحا فوق الصخرة وقطعوا عدة درجات تؤدي الى المذبح في الصخرة نفسها، واصبحت الصخرة هدفا للحجاج يأخذون منها للتبرك وللتجارة وحتى على مستوى الرهبان الذين كانوا يبادلون القطعة الحجرية من الصخرة بوزنها ذهبا، وتم تغيير عدد من المعالم داخل البناء كان آخرها رفع الصليب الذهبي فوق القبة بدلا من الهلال.

وفي سنة (١١٦٧) عندما تولى نور الدين زنكي الحكم في سوريا تحولت الاحوال السياسية للمصلحة الاسلامية، وحاول الحاق مصر بدولته، وبعد ان ظهر (صلاح الدين يوسف بن ايوب) على مسرح الاحداث، استمر الحكم الايوبي يسيطر على بلاد الشام من سنة (١١٨٧) لغاية (١٢٤٧م).

ومع دخول صلاح الدين الى مدينة القدس، بعد معركة حطين نجد اهتمامه الاول في اعادة الاماكن المقدسة الى حالتها الاسلامية... وكان على رأس هذه المباني، بناء قبة الصخرة، وكان اهم اعماله في داخل القبة ان اضاف زخارف الفسيفساء على عنق القبة الداخلي. وقد سجل كتابة تذكارية هي: «بسم الله الرحمن الرحيم امر بتجديد تذهيب هذه القبة الشريفة مولانا السلطان الملك والناصر العالم العادل(صلاح الدين يوسف بن أيوب تغمده الله برحمته، وذلك في شهور سنة ست وثمانين وخمسماية (١١٨٩م)» في سنة (١٢٢٩) دخلت القوات المغولية بلاد المشرق الاسلامي تحت قيادة جنكيز خان، وظهرت في هذه الفترة دولة المماليك، وكان ذلك سنة(١٢٥٢)، وقد حقق هؤلاء انهاء السيطرة الفرنجية على فلسطين والقدس، وقام الظاهر بيبرس بهذه المهمة بشجاعة، كما تمكن من اقتلاع نفوذ المغول من فلسطين عام (١٢٦٠).

اثناء حملاته ضد المعادين اجرى السلطان بيبرس عددا من الاصلاحات في قبة الصخرة حيث رمم الفسيفساء على الواجهات الخارجية للبناء، كما جرى ترميم عليها سنة(١٢٩٤). في عهد الملك زين الدين وفي سنة (١٣١٨) في عهد السلطان محمد بن قلاوون اعيد تجديد زخارف القبة الداخلية فوق الصخرة مع الفسيفساء،



الكتابات والنقوش على المحراب

وكذلك تم تجديد طبقة الرصاص فوق القبة الخارجية، وقد كتب على زجاج بعض النوافذ.

«بسم الله الرحمن الرحيم، امر بتجديد وتذهيب هذه القبة مع القبة الفوقانية برصاصها مولانا ظل الله في ارضه القائم بسنته وفرضه». هذا وقد عثر على كتابة اخرى داخل القبة وهي: (السلطان محمد بن قلاوون تغمده الله برحمته وذلك في سنة ثماني عشرة وسبعماية).

ان آخر اعمال المماليك الفنية في بناء قبة الصخرة وتغطية الابواب الاربعة للبناء بصفائح من النحاس المزخرف، كان ذلك ايام الاشرف قايتباي في سنة (١٤٦٧م).

اما الفترة العثمانية فقد تركت آثارها الفريدة حتى هذا اليوم، لقد تمكن العثمانيون من تقديم اجمل انجازاتهم الفنية لبناء قبة الصخرة في القدس لقد كان اكثر السلاطين العثمانيين اهتماما بمدينة القدس وقبة الصخرة بالذات هو السلطان سليمان القانوني، لقد اعاد تسوير المدينة خلال الفترة(١٥٣٧ - ١٥٤١)، وقد تمكن ايضا في سنة(١٥٤٦) من تغطية عنق القبة الخارجي بالبلاط المزجج الذي امتد ليغطي القسم العلوي

من واجهات البناء الثماني كلها. كما امتدت يد الاعمار والترميم للنوافذ والبوابات حيث ترك كتابة فوق البوابة الشمالية للقبة المسماة، ببوابة الجنة.

في القرن التاسع عشر ساهم اربعة سلاطين من بني عثمان في تجديد وترميم بناء قبة الصخرة هم على التوالي:

في سنة ١٨١٧ السلطان محمود خان، رسم الرخام الخارجي على الجدران واعمدة المحراب وذهب القبة ورمم القبة الخارجية.

في سنة ١٨٥٢ السلطان عبد المجيد، دعم القبة ورممها.

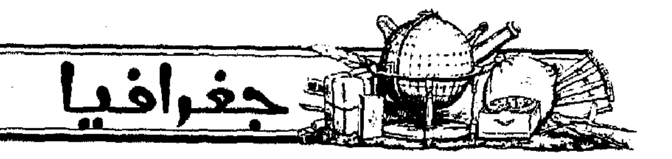
في سنة ١٨٧٤ السلطان عبد العزيز، اصلح السقف الخشبي والبلاط الارضي والجدران الداخلية السفلى والنوافذ.

في سنة ١٨٧٦ السلطان عبد الحميد الثاني، فرش السجاد في داخل البناء وعلق ثريا كرستال فخمة فوق الصخرة، وقد نقلت الى قبة المسجد الاقصى.

كما عهد السلطان عبد الحميد الثاني الى رفع الواجهات الخارجية للجدران بوضع اضافات عليها كتابة من الخزف القاشاني المزجج تحمل سورة ياسين من القرآن الكريم.

ومن خلال متابعتنا للزخارف المملوكية والعثمانية نجد ان الاسلوب الاسلامي (الشامي) قد استمر رغم تطور التاريخ، ورغم زخم الفنون في القرون الوسطى والحديثة... الا ان القاعدة استمرت مرتبطة بالنقوش الكتابية والزخارف النباتية والهندسية، وهذا ملموس في كتابة القبة التي زخرفها صلاح الدين الايوبي الذي تمثل الخط المذهب فوق قاعدة سوداء او في بلاط الرخام والقاشاني الذي يمثل اسلوبا في نسخ الخط العربي باللون الابيض فوق ارضية زرقاء، واصبحت واجهات قبة الصخرة الخارجية تمثل صورة بديعة لتناسب الالوان التي تعكس الازرق الغامق والابيض او الرمادي والاخضر والاصفر، وبدت المدرسة الفنية القديمة(الاموية) في اسلوب تقليدي منظور من حيث الاطارات والواجهات بشكل هندسي اكثر اتقانا ودقة وبدت الفنون العثمانية في الواجهات الاكثر اتساعا تمثل اسلوب السجاد العثماني من حيث عناصره الفنية وتشكيلاته. وقد بدا في بعض الواجهات اسلوب جديد يمثل ازهار الاقحوان، وهي منتشرة جدا على الاغصان الخاوية من الاوراق... وان التشكيل الهندسي يخالف الاسلوب الاموي ولكن الفلسفة الفنية في العصرين الاموي والعثماني تمثل استمرارها والمحافظة عليها.

ان اسلوب العمارة في بناء قبة الصخرة واسلوب الزخارف فيها يعكس الاهتمام المتوارث في حضارة الامة العربية في بلاد الشام ابان عهود سوريا قبل الاسلام وبعده، ولا مجال لاستعراض العناصر الفنية البيزنطية او الرومانية للمشابهة والتمثيل فالامة التي اقامت روح حضارات عدة على ارضها ابان النفوذ الروماني الوثني ثم الروماني البيزنطي، هي نفسها التي قدمت امكاناتها الفنية للصروح الاسلامية... لقد كان الاسلام حريصا جدا على ان تكون فنونه ذات طابع خاص مميز في كافة ارجاء العالم الاسلامي... لقد كان الاسلوب الفني والفلسفة الفنية يمثلان وحدة واحدة في بلاد الشام، غير ان بعض العناصر الفنية قد تأثرت بالاسلوب المحلي في الاقاليم الاسلامية المتعددة، فبدت محورة حينا وصادقة حينا آخر تنسجم مع التقاليد الموروثة في تلك الاقاليم، لقد لاحظنا ان الطابع العربي الشامي المميز للعناصر الفنية الاسلامية قد نشأ في اطار هندسي ثابت امتاز بالجمود في العهد الاموي وانتقل الى الحركة البطيئة في القرون الوسطى، واخذ يشابه حركة الطبيعة في العصور الحديثة، ان افضل مثال لما ذكرنا يتضح في العناصر الفنية الفسيفسائية الموجودة داخل بناء القبة ايام الامويين، ثم الانتقال الى اسلوب الزخارف على القبة الخشبية فوق الصخرة، تماما ابان الفترة الايوبية والمملوكية، وننتقل اخيرا الى اسلوب الخزف المزجج الذي يمثل اسلوب الزخارف الهندسية والنباتية والكتابية فهي معروضة على واجهات الجدران الخارجية منذ ايام سليمان القانوني في القرن السادس عشر الميلادي، واستمر تجديدها حتى ايام السلطان(عبد الحميد الثاني) في القرن التاسع عشر. ■



في العدد السابق، رافقنا ماجيلان في الدورة الأولى حول الأرض. وهي المرحلة التي مهدت لتثبيت النظريات، المحرمة، التي قالت باستدارة الأرض. احد اهم آباء هذه النظرية نيكولاس كوبيرنيكوس، العالم البولوني الفذ، وهذه قصته:



كوبيرنيكوس

قال أن الأرض تدور حول الشمس

ولم يجرؤ على نشر اكتشافه إلّا عند موته



ساهمت رحلات كولومبوس وماجيلان الكبرى في تغيير خريطة الأرض. لقد اكتشف البشر، مذهولين، ان ثمة بلاداً لم يرد ذكرها في السابق، ولا حتى في التوراة.

في تلك الفترة، ظهرت نظريات استنبطها نيكولاس كوبيرنيكوس (١٤٧٣ - ١٥٤٣) الذي ولد في احدى المدن البولونية، ولبس ثوب الرهبنة بعد ان أتمّ دراسته. وقد تستغرب كيف ان راهبا يخرج بنظرية تناقض ما كان الاكليروس في ذلك الزمن يعلمه للمؤمنين.

الواقع ان العلوم في اوروبا في تلك الحقبة، كانت حكراً للكهنة والرهبان. فقد كان على رجل الدين ان يكون قادرا على القراءة حتى يقدم الطقوس الدينية ويقرأ الكتب المقدسة. كما ان الرهبان هم الذين كانوا ينسخون هذه الكتب المقدسة، قبل اختراع الطباعة. وكان عليهم إذن أن يتقنوا القراءة والكتابة. وهذا يفسر ظاهرة اهتمام رجال الدين بادارة شؤون الدولة. فقد كانوا قلة متعلمة بين كثرة امية. وكان على من يرغب في العلم ان يلبس رداء الاكليروس.

كان كوبيرنيكوس ابن خباز، وقد تربى على عمه الأسقف الكاثوليكي، الذي ارسله الى ايطاليا ليتابع دروسه. وقد استوعب الفتى بسرعة جميع علوم اللاهوت والدين. لكنه تعلم ايضاً الطب والتقنية، فأصبح فيما بعد طبيبا ومهندسا ماهراً.

وكان نيكولاس بولونيا وطنيا متحمسا. ورغم انتمائه للاكليروس فقد حمل السلاح لمحاربة الألمان. ولما كان مهندسا، فقد عمل في تقوية القلاع، وقاد الجند في معارك عديدة. وكان الشاب العبقري يصرف بعض وقته في ممارسته الكهنوت، ووقتا اكبر في معالجة الفقراء مجانا. لكن أمسياته ولياليه كانت حرة، وكان ينفقها في ممارسة العلم الذي أثار حماسته اكثر من اي شيء آخر: الفلك.

ولم يكن عمل الفلكي آنذاك يشبه في وجه من الوجوه عمل الفلكي اليوم. فلدى العلماء في عصرنا الحالي مراصد ومناظير قوية تسهل عليهم مراقبة الأفلاك والكواكب. وفي امكانهم ان يصوروا اي قطاع من السماء، ليراقبوا النجوم التي يطالها المنظار، وتلك التي لا يطالها.

اما في ايام كوبيرنيكوس، فلم يكن لدى العلماء من ادوات الرصد الا العيون.

وخلال سنوات، لم يدع كوبيرنيكوس ليلة واحدة تمضي، دون ان يصعد السلم المؤدية الى برج كاتدرائية مدينة فراونبورغ، أكان ذلك في حرارة أيام الصيف، او في صقيع ليالي الشتاء. وقد ادى جلده واصراره على الرصد اليومي للسماء، الى اكتشاف الكثير من حقائق الفلك التي لم تكن معروفة من قبل، واهمها ان الأرض ليست مركز الكون كما كان يظن. فالقمر يدور حول الأرض. هذا صحيح لكن الأرض تدور حول الشمس. وهكذا عطارد والزهرة والمريخ والكواكب السيارة الأخرى.

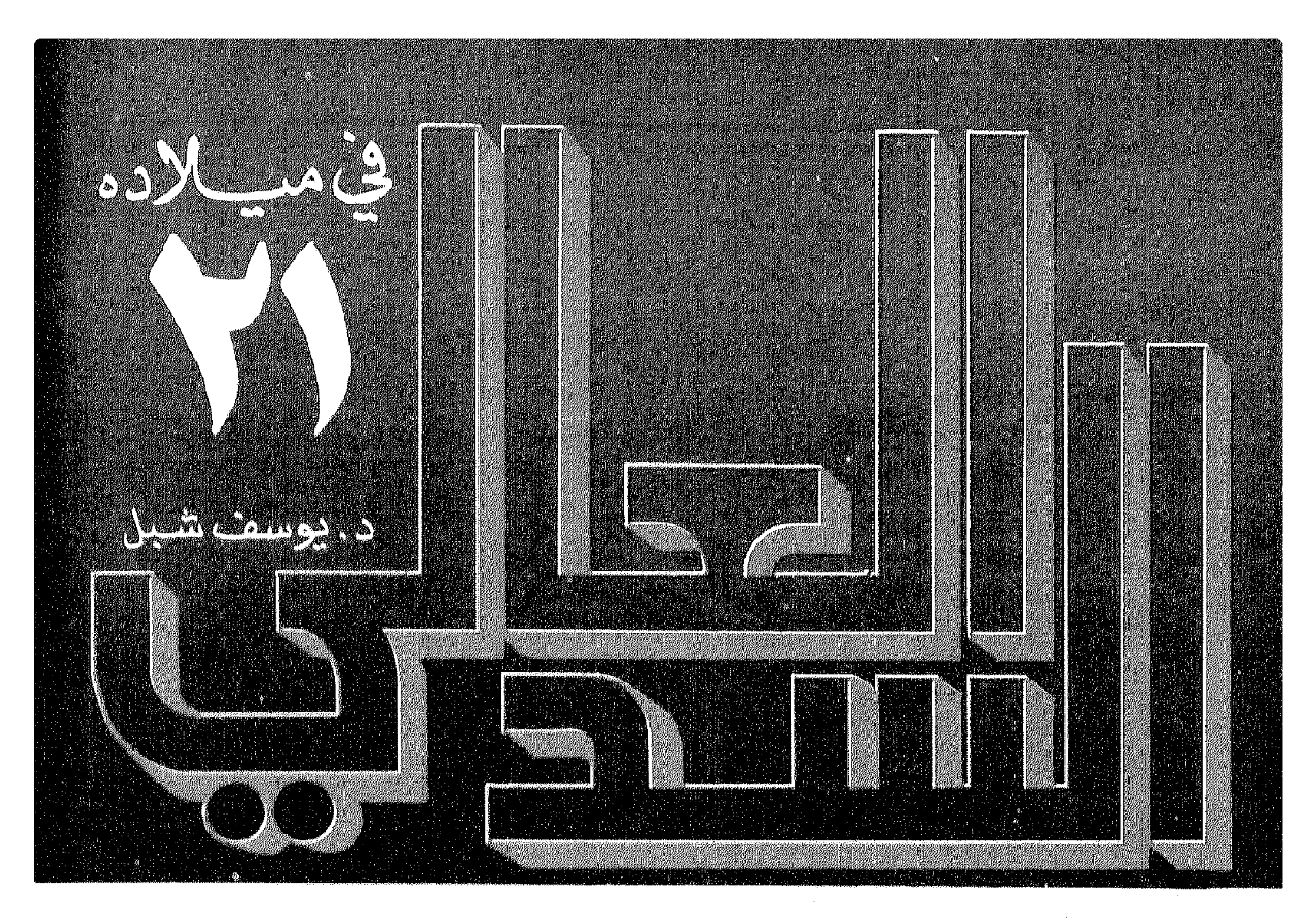
اما دوران النجوم حول الأرض فهو ناجم عن دوران الأرض نفسها حول نفسها. وهذا الدوران يؤدي الى خداع بصري يوهم الراصدين بأن النجوم الثابتة تدور حول الأرض.

عندما اكتشف كوبيرنيكوس ذلك، كان في الأربعين من عمره، لكنه احتفظ بالسر العظيم طوال حياته تقريبا، خوفاً من ان يلاحق. ولم يخبر عنه سوى بعض من اخلص اصدقائه. وهؤلاء هم الذين دفعوه الى نشر اكتشافاته في العام ١٥٤٣. ويقال انه لم ير نسخة من كتابه هذا، الا وهو على فراش الموت. وكان الكتاب مكتوبا بلغة معقدة عمدا، لتضليل الأوساط الرجعية التي كان يمكن ان ترى فيه مساسا بالمفاهيم السابقة.

وهذا الأمر مكن الكتاب من الانتشار رويدا رويدا في كل اوروبا واستطاع العلماء بذلك ان يدرسوه على مهل.

وبعد سنوات على موت كوبيرنيكوس، استطاعت بعض الاوساط الرجعية في اوروبا، ان تفهم خطورة التعاليم الجديدة، ورأوا فيها خطرا يهدد مركزهم الاجتماعي الذي كانوا يعتمدون في تثبيته، على الأمية والجهل. وهكذا صدر تحريم بنشر وقراءة كتابات كوبيرنيكوس. لكن شعاع علمه كان قد خرق الحصار والى الأبد.

■



في نهاية عام ١٩٨٠ يكون «السدّ العالي» في محافظة اسوان قد مضى على بدء العمل فيه واحد وعشرون عاماً، وعشرة اعوام على الاستفادة من مزاياه الكاملة للاقتصاد المصري. ولا نعرف حتى كتابة هذه السطور مشروعاً مائياً أو صناعياً او زراعياً أو انمائياً، بكل ما في هذه الكلمة من معنى، اثار مثل الضجة السياسية والاقتصادية التي اثارها مشروع بناء السدّ العالي. فقد أدى قرار بنائه الى سلسلة من الأحداث السياسية والاقتصادية الخطيرة التي اثـرت على مستقبـل مصر ومستقبل الوطن العربي بأسره. ويأتي في طليعـة هذه الأحـداث تأميم قنـاة السويس في ٢٦ تموز (يوليو) من عام ١٩٥٦، وحرب السويس التي نشبت في اوكتوبر من عام ١٩٥٦ بعد العدوان الثلاثي على الأراضي المصرية والذي شاركت فيه بريطانيا وفرنسا واسرائيل، بالاضافة الى حدوث عدد كبير من التطورات التي ترتبط مباشرة او غير مباشرة ببناء السدّ العالي.

ومن حق القارىء العربي، بعد هدوء الضجة حول السدّ العالي، ان يطلع على تاريخ هذا المشروع الكبير وعلى آثاره الاقتصادية التي نشب حولها جدل كبير بين مؤيدي المشروع ومعارضيه، وبعد ان اصبح السدّ العالي حقيقة قائمة واحتل جزءاً كبيراً من تاريخ مصر الاقتصادي والسياسي.

* د. يوسف شبل: مستشار اقتصادي لدى وزارة المالية في السعودية واستاذ اقتصاد في الجامعة الامـيركية - بيروت سابقاً، ويشغل حالياً منصب خبير الاقتصاديين في دار الهندسة والتصميم في بيروت.



من البديهيات التي يعرفها كل عربي أن نهر النيل هو عصب الحياة في مصر. فمن أصل مساحة قدرها مليون كيلومتر مربع وهي مساحة مصر لا يوجد أكثر من ٢,٥٪ من هذه المساحة صالح للزراعة نظراً لانعدام وجود مياه امطار كافية مما أدى الى اعتماد مصر الكليّ على نهر النيل كمصدر وحيد للريّ. وتمتد الأراضي الزراعية في مصر حول شريط ضيق على امتداد مجرى نهر النيل حتى مشارف الدلتا شمال القاهرة حيث يتشعب نهر النيل الى فرعين قبل ان يصب في البحر الأبيض المتوسط بالقرب من مدينة دمياط.

كانت مساحة الأراضي الزراعية قبل بناء السدّ العالي في حدود ٦ ملايين فدان (الفدان يساوي حوالي خمسة دونمات) وكان يزرع معظمها قطناً وارزاً وبعض المنتوجات الزراعية الأخرى مثل القنّب وقصب السكر والبرسيم وغيرها.

ونظراً لتذبذب منسوب المياه السنوي بين عام واخر، فقد بدأ خبراء الريّ في مصر، وهي التي كانت تضم منذ مطلع القرن عدداً كبيراً من الخبراء المشهود لهم في هذا المضمار، في محاولة إيجاد طريقة للحصول على أكبر منسوب ممكن من المياه، خصوصاً وان جزءاً كبيراً يذهب هدراً الى البحر الأبيض المتوسط. وكان هؤلاء الخبراء يريدون تحقيق معدل سنوي اعلى لمنسوب المياه من ناحية وخفض التذبذب في منسوب المياه الذي يصل مصر من خلال نهر النيل من ناحية اخرى الأمر الذي يؤدي الى زيادة الانتاجية الزراعية لكل فدان من الأرض والى توسيع رقعة الأراضي الزراعية ككل. وهذا ما يشار اليه عادة باسم التوسع الرأسي للانتاج (زيادة الانتاجية في الرقعة الزراعية الموجودة) والتوسع الأفقي للانتاج (زيادة رقعة الأراضي الزراعية).

وتملك مصر منذ عهد محمد علي نظاما متطورا للريّ. «فالقناطر الخيرية» الموجودة شمال القاهرة تشهد على ذلك و«سدّ اسوان» القديم وهو غير السد العالي، الذي تم بناؤه في عام ١٩٠٥ والذي تحول هدفه من الريّ الى توليد الطاقة الكهربائية ايضا شاهد على هذا التطور. وكان نظام الريّ في مصر، حتى بناء «السد العالي» يعتمد على ما يسمى «ري الحياض» و«الري المستديم». ويعني التعبير الأول ريّ الأراضي الزراعية من مياه الفيضان

«... هذا هو السد العالي الذي دارت من حوله الحروب» وحارب من اجله الأبطال، هذا هو السدالعالي الذي شهد كل هذا الكفاح واستحق كل هذا الكفاح بسبب معناه كرمز لتصميم الأمة العربية كلها على ان تسير في بناء وطنها الكبير.. المتحرر.

ان السد العالي مثل لجميع الدول.. بل حافز مستمر لكل الأمم في افريقيا وآسيا.. يذكرّها دائماً ان الشعوب الصغيرة مهما تضاءل ما تملكه من معدات الدمار الذري.. تستطيع ان تقوم دائماً بأعظم الأعمال الانشائية. وتستطيع لو اقتضى الأمر ان تحفر طريقها بأظافرها.. ودمائها.. وسط الصخور.

كنت واثقاً اننا سننتصر على الدول العظمى...

جمال عبد الناصر

عندما يرتفع نهر النيل الى اعلى منسوب له وذلك في شهر يونيو (حزيران) في كل عام بحيث يُغرق الأراضي الزراعية المجاورة له بالمياه. اما نظام الريّ المستديم فيشير الى توفير المياه على مدار السنة للمنتجات الزراعية بواسطة المضخات والأقنية ومواسير المياه حسب مقنّنات مائية تحددها وزارة الري ووزارة الزراعة في مصر.

انطلاقا من هذه الحقائق كانت تراود خبراء الري فكرة انشاء سد كبير قرب مدينة اسوان في جنوب مصر لتخزين المياه خلفه وتوليد طاقة كهربائية وايصالها لمختلف انحاء القطر المصري. وبعد قيام ثورة يوليو عام ١٩٥٢ بدأ التفكير مجددا في اقامة السدّ العالي كأحد الوسائل لتطوير القطاع الزراعي وقطاع الكهرباء. وتشكلت لجنة خاصة من مجلس الثورة برئاسة المرحوم قائد الجناح جمال سالم لمتابعة الموضوع وتحديد ملامح المشروع.

وفي مطلع عام ١٩٥٦ تقدمت الحكومة المصرية بطلب رسمي الى «البنك الدولي للانشاء والتعمير» في واشنطن للحصول على قرض لتمويل جزء من المشروع. وقد أبدت الحكومة الامريكية في عهد الرئيس «دوايت ايزنهاور» استعدادها للمشاركة في التمويل عن طريق تقديم مساعدة مالية تساعد مصر على بناء السد. غير انه في الوقت الذي كان يسير فيه مشروع السد العالي نحو الاكتمال كانت قد بدأت تظهر تطورات سياسية بين الحكومة المصرية والحكومة الامريكية بسبب رفض الأخيرة بيع مصر حاجتها من الأسلحة الدفاعية أدّت في نهاية الأمر الى سحب المعونة الامريكية في حزيران (يونيو) من عام ١٩٥٦ وتبعها البنك الدولي بسحب عرضه ايضا لتمويل المشروع جزئيا. وتتابعت التطورات بسرعة كما يعرفها القارىء العربي.

وبعد انتهاء حرب السويس تأخر تنفيذ المشروع حتى عام ١٩٦٠ عندما حصلت مصر على مساعدة سوفياتية لبنائه وم تعديل التصميم الهندسي للمشروع طبقاً لذلك.

مواصفات السدّ العالي ومزاياه الاقتصادية

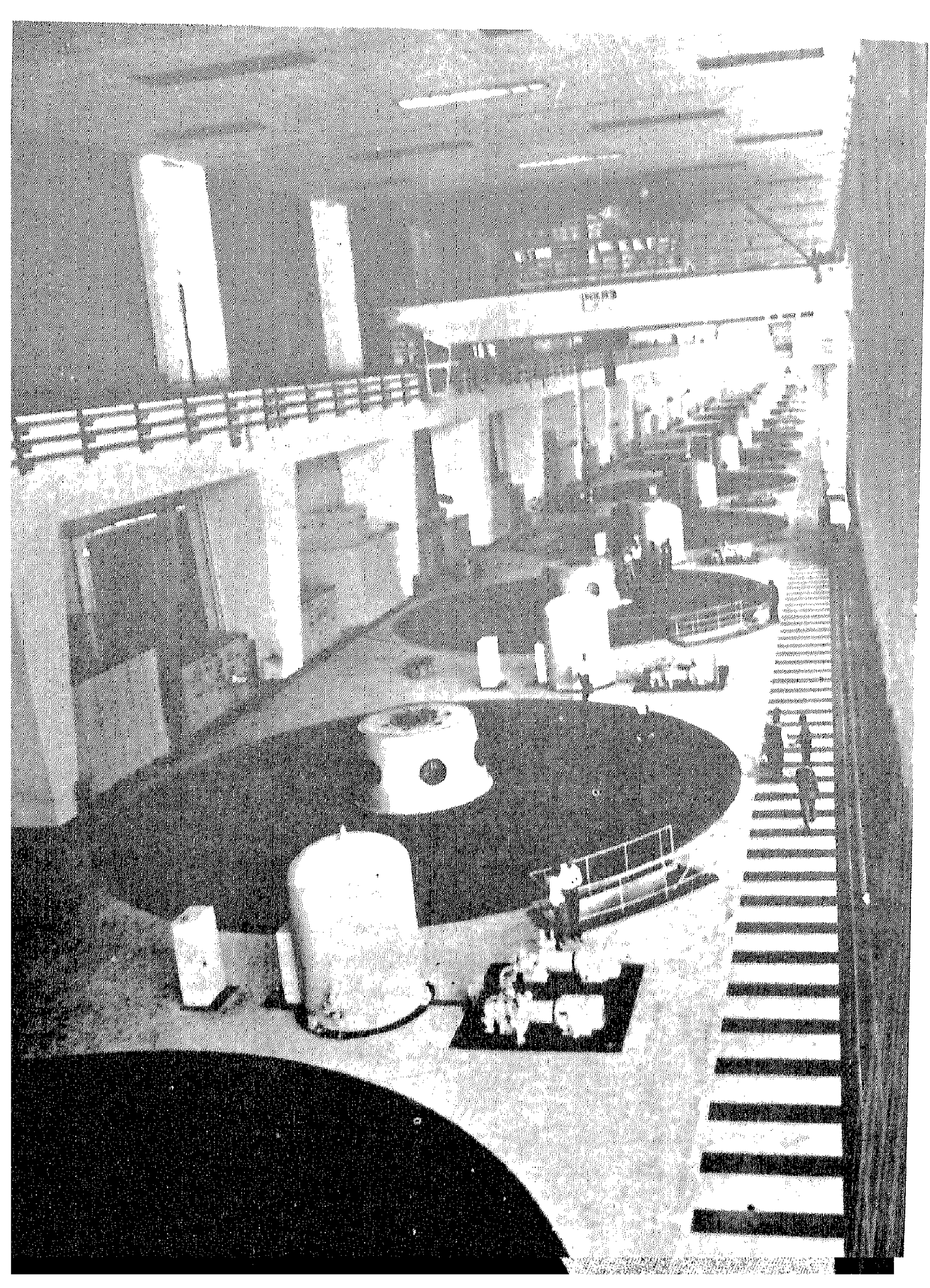
تبلغ طاقة التخزين في السدّ العالي ١٥٧ مليار متر مكعب من مياه نهر النيل وحسب التصميم الهندسي للمشروع فقد قسمت هذه السعة الى ثلاثة اقسام رئيسية:

(أ) التخزين «الميت» ويبلغ ٣٠ مليار متر مكعب وهو مخصص رسوب الطمي في قعر الخزان. والمعروف ان الطمي الذي يحمله نهر النيل من منبعه ويلقي به على الأراضي الزراعية يشكل غذاء رئيسياً للتربة.

(ب) التخزين «الحي» وسعته ٩٠ مليار متر مكعب وهو المخصص لاحتياجات الرقعة الزراعية في مصر سنويا من المياه.

(جـ) التخزين الخاص بالسيطرة على الفيضانات عندما يرتفع منسوب المياه في نهر النيل الى اقصى حدوده وذلك في شهر حزيران من كل عام. وسعة هذا الجزء ٣٧ مليار متر مكعب.

والجدير بالذكر ان ارتفاع السد يبلغ



الآلات الرئيسية للمشروع

١١١متراً وهنالك أنفاق مكشوفة لكي تخرج المياه من خلفه لأغراض الري. كما ان هنالك ١٢ مولداً كهربائياً طاقة كل منها ١٧٥,٠٠٠ كيلو وات، وبذلك يكون مجمل الطاقة الكهربائية التي يولدها السد على افتراض تشغيل جميع المولدات في حدود ٢١٠٠ ميغاوات.

ملخص المزايا الرئيسية للمشروع.

(أ) زيادة رقعة الأراضي الزراعية بمساحة قدرها ١,٢ مليون فدان اي من ٦,٢ مليون فدان الى ٧,٤ مليون فدان.

(ب) تحويل نظام الري بأسره الى «النظام المستديم» بعد ان كان حوالي ٨٢٥ الف فدان من الأراضي الزراعية يروى بطريقة «الحياض» اي مياه الفيضان وبالتالي زيادة زراعة وانتاج المحاصيل الزراعية.

(جـ) خلق طاقة كهربائية في حدود ٢١٠٠ ميغاوات، الأمر الذي يؤدي لدفع القطاع الصناعي الى الأمام عن طريق توفير طاقة رخيصة وانارة مصر بأكملها.

(د) ضمان زراعة مليون فدان من الأرز سنوياً بقطع النظر عن منسوب المياه لنهر النيل.

(هـ) تدعيم اقتصاديات كهربة سد أسوان القديم والواقع على بعد ٦,٥ كيلو متر الى الشمال من موقع السد العالي.

(و) ايجاد ثروة سمكية في البحيرة الصناعية التي ستنشأ خلف السد على امتداد مساحة ٢٥٠ كيلو متر مربع.

(ز) تخفيف أخطار الفيضان على الجسور المقامة على نهر النيل.

كلفة المشروع وتمويله:

لقد أدى التأخير في تنفيذ المشروع إلى زيادة كلفته عما كان مقدراً سابقاً. وقد بلغت كلفة المشروع الفعلية حوالي ٥٦٠ مليون جنيه مصري، اي ما يساوي ٧٠٠ مليون دولار توزعت على فترة عشرة أعوام ومن اصل مبلغ الـ ٥٦٠ مليون جنيه، بلغت كلفة السد بكافة مرافقه ٣٢٠ مليون جنيه في حين ان الـ ٢٤٠ مليون الباقية هي لمشاريع تتعلق بالسد حتى تمكّنه من تحقيق المزايا الكاملة للاقتصاد المصري وفي طليعتها استصلاح الأراضي وتركيب مضخات مائية جديدة وغيرها.

وقد حصلت الحكومة المصرية على قرض من الاتحاد السوفياتي بشروط سهلة نسبياً. حين قدم الأخير قرضاً بقيمة ٩٠٠ مليون روبل، أي ما يوازي ٧٨ مليون جنيه مصري، لتغطية جزء من كلفة المشروع بفائدة قدرها ٢,٥٪ سنوياً.

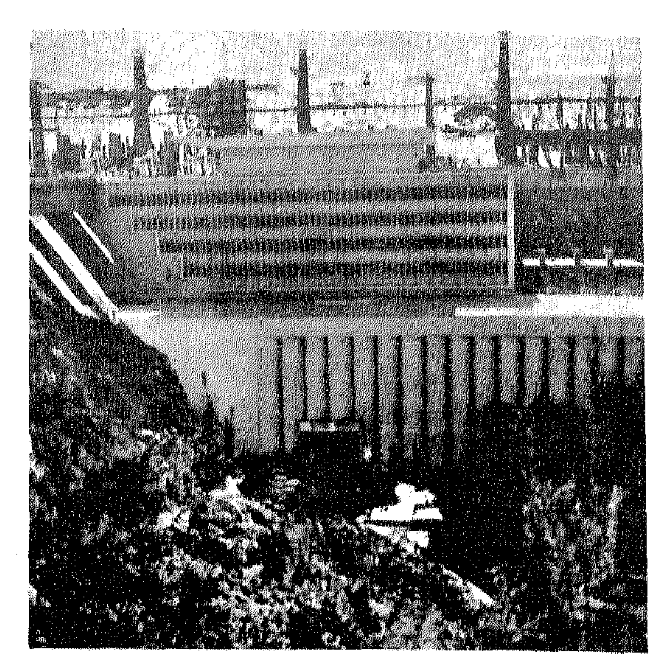
وبذلك تكون مصر قد غطت من مواردها حوالي ٧٥٪ من كلفة بناء السد العالي بينما غطى الاتحاد السوفياتي الـ ٢٥٪ الباقية.

اما كلفة المشروع الاجمالية وهي ٥٦٠ مليون جنيه مصري فانها قد توزعت على النحو التالي:

(أ) دراسات أولية حول المشروع	٨	مليون جنيه
(ب) بناء البنية التحتية المحيطة بالمشروع	١٣	مليون جنيه
(جـ) بناء جسم السد نفسه وأقنية التحويل	١١٨	مليون جنيه
(د) المحطة الكهربائية وخطوط التحويل للقاهرة	١٢٠	مليون جنيه
(هـ) تعويضات للحكومة السودانية ولأهل النوبة بسبب اغراق منطقة حلفا.	٣٠	مليون جنيه
(و) فوائد على القروض السوفياتية	٢٥	مليون جنيه
(ز) حصة مصر من كلفة انقاذ معبد ابوسنبل	٦	مليون جنيه
كلفة السد	٣٢٠	مليون جنيه

يضاف الى ذلك عناصر الكلفة التالية:

– تحويل ري الحياض الى ري مستديم لمساحة ٨٥٠,٠٠٠ فدان	٧٥	مليون جنيه
– استصلاح ٦٥٠,٠٠٠ فدان من الأراضي الزراعية	١٥٠	مليون جنيه
– تركيب محطات حديثة لضخ المياه	١٥٠	مليون جنيه
	٢٤٠	مليون جنيه
كلفة المشروع وتوابعه	٥٦٠	**مليون جنيه**



محطة الكهرباء

اما مزايا المشروع الرئيسية فيمكن تلخيصها بالتالي:

ان حجم المياه المختزنة خلف السد العالي والمقدرة بـ ١٥٧ مليار متر مكعب ليست كلها مكسباً بل هنالك فواقد مائية من هذا المخزون لا يستهان بها.

فجزء من هذه المياه يتبخر بسبب حرارة الجو في محافظة اسوان والتي تصل الى حوالي ٥٠ درجة سنتغراد في فصل الصيف. وقد أمكن لخبراء السد بواسطة اجهزة رصد متقدمة تحديد فواقد التبخر حيث قدرت بـ ١٠,٧ مليار متر مكعب اي ما يوازي ٧٪ من مجموع المياه المتواجدة خلف السد.

وبالاضافة الى التبخر هنالك خسائر التسرب «Seepage» ونعني بذلك تسرب المياه من قعر بحيرة السد الى الأراضي الرملية المجاورة. وقد قدّر خبراء السد هذه الخسارة بـ ٢ مليار متر مكعب فقط في حين أن بعض الخبراء خارج أجهزة الدولة قدروا هذه الخسارة بـ ٩ مليار متر مكعب. غير انه بعد اكتمال بناء السد العالي أمكن التأكد من حجم هذه الظاهرة. ففي عام ١٩٧٤ مثلا بلغت جملة فواقد المياه ١٤,٣ مليار متر مكعب منها ٤,٨ مليار متر تسربت الى الأراضي المجاورة و٩,٥ مليار تبخرت في الجو.

اما فيما يتعلق بخسارة الطمي الذي كان يحمله نهر النيل في موسم الفيضان والذي كان يستقر على الرقعة الزراعية والذي يعتبر غذاءاً اساسيا للتربة في مصر، فان الدراسات قدرت هذه الخسارة بـ ٤ مليون طن سنويا من أصل ١٦ مليون طن تترسب على الأراضي المصرية، واتضح ان انخفاض نسبة الطمي يحدث خلال أشهر الفيضان اي بين شهري تموز وتشرين الأول من كل عام في حين ان الأشهر الأخرى لا تتأثر كثيرا. على أية حال لا بد من اضافة عنصر كلفة للمشروع يتمثل باستعمال الأسمدة الكيماوية لتعويض خسارة الطمي.

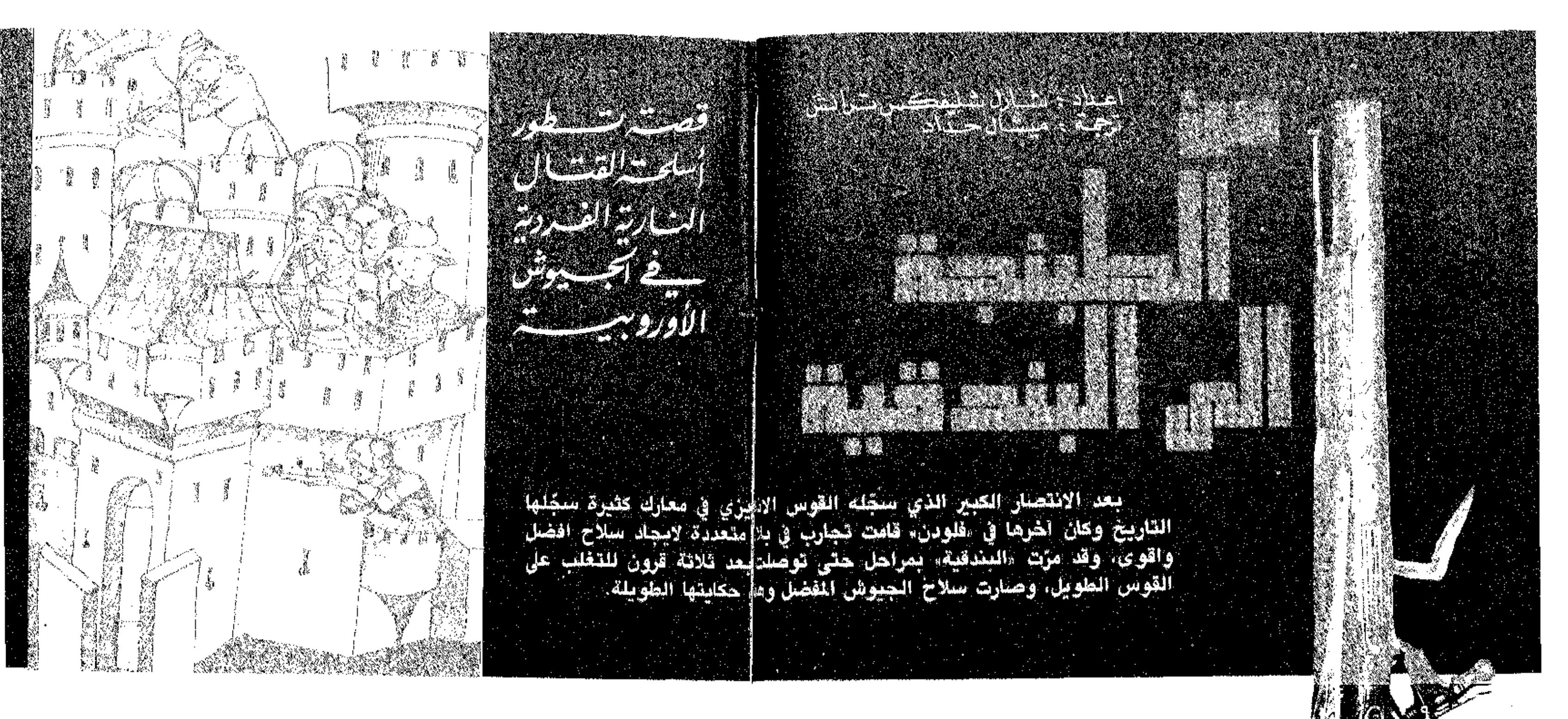
هنالك آثار جانبية اخرى للمشروع مثل زيادة ملوحة الأرض وانتشار البلهارسيا وغيرها التي لا تزال موضع دراسة دقيقة لايجاد الحلول لها.

وخلاصة القول فان مشروع السد العالي هو مشروع حيوي للاقتصاد المصري وحقق مزايا لا جدال فيها. غير ان الضجة التي أحاطت بظروف بنائه اعطت انطباعا خاطئا لدى البعض بأنه قادر على حل جميع مشاكل مصر الرئيسية والتي تتمثل بكثافة سكانية كبيرة ورقعة زراعية محدودة. وبالطبع فان أكثر المتفائلين بمشروع السد العالي لا يؤيد هذا الرأي. وعليه يجب تقويم هذا المشروع الكبير ضمن اطاره الصحيح. ■



● **لماذا نخاف الموت اذا كنا على حق. خير للمرء ان يموت في سبيل فكرته من ان يعمر طويلاً، خائناً، جباناً عن نصرته.**

ج. مازيني



اعداد: شارل شليمكس تراتش
ترجمة: ميشال حداد

الطبنجة الى البندقية

قصة تطور أسلحة القتال النارية الفردية في الجيوش الأوروبية

بعد الانتصار الكبير الذي سجّله القوس الانكليزي في معارك كثيرة سجّلها التاريخ وكان آخرها في «فلودن» قامت تجارب في بلاد متعددة لايجاد سلاح افضل واقوى، وقد مرّت «البندقية» بمراحل حتى توصلت بعد ثلاثة قرون للتغلب على القوس الطويل، وصارت سلاح الجيوش المفضل وهذه حكايتها الطويلة.

كان القوس الطويل السلاح الشخصي الأشد فتكاً الذي عرفه الانسان حتى منتصف القرن التاسع عشر، وكان آخر انتصار كبير له في «فلودن» في سنة ١٥١٣. وقد حاول الانسان عبثاً، منذ ذلك الحين ولأكثر من ثلاثمائة عام، انتاج سلاح ناري دقيق وبعيد المدى وسريع الرماية كالسلاح الذي تغلّب على الفرنسيين والاسكتلنديين معركة بعد أخرى.

وليس من السهل الآن الحديث على نحو صحيح عن مدى دقة القوس الطويل في القرون الوسطى، ولكن رماة السهام من الانكليز استعملوا اسلحة مماثلة في القرن التاسع عشر: قوساً صنع من عصا شجرة الطقسوس الجبلية (وهي شجرة دائمة الخضرة من الفصيلة الصنوبرية) وسهماً خشبياً. وتمكن الرامي هـ.أ. فورد، الذي كان يتمتع بقوة بدنية خارقة وذكاء حاد، من تسديد تسعة وستين سهماً من اصل اثنين وسبعين ضمن دائرة يبلغ قطرها ثمانية وعشرين «انشا» وذلك من مسافة مائة ياردة، وكان يرمي السهام جميعها داخل الدائرة من مسافات اقصر. كما كان يسدد من مسافة مائة ياردة ثلاثة اسهم متعاقبة الى النقطة الذهبية البالغ قطرها تسعة انشات وثلاثة اخماس الانش. وأغلب الظن أن الرامي في القرون الوسطى كان يرمي السهام بطريقة محكمة، ولكن ليس هناك من سبب للافتراض بأن رميه كان اكثر دقة.

ومنذ ذلك الوقت اخذ الرامي يستعمل قوساً أقوى، ويلويه الى الاذن (وليس الى الذقن كما كان يفعل فورد)، وبذلك اصبح مداه أطول وفعاليته أشد، اذ كان أقصى مدى لتأثيره على جماعات من المحاربين أو على فرقة محتشدة من سلاح الفرسان هو ٢٧٠ الى ٣٠٠ ياردة، وعلى رجل واحد من ١٨٠ الى ٢٠٠ ياردة.

وكان القوس الطويل يعتبر سلاحاً للابادة الجماعية اكثر مما كان سلاح قنص دقيق، اذ انه كان بامكان جماعة من رماة السهام ان تمطر منطقة ما بسهامها فتقتل جميع الخيول

الصور من: History today 73 و Firearms by Frederick Wilkinson

والرجال فيها، الا اذا كان البعض منهم مسلحاً بدروع من صفائح متينة.

قبل ذلك التاريخ كانت قربينة القرن الخامس عشر التي تطلق النار من على سناد، تخطىء في معظم الأحيان رجلاً على بعد ثمانين ياردة. وكانت أقصى مسافة لمباريات الرماية بين الخبراء السويسريين والألمان مائة ياردة. وكان حشو هذا السلاح واطلاق النار منه يحتاجان الى دقيقة من الوقت تقريباً وهناك سجلات لا تعد ولا تحصى عن مباريات جرت حتى نهاية القرن الثامن عشر بين رماة البندقية القديمة (المسكيت) ورماة القوس الطويل كان النصر فيها دائما حليف القوس الطويل.

وبعد سنوات قليلة من معركة واترلو، أوصى ضابط ذو خبرة وتجربة بأن يتسلح المشاة البريطانيون بالقوس الطويل.

المسكيت والقوس الطويل

السؤال الذي يطرح الآن: لماذا اخذت المسكيت مكان القوس الطويل؟ والجواب على ذلك: ان رمي القوس على نحو صحيح يحتاج الى سنوات من التمرين وتنمية عضلات خاصة، بينما يحتاج «المسكيتي» (الجندي المسلح بمسكيت) الى عدة ايام فقط لاستعمالها.

ففي عام ١٥٩٠ كتب السير روجر وليامس يقول: «لا يمكنك ان تجد من بين خمسة الاف من رماة السهام الف رامٍ جيدٍ، واعني ان يرمي رميات قوية».

وقد حاول تودور برليامنتس تشجيع الرجال على التدرب على الرمي بواسطة القوس وذلك بهدف ان يتمكنوا من الرمي بقوة مثلما كان يفعل اجدادهم. ولكنه فشل وفشلوا هم. والسنوات العديدة من السلام اضعفت الحافز نحو الممارسة. فلم يكن بين الستة آلاف جندي الذين احتشدوا في «تلبوري» لصدّ الآرمادا، واحد منهم متمرسٌ برمي السهام. وقد كان آخر ظهور لحرب القوس في غرب اوروبا، في جبال مونتروز في عام ١٦٤٤ — ١٦٤٥.

وفي القرن السادس عشر كانت بندقية الفتيل هي السائدة. والفتيل، كان عبارة عن لفة من الحبال يشد الى جهاز يشبه زند البندقية وينخفض الى فتحتها بواسطة رافعة تقوم مقام المقداح الحديث. وكان البارود يوضع في قرن مجوّف ذي فوهة تحتوي على الحشوة المناسبة.

وكانت اعادة الحشو عملية تتوالى بانتظام، وبالشكل التالي: أولاً، يجب ازاحة الفتيل المشتعل من الجهاز الذي يشبه زند البندقية (السربنتين) وان يتم ذلك باليد اليسرى بعيداً عن القرن المجوف المخزون بالبارود. وكان يجب وضع عقب البندقية ارضاً، كما يمسك باسطوانة البندقية باليد اليسرى. وباليد اليمنى يجري تفريغ قارورة البارود، بينما تسد فتحة البندقية بالسبابة. بعد ذلك كانت تتم تعبئة الفوهة بالبارود لينزل بعناية في الاسطوانة. ثم يدكّ بورق مقوّى لتثبيت البارود في موضعه، ثم تكبس رصاصة أو كرة.

بعد هذه العملية يتحول رامي القربينة الى وضع المستعدّ لاطلاق النار.

لوحة مائية من رسم كلوكنتون (١٥٠٥). تمثل بندقية الامبراطور مكسميليان.



الاسطوانة المحلزنة

وفي بداية القرن السادس عشر جرى تسجيل بعض الاختراعات الفنية. ومن الأمثلة على ذلك فان كرة من الرصاص نادراً ما تكون متناسقة في اجزائها المركبة: ان جزءاً منها سيكون اثقل من الآخر، الأمر الذي يجعلها تنحرف وتتذبذب في الهواء بعد اطلاقها، ويجعلها بالتالي تخطىء هدفها وتقصر عن مداها. ولكن بعد تجارب عديدة تأكد للخبراء أنه يمكن التخلص من هذا الانحراف والتذبذب باطلاق النار من «سبطانة» او اسطوانة محلزنة تجعل القذيفة تدور بسرعة في مسارها. وبدا أن تأثير الحلزنة واضح وجلي: فقد حسّن كثيراً من فعالية «بندقية اليد».

ولكن البندقية لم تجد شعبية لها في ذلك الوقت. فخوفاً من ان يتسرب الغاز كان على قطر الكرة ان ينطبق على مقاييس الأخاديد وليس على مقاييس السدود في الحلزنة. ولذلك، كانت الكرة تطرق بمطرقة الى داخل الاسطوانة. وهكذا ظلت البندقية اختراعاً تكنيكيا حصر استعماله بفئة الرياضيين الالمان والسويسريين الاغنياء الذين كان لديهم خدمهم الخاص للعمل في حشو بنادقهم.

في هذا الوقت كان التحسين الذي طرأ على البارود اكثر وضوحا وتأثيراً. ذلك ان مزج أجزاء الكبريت والفحم والملح الصخري وهي جافة، يجعلها سهلة التفكك عند تحريكها في الماسورة أو في القرن المجوف. اما اذا مزجت بعد ترطيبها بالماء، فان هذا المزيج يصبح اكثر تماسكاً.

الفتيل وبندقيته

والعيب الكبير في بندقية الفتيل كان الفتيل ذاته، الذي كانت تتأخر بسببه عملية اعادة الحشو بالاضافة الى خطره. ولذا فان اي اختراع من اجل التخلص من الفتيل اعتبر خطوة الى الأمام.

ففي عام ١٥١٥ ظهر في تورمبورغ زند البندقية الدولابي. وبسبب غلائه الفاحش كان استعماله، كسلاح رياضي، مقتصراً على الأغنياء، وكسلاح حربي، على الفرسان فقط. في المقابل ظلت بندقية الفتيل سلاح المشاة البريطانيين الى عهد غليون دورانج.

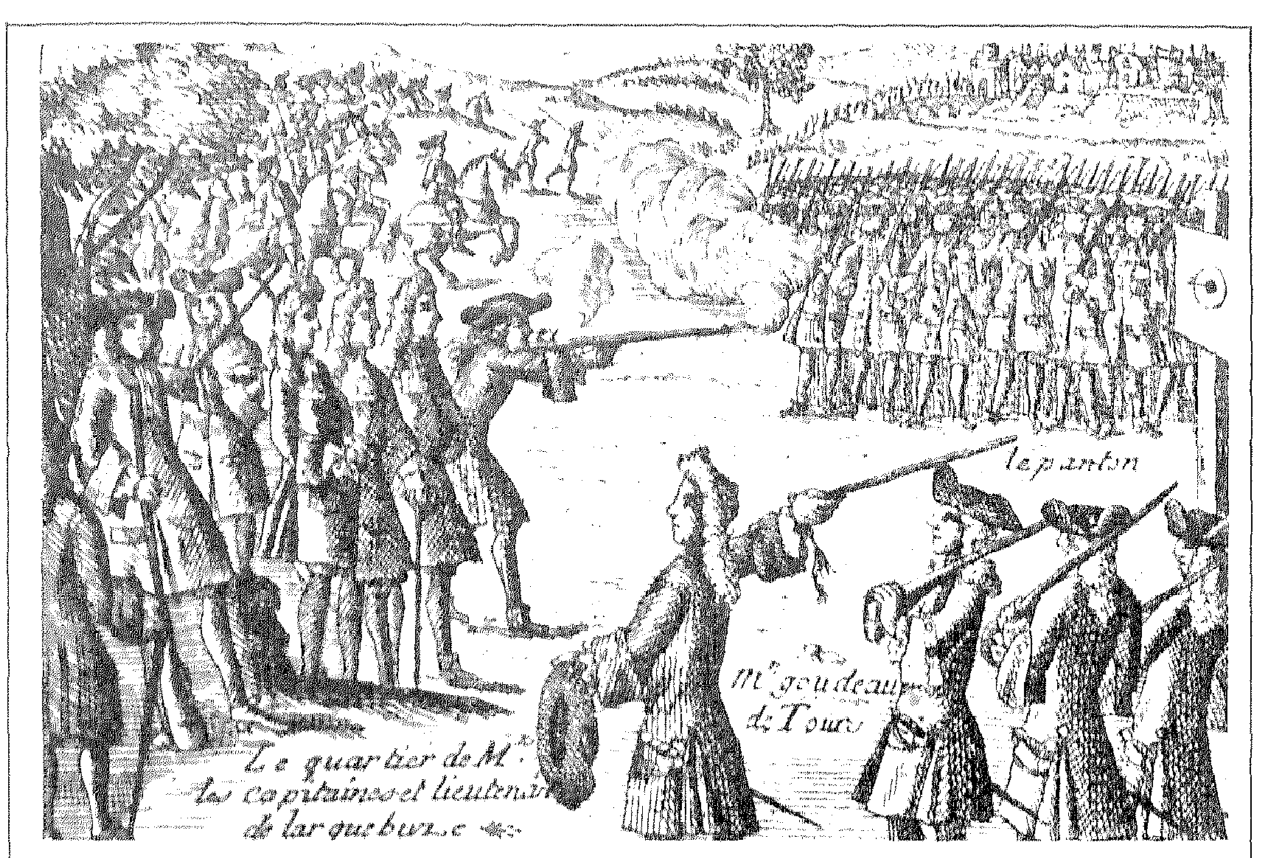
وعلى الرغم من التحسين الكبير الذي طرأ على بندقية الفتيل بفضل زند البندقيةالدولابي، فقد كانت لهذا الزند سيئاته. فبالاضافة الى غلائه كانت آليّته المعقدة تحتاج الى خدمات صانعي الاسلحة المهرة. وكان بطيئاً مما يجعل اصابة هدف متحرك عملية صعبة للغاية.

وفي نهاية القرن السادس عشر ظهر اختراع «سنابهونس» (snaphaunce) الذي تطور في ما بعد الى الزّند المصوّن، اي الى زند ذي صوانة. واصبح استعماله الحربي رائجاً في الربع الأخير من القرن السابع عشر. واستمر حوالي ١٥٠ عاماً.

وفي غضون ذلك ظهر اختراع بسيط جعل استخدام البندقية عمليا لأول مرة. إذ أمكن صنع رصاصة بمقاييس السدود في الحلزنة. وبتغليف هذه الرصاصة بقطعة من جلد مشحّم او غلاف مزيّت أصبحت تتلاءم والأخاديد بما يحول دون الغاز والتسرب. فتأخذ الرصاصة في الدوران السريع. إن بندقية كهذه ذات قطر داخلي يساوي حوالي ٠,٧٥ إنشا جرى استعمالها بشكل عام في اوروبا الوسطى.

وبالرغم من حسنات هذه البنادق على صعيد المدى والدقة كسلاح حربي، فان ماسورة بندقية «المسكيت» الداخلية تبقى افضل. وكان المثال النموذجي لها «المسكيت البرجي» (تاور مسكيت) الذي استعمله المشاة البريطانيون من ايام وليم الثالث الى الأربعينات من القرن التاسع عشر، والذي يستعمله كذلك صيادون في اماكن عديدة من العالم حتى يومنا الحاضر.

وقد كان هذا النموذج معروفاً لدى مستخدميه باسم «براون بس» ولدى اعدائه باسم «لا بس برون» أو «دي بروني ليزل». ويبلغ وزن هذه البندقية ١٠ باوند وقطر ماسورتها الداخلي ٠,٧٥ انش، وقطر رصاصتها ٠,٧١ انش ووزن الكرة حوالي أونصة واحدة. ولأن قطر الرصاصة اصغر من قطر الماسورة الداخلي، فان هذا كان يعني ان «المسكيت البرجي» لم يكن دقيقاً جداً.



مباراة في اطلاق النار للحصول على جائزة الملك ٢٩ آب ١٧١٩.

في القرن الثامن عشر انشأ الحكم في المانيا فيلقاً متخصصاً بالرماية سمي بـ «الياغرن» (اي القناصة) وكان افراد الفيلق، نظرياً، الصيادون ومراقبو الاحراج، الذين اخذوا يتدربون على تكتيك المشاة الخفيف.

البندقية في أميركا

وبعد ذلك كان صانعو الاسلحة من الالمان والسويسريين اول من ادخل البنادق الى اميركا حيث طرأ عليها تغيير مهم. ولم تكن البندقية الألمانية كما يرغب لها أن تكون، فهي تزن عشرين باوندا وتحتاج الى كميات كبيرة من البارود والرصاص الثقيل.

تطورت البندقية في بنسلفانيا وسميت ببندقية كنتوكي، وهي مزودة بزند مصوّن بسيط ذي قدرة على الاحتمال ومن السهل اصلاحه وقطر ماسورتها الداخلي اقل من خمسة اعشار الانش، كما أن نسبة حشوة البارود فيها قليلة. وبذلك اصبح وزنها مع رصاصها وبارودها نصف وزن نظيرتها الاوروبية مع ان طول ماسورتها كان بين ٤٢ و٣٨ إنشا، الأمر الذي جعل مسارها دقيقا ومضبوطا. واصبح الرماة واثقين من اصابة أهدافهم من مسافة ثلاثمائة ياردة.

ولم تكن بندقية كنتوكي افضل في جميع الظروف من البندقية الالمانية وبندقية «المسكيت» القديمة الخاصة بجند المشاة. ولكنها كانت افضل في الظروف التي سادت في حرب الاستقلال الاميركي. لقد فات السلطات العسكرية البريطانية فهم هذه الحقائق.

وكانت لدى البريطانيين في ذلك الحين بندقية «فيرغوسون» التي تعتبر جامعة لخصائص البندقية الالمانية وكنتوكي، ومجهزة بحربة.

وبندقية باتريك فيرغوسون دقيقة جدا، ورميها سريع بالنسبة للمستوى آنذاك: وفي استعراض جرى في وولويش، ذات يوم ممطر وعاصف، تمكن النقيب فيرغوسون من اصابة نقطة الهدف الرئيسية من بعد مائة ياردة، وكان بامكانه اطلاق تسع طلقات في الدقيقة الواحدة.

وهكذا، ظهر في النهاية السلاح الذي يضاهي، في المدى والدقة ومعدل سرعة اطلاق النار، القوس الطويل.

لكن مائة بندقية فقط من نوع فيرغوسون صنعت للجيش البريطاني وكان السبب في ذلك ان هذه البندقية لم تأخذ في الاعتبار قياس الخرطوشة المعترف بها.

والحرب الاميركية برهنت بكل تأكيد على القيمة العسكرية للبندقية. ومن المألوف في التاريخ العسكري ان تتعلم الامم من هزائمها اكثر من انتصاراتها.

بندقية باكر

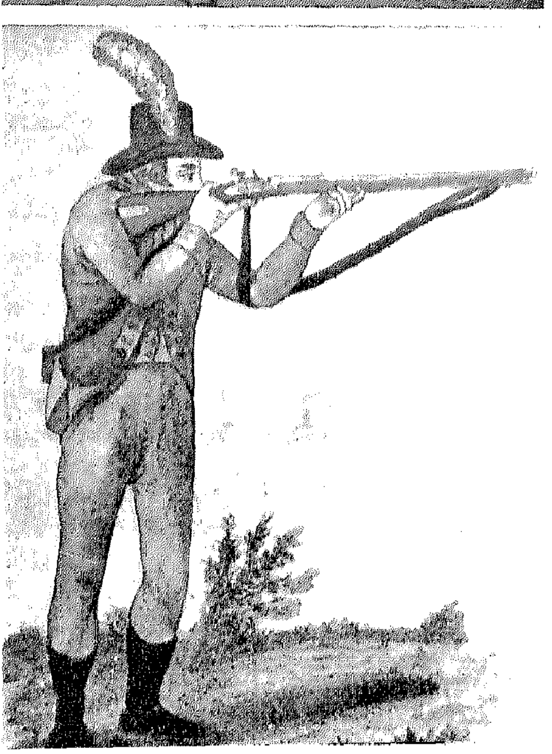
وفي عام ١٨٠٠ تأسس فيلق من الرماة المتمرسين والمسلحين ببنادق طورها صانع الاسلحة إزيكيل باكر من «هوايت تشابل». يبلغ قطر الماسورة الداخلي لهذه البندقية ٠,٦١٥ انش ولها سبعة أخاديد. وكانت النقطة موضع الجدال هي عدد الدورات في داخل الماسورة. وعرفت بندقية باكر بعدم دقتها، إذ كانت الرصاصة تحيد عن هدفها بعد ان تقطع مئتي ياردة. وعلى هذا الأساس، كانت بندقية كنتوكي ما تزال اكثر دقة من بندقية باكر.

في هذا الوقت كانت المعوّقات في الزند المصون تخلق حافزاً لدى الكاهن والصياد والكيميائي الكسندر فورسيزي من مدينة «ابردين» للتطلع الى فلمينات الزئبق. فهذا المركب المتفجر المشتق من الحامض الفلميني كان يمكن تفجيره بنفخة قوية، وينتج عن ذلك شرارة حادة. وبعد عدة تجارب استطاع الكاهن ان يحول زند بندقيته المصون الى اول زند يعمل بالقدح، فكان النجاح حليفه.

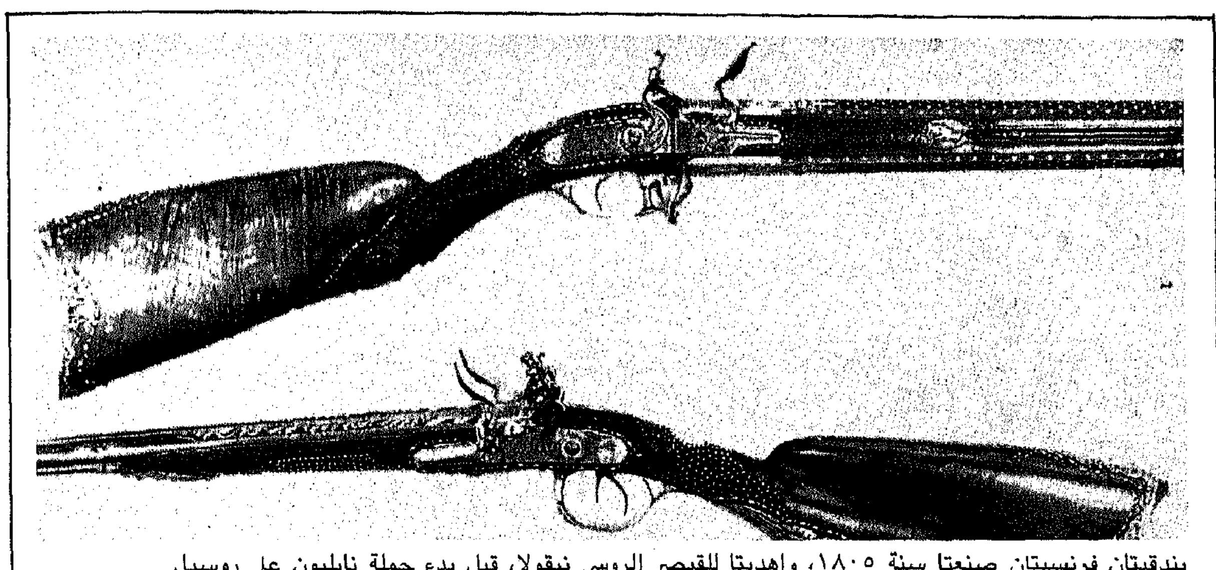
وفي عام ١٨٠٦ وضع اختراعه الذي لا يقدر بثمن في ايدي «مكتب الحرب» (وزارة الحربية البريطانية) ضد نابليون. ولكن البيروقراطية اللامبالية وكذلك التحيز السياسي أحبطا همته.

ولم ينج اختراعه من الانتقادات اللاذعة. فقد انتقد مراسل «ذي جنتلمانز ماغازين» الزند الذي يعمل بين العواصف والامطار، قائلاً: «اذا استخدمت الجيوش هذا الجهاز الجديد فان الحرب ستكون في القريب العاجل رهيبة بحيث تتجاوز كل حدود الخيال، ولن تنذر حروب المستقبل في غضون سنوات قليلة بتدمير الجيوش فقط وانما أيضاً المدنية ذاتها. ولهذا،





راميان في مطلع القرن التاسع عشر، من كتاب ازيكيل بيكر «حول استخدام البندقية»، عام ١٨٠٠.



بندقيتان فرنسيتان صنعتا سنة ١٨٠٥، واهديتا للقيصر الروسي نيقولا، قبل بدء حملة نابليون على روسيا.

يؤمل من ذوي الضمائر الحية، ان يبذلوا جهودهم من أجل الحد من خطر هذا الاختراع الجديد».

ومن جهة اخرى، رأت السلطات العسكرية ان افضل وسيلة لمحاربة اختراع الكاهن هي في اتخاذ موقف الاهمال واللامبالاة تجاهه، فلربما أدى ذلك الى نسيانه. ولكن هذا القرار لم يصمد أمام الرغبة العارمة بين الرياضيين.

... وعند انتهاء الحروب النابوليونية تبنى الجيش البريطاني كبسولة القدح.

وبعد هذا الاختراع الكبير طرأ تحسن هائل على رصاصة البندقية. فتغليف الرصاصة برقعة مشحّمة لم يكن الحل الصحيح، ولكنه كان حلاً لا بأس به بالنسبة للكرة المستديرة التي لا تحتاج الى دوران سريع. اما بالنسبة للرصاصة المسنّنة، فان عليها ان تدور بسرعة وبدقة على محورها، والا تذبذبت وانقلبت في الهواء. والرصاصة لا يمكنها ان تدور بانتظام الا اذا كانت تنطبق عليها مقاييس اخاديد ماسورة البندقية. وبعد تجارب عديدة توصل النقيب «مينيي» في الجيش الفرنسي الى معالجة هذا اللغز في عام ١٨٤٨، اذ صنع رصاصة مسنّنة ذات قاعدة مجوّفة باستطاعة الرامي ان يدفعها بسهولة الى داخل الماسورة لتنطبق على السدود في الحلزنة. وعندما تنفجر الحشوة في فجوة القاعدة تتمدد القاعدة بحيث تنطبق على الاخاديد.

وقد جرى اعتماد رصاصة «مينيي» لجميع البنادق وما زالت تستخدم حتى وقتنا الحاضر دون ان يطرأ عليها أي تعديل.

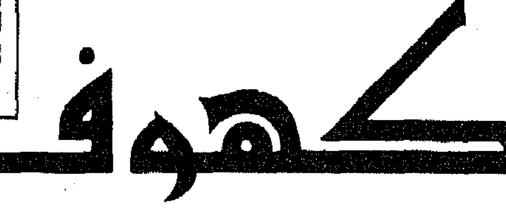
وفي الثلاثينات من القرن التاسع عشر تبنت جميع الجيوش الاوروبية بنادق تملأ من الفوهة كسلاح رئيسي لجند المشاة. وقد قرّ رأي السلطات العسكرية البريطانية على استخدام بندقية النقيب «مينيي» ورصاصته. وهذه البندقية، التي تعرف بـ «إينفيلد»، دخلت حرب القرم، وكانت تطال كتائب المشاة حتى مسافة مئتي ياردة.

وأخيراً، وبعد حوالي ٣٥٠ عاماً، تسلح الجيش البريطاني بسلاح أفضل من القوس الطويل. ■



● ان الرجل الحر هو الذي ينبغي ان يكسب الحرية للعبيد، وان الرجل العاقل هو الذي ينبغي ان يفكر للمجانين، وان الرجل السعيد هو الذي ينبغي ان يعمل من اجل التعساء.





كهوف لاسكو

لوحات اكتشفها كلب

ترجمة: شذا عدرة



كان روبوت، وهو كلب صغير، بطل احد اهم الاكتشافات التي تدل على حياة الانسان الاول. فبينما كان يسير برفقة اربعة صبية في هضبة حرجية، متلمساً طريقه بين الاشجار؛ اختفى فجأة داخل احدى الحفر. فألقى الصبية – وهم من مونتينياك (Montignac) قرية صغيرة على نهر فيزير (Vezere) في فرنسا – حجراً في الحفرة ونادوا على الكلب ولكن دون جدوى.

وسّع احد الصبية الحفرة وزحف داخلها، فوجد نفسه قد اصبح داخل كهف وفوق كومة من الحصى؛ اما الآخرون فقد تبعوه على ضوء مشعل كهربائي مستنفد الطاقة مسلطين نوره الضئيل على جدران الكهف. وفجأة صرخ احدهم قائلاً: «انظروا!» مشيراً بيده إلى الجدران، حيث تبين لهم من خلال النور الضئيل رسوم عديدة لأحصنة وابقار وثيران ودببة، رُسمت بألوان الاسود والاحمر والاصفر، وقد غطت جميعها جدران الكهف وكانت ذات جمال اخاذ.

أصبح هذا الكهف الذي تمَّ اكتشافه بفضل روبوت ورفاقه، في يوم من شهر ايلول (سبتمبر) عام ١٩٤٠، اكثرُ كهوف العالم شهرة، وهو لم يكن سوى «كهف لاسكو» الذي قام برسم لوحاته الجميلة رجال من العصر الحجري اي من حوالي خمسة عشر الف سنة.

اعتاد سكان ذلك الكهف على استعمال احجار الصوان في نقش صور الحيوانات التي كانوا يصطادونها. وهم قد حفروا في الارض فوجدوا الحديد الذي استخرجوا منه الوان الاحمر والاصفر والبرتقالي، ووجدوا المنغنيز فاستخلصوا منه اللونين البني الداكن والاسود. ومن ثمَّ كانت تلك الالوان المستخرجة تسحق لتصبح مسحوقاً ناعماً تخلط بعدها بشحم الحيوانات او الماء. كما ان خصلات من الشعر او قطع من الطحلب، او الجلد كانت تقوم مقام فرشاة الرسم.

---

* شذا عدرة: ماجستير في التاريخ الحديث

سكن الرجال الذين قاموا بهذا العمل في كهف لاسكو وفي غيره من الكهوف التي تقع في مقاطعة دوردون في فرنسا، على الرغم من ان العصر الجليدي في تلك الفترة كان قد انحسر عن القارة الاوروبية إلّا انه كان قد تركها تعاني مناخاً قاسياً شديد البرودة. ولكي يعتاشوا قاموا باصطياد الحيوانات البرية كالماموث (الأفيال الضخمة جداً) ووحيد القرن الصوفي ودب الكهف، وجميع تلك الحيوانات قد انقرضت ولم يعد لها وجود في وقتنا الحاضر.

صنع اولئك السكان ادواتهم واسلحتهم من احجار الصوان واشعلوا النار على مدخل الكهف حيث كانوا يطهون طعامهم؛ وصنعوا من اغصان الاشجار والاعشاب الجافة سرائر لهم؛ والتحفوا عند النوم بجلود الحيوانات التي صنعوا منها ايضاً ألبسة يرتدونها خلال النهار. ومن المعتقد ان تلك اللوحات التي رسمها فنانو وصيادو العصر الحجري على جدران كهوفهم، كان لها مدلول آخر غير المدلول التزييني. فمن الممكن انهم كانوا يعتقدون بأنهم إذا صوروا شكل أيَّ حيوان مُصطاد، قد يتحقق لهم هذا الامر في الواقع. ومما يدعم زعم هذه الفكرة بأن الرماح والسهام وجروح الحيوانات كانت تبدو واضحة في الرسوم؛ إلى جانب صعوبة (ندرة) ظهور رسم لاي انسان في لوحات الكهف العصر الحجري الاوروبي. ونفس هذه الفكرة من الممكن ان تطبق على صور الحيوانات الحبالى، من اجل ان يستحثوا الخير والخصب.

وان المرء ليتساءل هل حقق رجال ذلك العصر الحجري، نجاحاً في مضمار الصيد؟ كالنجاح الذي حققوه في ميدان الرسم؟ فلوحاتهم اتصفت جميعها بالحيوية والحركة، وتميز قسم كبير منها بالنظرة التجريدية والابداع والبراعة الفنية التي فاقت الكثير من اعمال الانسان المتحضر الفنية.

وقد افتتحت بعد الحرب العالمية الثانية ابواب كهف لاسكو امام عامة الناس، فأصيب من جرّاء ذلك بنتائج مشؤومة. فهو لم يعد محمياً من رطوبة الهواء التي زادت من انفاس الزائرين الذين كانوا يرتادونه بشكل دائم. فألوان رسومه الحية والغنية اخذت تبهت وتفقد رونقها بعد ان ابتدأ العفن يغطيها.

لـذا من اجل الحدّ من هذا التلف التدريجي للوحات كهف لاسكو كان لا بدَّ من اغلاقه أمام العامة وضبط الهواء فيه علمياً. ولكن ما زلنا نستطيع من خلال الصور الفوتوغرافية والنماذج المجسمة، ان نكوِّن فكرة حية وشاملة عن فناني العصر الحجري قبل أن يصبح المناخ اكثر دفئاً وقبل ان ينطلق رجال الكهوف من أوكارهم إلى حياة العراء، تاركين وراءهم صالتهم الفنية تحت سطح الارض لتُكتشف بعد خمسة عشر الف سنة على ايدي اربعة صبية وكلبهم الصغير روبوت.

■

المصدر:

The World's Greatest Wonders.
A Hamlyn Children's Book
J'ohn Sanders
Encyclopedia of the World in Colour
Printed in Great Britan.



تتجدد في هذه الأيام قراءة سير الشخصيات التي عرفتها المرحلة المسماة «بمرحلة النهضة» في التاريخ العربي المعاصر واعادة القراءة هذه تتجاذبها تيارات ايديولوجية وسياسية حالية هي بدورها حصيلة مكونات الفكر السياسي الذي نشأ مع عملية التعرُّف على أوروبا في اواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. لهذا يصبح تحديد الموقع الاجتماعي - الثقافي الذي تجري من خلاله صياغة الموقف السياسي من أوروبا هو مدخل أي قراءة جدّية لسير تلك الشخصيات التي تركت بصماتها في الفكر السياسي العربي الذي تتكرر اشكالاته حتى الآن. والسيد جمال الدين الأفغاني الذي يتكرر اسمه كمؤسس لاتجاه فكري سياسي اسلامي هو في الواقع رائد لاتجاه لم يُسْتكمل في الفكر الذي أنتج بعده.

ففي حين وقع الفكر العربي بشقيه الليبرالي - العلماني والاسلامي - الاصلاحي في فخ مهادنة الغرب والالتحاق به، باعتبار هذا الأمر مدنية، وعلماً، وديمقراطية... لم يغب عن جمال الدين الأفغاني أن الوجه الغالب للغرب في علاقته بالخارج هو وجه الاستعمار والتوسع والقهر، وأن أي مهادنة له يعني الاستسلام لهذا الجانب، أي الوقوع تحت الاحتلال. لذلك دعا إلى المقاومة، ووحدة الشعوب الاسلامية واستنهاض الاسلام للوقوف في وجه المخاطر التي تتهدد الشرق الاسلامي كافة.. ولم تقف دعوته للمقاومة عند حدود التنبيه للخطر الثقافي، بل تنبّه الى خطر الاستثمارات الأجنبية على ثروات البلاد الوطنية (فتوى الشيرازي ضد امتياز شركة التنباك في ايران بتحريض من جمال الدين).

هذا في وقت كان الاصلاحيون ينظرون باعجاب الى مدنية الغرب، ويفصلون بين ما هو اقتصادي وسياسي. ويعتبرون الاستثمارات الأجنبية ثروة للشرق.

كذلك ربط جمال الدين نضاله ضد المستعمر بنضاله ضد الاستبداد الداخلي، وقهر الشعب من الداخل (التحريض لاغتيال الشاه: خذها من جمال الدين)... والخلاصة ان استعادة سيرة جمال الدين من هذا الموقع، وبقلم الأمير شكيب أرسلان الذي احتفظ من جمال الدين بهذه الصفة النضالية، هي من قبيل اعادة قراءة لوثيقة مهمة وغنية من التاريخ العربي المعاصر.

د. وجيه كوثراني

المرجع - حاضر العالم الاسلامي، تاليف لوثروب ستودارد ترجمة عجاج نويهض يضم نصوصاً عن أحوال الأمم للأمير شكيب ارسلان - القاهرة ١٣٥٢هـ -

الأمير شكيب ارسلان

الأفغاني

فيلسوف الاسلام، وعلم الأعلام، وكوكب الاصلاح، الذي أطلعه الله في أفق المشرق بعد أن اشتد به الظلام، حجة الشرق الناهضة، وآية الحق الباهرة، الذي قال عنه ارنست رنان، الفيلسوف الفرنسي المشهور بعد أن عرفه: «كنت أتمثل أمامي عندما كنت أخاطبه ابن سينا، أو ابن رشد، أو واحداً من أساطين الحكمة الشرقيين». قد بلغ من شهرته، واللهجة بذكره، والضراوة بعبقريته ولا سيما بمصر والشام، وسائر البلاد العربية، أن ترجمة حاله تكاد تكون أحدوثة الجميع، فلا حاجة إلى الاطالة بجميع تفاصيلها، ولا الى الاحاطة بغررها وحجولها، قصارى ما في الأمر ان هناك حوادث لم تكتب الى اليوم، وأن الروايات تضاربت في أمرين أحدهما، هل هو أفغاني مولود في أفغانستان، أم فيلسوف مولود في همذان كما زعم بعضهم، والثاني، هل هو فيلسوف الهي أم مسلم، أم فيلسوف مادي معطل. وعلى الأمر الأول نقول: ان كل من عرفوا السيد جمال الدين علموا منه أنه من افغانستان، وانه من سادات كنر الحسينية المشهورين في تلك الديار، ووالده السيد صفتر وكان مولده في اسد آباد بقرب كنر سنة ١٢٥٤ هجرية وفق ١٨٣٨ ميلادية وكذلك عرّف به كبير تلامیذه، الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده، مفتي الديار المصرية، في صدر رسالة الدهريين تأليف السيد جمال الدين؛ وقد لقيت في المدينة المنورة قبل الحرب العامة بأشهر السيد حسيناً أحد ولاة افغانستان، ومن سادات كنر المشار إليهم، ومن أفاضلهم، وعلمت منه ان السيد جمال الدين رحمه الله هو منهم، كما اني سمعت ذلك من جميع رجال الدولة الأفغانية وسفرائها، الذين جمعتنا بهم التقادير في اوربا بعد تأسيس سفاراتهم بها، فلا أعلم كيف تتفق كل هذه الروايات من أهل تلك الديار، على كون المترجم له أفغاني الدار علوياً حسنياً، من أسرة نسبتهم كالشمس، ومقامهم في بلاد الأفغان أشهر من أن ينوه به، ويكون في الحقيقة من همذان ومولوداً بها؟ ونقول على الثاني: ان الأستاذ الشيخ محمد عبده تعرض إلى ادحاض هذه التهمة أكثر من مرة وعرب من الفارسية وبمساعدة عارف افندي ابي تراب الأفغاني رسالة «النيتشريين» أي الطبيعيين التي يرد فيها السيد جمال الدين على الملحدة والمعطلة، ويقيم العقيدة الالهية على أساطين المنطق، والحكمة العقلية، ويثبت صحة الوحي، وينتهي إلى ايضاح البراهين المحمدية، كل ذلك بملكة قل أن تتاح قوتها لفيلسوف غيره، ولكن بعض الناس - ولا سيما العلماء الحشوية - أبوْا أن يروا في الفلاسفة إلا ملحدين ومعطلين، ومن هذا جاء قولهم العامي: من تمنطق تزندق. وبمثل هذه المبادىء السخيفة والكلمات المحزنة، أضلوا العوام، ووضعوا عقائدهم في خصومة دائمة مع الحقائق العلمية، وجنوا على الاسلام جناية كبرى ظهر أثرها في الانحطاط السياسي والاجتماعي، الذي نراه عليه الآن. وإذا قام مصلح أو مجدد يتكلم باسم الحكمة والعلوم العالية، ويحث على النظر، وينهى عن التقليد، ويبين مضار الجمود، كان أول ما يتسرعون إليه رميه بالزندقة، واتهامه بوهن العقيدة. وقد يصادف ذلك هوى في أفئدة من يميلون إلى التعطيل فعلاً، فيلقفون ما يسمعونه من هذا القبيل بدون تثبت، ويسارعون إلى اذاعته بين الناس، لأن من أحب شيئاً أحب أن يرى كبار الرجال شركاء له فيه، ولهذا صدر الأستاذ الشيخ محمد عبده رسالة الدهريين، التي

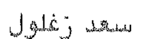
* شكيب ارسلان: (١٨٦٩-١٩٤٦) اديب ومؤرخ لبناني، عضو في الجمعية الآسيوية والمجمع العلمي في دمشق.

أسلفنا ذكرها، بمقدمة في ترجمة حال السيد جمال الدين قال فيها تقريباً ما يأتي: «يحملنا على ذكر شيء من سيرة هذا الرجل ما نراه من اختلاف آراء الناس في أمره، وتضارب أقوالهم في حقيقة حاله، حتى كأنه قوة روحية قامت في كل ذهن بما يلائمه، أو حقيقة كلية نزلت في كل عقل بشكل يشاكله، والرجل على صفاء جوهره، وزكاء مخبره لم يتناوله وضع الوضاعين، ولا حزر الخرّاصين الخ». ثم شرع بترجمته على الوجه الصحيح، الذي هو أدرى به من كل مترجم غيره، بمكانه من خلطة السيد الاستاذ، وما له به من تمام الخبرة، ومعه من طول العشرة. فذكر نسبه، وحسبه، ومولده، ومنشأه، ورحلته، ومذهبه في السياسة، ومذهبه في الفقه، وقال في هذا: «انه حنفي مع ميل إلى مشرب السادة الصوفية، رضي الله عنهم». وذكر عن مذهبه السياسي أنه كان جلّ اجتهاده، في أن يرى إحدى الدول الاسلامية، في صف كبريات الدول الأوروبية. وأطال في وصف مواهبه العقلية، وقدرته العلمية، إلى ان قال: «وبالجملة فلو قلنا ان ما أوتيه من الذكاء، هو أقصى ما قدّر لغير الأنبياء، لكنا غير مبالغين». ووصف شمائله الباهرة، وأخلاقه العظيمة، وهممه العالية، وشجاعته التي لا تعرف للموت معنى، وعدم مبالاته بالدنيا، وانتهى إلى قوله فيما أتذكر: «وهوحليم يسع حلمه ما شاء الله أن يسع، الى أن يدنو أحد ليمس دينه، أو شرفه، فينقلب الى غضب، تنقض منه الشهب، فبينما هو حليم أواب، اذا هو أسد وثاب». قلت وسترى عاقبة غضبه عندما أهانه الشاه ناصر الدين ملك العجم، والصورة الفجيعة التي انتهى بها ذلك الخلاف، مما سنرويه لك في آخر هذه الترجمة.

وقد اتفق أرباب النظر في هذا العصر، على أن قدوم السيد جمال الدين الأفغاني الى مصر كان مبدأ الحركة الفكرية، التي بدأت في البلاد العربية وسائر الشرق الأدنى، ولم تزل تنمو إلى الآن، رامية الى تحقق الشرق بالمعارف التي ساد بها الغرب، ورفع سيطرة هذا عن ذاك، واعادة الشرق سيرته الأولى من الرقي. ولم يقرأ السيد جمال الدين على أحد بالأزهر، ولكنه كانت له حلقة خاصة في منزله انتظم فيها عدد من أدباء القطر، يستفيضون بحر حكمته ويستمطرون صوب صوابه، اشتهر منهم الشيخ محمد عبده، والشيخ عبد الكريم سلمان، وابراهيم افندي اللقاني، والسيد وفا القوني، وسعد باشا زغلول، الذي قيل لي انه أدرك أخريات أيام السيد بمصر، ولازمه قلة من أدباء الشام، النازلين بمصر مثل أديب اسحاق، وسليم النقاش، وسعيد البستاني، وغيرهم واندفع مريدوه وحملة علمه، يكتبون ويخطبون وينثرون على الملأ ماالتقطوه من فوائده، وانتظموه من فرائده، وكان ذلك لساناً عالياً لا عهد للناس بأمثاله، وأسلوباً راقياً انقطعت منذ قرون عديدة نسبة رجاله، فأحدث في الأمة حركة أفكار لم تكن من قبله، ونفخ فيها روحاً سرية ظهر عليها طابع عرفانه وفضله، فنشطت همم واستجدت عزائم، وهبت قوى وفاضت قرائح.

وقال الشيخ محمد عبده في وصف تلك الحركة ما يأتي تقريباً: – لأن نص كلامه ليس بيدي الآن – فاستنارت الألباب، واستضاءت البصائر، وانحلت عقل الأوهام عن قوائم العقول. إلى أن قال أنه لم يكن بمصر للكتابة قبل جمال الدين شأن يذكر، ولم يكن يعرف من الكتاب سوى عبد الله باشا فكري، وخيري باشا، وفلان على ضعف فيه؛ وفلان على اختصاص فيه، وبقية من بقيفإماساجعون في المراسلات الخاصة، وإما مؤلفون في بعض الكتب الأدبية الخ، ولم تكن الثورة التي أحدثها السيد جمال الدين في السياسة بأقل منها في المعارف، ولعمري هاتان توأمان، فقلما انتشر العلم في مكان الا هتف بالحرية. وأول أثر ظهر لجمال الدين في ميدان السياسة، هو الحركة التي هبت في أواخر أيام الخديوي اسماعيل باشا وآلت الى خلعه من الخديوية، وكان للسيد اليد الطولى فيها ولما جلس توفيق باشا على كرسي مصر شكر لجمال الدين مساعيه، لكن لم يطل الأمر حتى دبت عقارب السعاية في حقه، وجاء من دس الى الخدوي الجديد أن السيد لن يقف عند هذا الحد، وقد تحدثه نفسه بثورة ثانية، وباقامة حكم جمهوري وما أشبه ذلك، مما لا يعي تنميقه السعاة والمتملقون، فصدر الأمر فجأة بنفي جمال الدين وأخرج الى





السويس، ومنها ذهب الى الهند، ولم يدخل بعدها مصر. وجرت الحركة العرابية في غيابه، واحتل الانكليز مصر. ومما لا مراء فيه أن المبدأ الوطني، الذي رأس تلك الحركة كان من زرعه هو، وإن كان هب علي ذلك الزرع، من سموم الجهل ونقصان التربية السياسية، ولفحه من الدسائس الأجنبية ما صوح نضرته، وأذهب ثمرته، شأن تلك الدسائس على كل نهضة تحديث في الشرق أو حركة اصلاح تشفق من ورائها الدول أن تتمزق حجب الغباوة التي هي أصدق عوامل الاستعمار إلا أن ذلك الزرع لم تذهب بذرته من الأرض، وعاد فأخرج شطأه، وما زال ينمو حتى استوى على سوقه، يعجب جمال الدين لو عاش الى اليوم، ويغتاظ به الذين لا يبرحون مماطلين في الجلاء عن مصر..

تنقله بين بلاد اوروبا.. وايران:

وفي سنة ١٨٨٥ ذهب جمال الدين الى اوروبا، وأول مدينة صعد اليها لندرة ثم تحول منها الى باريز حيث وافاه الشيخ محمد عبده أكبر تلاميذه، وأكمل وعاة علومه، فأصدرا فيها «العروة الوثقى» التي بلغت من إيقاظ الشرق وهز أعصاب العالم الاسلامي، ما لم تبلغه صحيفة سيارة قبلها، ولا بعدها، ولكن لم يسعفهما الوقت أن يصدرا منها إلا بضعة عشر عدداً، فعاد الشيخ محمد عبده الى بيروت حيث كان منفاه على أثر الحادثة العرابية، وبقي جمال الدين في أوروبا يجول في مدنها ويثافن أهل العلم فيها الى أن تلاقى بالشاه ناصر الدين صاحب فارس بلغني أنهما تصادفا في منيخ عاصمة بافاريه، فدعاه الشاه أن يكون بمعيته لما شاهده من وفرة علمه وفضله، وتقدم اليه في الذهاب معه الى طهران؛ فلبى السيد دعوته، وأكرم الشاه نزله في عاصمة فارس، وما زال في علياء عنده، حتى نفس عليه الحساد منزلته هذه لدى الشاه، ولما كان السيد جمال الدين لا يكتم فكره، ولا يحتاط من قوة نفسه، أن يجهر بكل ما يجيش به صدره. وكان بعد ذا وذا يجد في ادارة أحكام العجم، مالا يطيق عليه صبراً أقل منه بكثير، في الهمة، واباء الضيم، وصحة الوجدان فما ظنك برجل نظيره. لم يصعب على أولئك المفسدين، أن يحكموا الوشاية، ويوقعوا العداوة بينه وبين الشاه حتى انتهى الأمر باعتقاله وحبسه، ثم باخراجه مهاناً من فارس الى بغداد، حيث خاطب المجتهد الكبير، ميرزا محمد حسن

الشيرازي رأس الشيعة في وقته بكتاب شهير، عدد فيه مساوىء الشاه، واستيلاء العته على عقله، وشرح فيه مضرة امتياز شركة التنباك، الذي يقضي باستئثار الأجانب بأهم محصول بلاد العجم، فكان هذا النداء، من أعظم أسباب الفتوى التي أفتاها ذلك الامام ببطلان هذا الامتياز، واضطرت الحكومة الفارسية خوف انتقاض العامة الى الغائه. ولكن السيد جمال الدين لم يشف غليله بهذه الحركة وحدها، وأخذ يعاكس الشاه وحكومته بكل وسيلة وكان كلما تذكر اهانة الشاه له، وبين جنبيه تلك النفس العظيمة، التي لو قلنا أن أنفس الملوك في جنبها تعد أنفس سوقة، لكنا غير مغالين هاج به هائج الانتقام، ونقصد الأخذ بالثأر، لا سيما أنه كان رأى بعينه في ايران، من آثار الاستبداد والظلم وفجائع العسف والغشم وذهاب مصالح الأمة العامة في سبيل اهواء افراد، وشهوات آحاد، ما مكن في خلده فكرة العمل لقلع الشاه من مركزه. وصادف بعد ذلك أنه ذهب الى لندرة مرة ثانية، فحرر في مجلة سماها «ضياء الخافقين» مقالات على أحوال فارس تقيم وتقعد، وكان السلطان عبد الحميد قد دعا السيد جمال الدين الى الاستانة وذلك في سنة ١٨٩٢ فجاءها وكانت هذه المرة الثانية لدخوله هذه العاصمة. إذ كان قد عرف الأستانة مرة قبلها في زمن السلطان عبدالعزيز هذا ولما كانت سبقت لمحرر هذه السطور معه مراسلات بواسطة أستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبده كان أول من سألت عنهم عند سفري الأول الى أوروبا سنة ١٨٩٢ المذكورة، هو المرحوم السيد جمال الدين فقيل لي انه قصد الاستانة وأظهر لي التخوف على مصيره في الاستانة هنري روشفور، الكاتب الفرنسي الشهير، الذي عرفته وهو منفي بلندرة. وكان روشفور يحب السيد جمال الدين ويحترمه، وقد وصفه في كتابه «ما جريات حياتي» بقوله هكذا على أسلوبه الخاص به في الكتابة:

«السيد جمال الدين الأفغاني من سلالة النبي، والمعدود هو أيضاً أنه أشبه بنبي» ثم قال:

«انني شعرت نحو هذا الرجل بعاطفة الحب التي أجدها تربطني بكل داع الى ثورة أو مقاوم لسلطة».

اقامته في الاستانة ووفاته:

ولما ورد السيد جمال الدين الاستانة أنزله السلطان منزلاً كريماً، في دار ضيافة خصه بها في نشان طاش، وأجرى عليه الأرزاق الوافرة، وكان يدخل على السلطان ويصلي صلاة الجمعة معه. ومضت مدة وجمال الدين حظيّ عند أمير المؤمنين، لا خوف عليه ولا هو يحزن وكان الجو لم يسفر بينه وبين السيد أبي الهدى الصيادي فنسأ ذلك أجل القصص بحقه الى السلطان، وإنما كانت تلك فترة لا يعبأ بها، إذ ما عتم الأستاذ الصيادي أن وجه حملاته عند مولاه؛ واندفع يتهم جمال الدين بالكفر والزندقة، كما هو ديدن هؤلاء في شأن كل من أرادوا تنقصه من الحكماء. وقد اطلعت على نشرة من جانب السيد أبي الهدى تتناول ثلاثة من أعدائه وهم السيد فضل العلوي الحضرمي أمير ظفار، والشيخ ظافر المدني الطرابلسي شيخ الطريقة الشاذلية، والسيد جمال الدين الأفغاني، وثلاثتهم كانوا من المقربين الى السلطان، وكان لكل منهم نصيب وافر من الشتم والوقيعة في هذه النشرة، وحصة السيد جمال الدين كانت تهمة الالحاد وفساد الاعتقاد. ومن جملة الشواهد على ذلك كونه قال مرة: «أنا أطوف بأشجار البندلر طواف الحجيج بالكعبة». والبندلر هي السدود بالتركية وذلك أنه يوجد محل نزهة بظاهر الاستانة قد سد السلاطين العظام فيه أودية بحيث تكونت منها بحيرات لسقيا العاصمة، وقد أحاطت بتلك البرك غابات ملتفة بديعة، فغاية ما يقال ان جمال الدين عبر عن نزاهة ذلك المكان بعبارة شعرية، فاستخرج منها أبو الهدى الحاداً وكفراً. وكان جواسيس السلطان يحصون عليه جميع حركاته وسكناته، ليقدموا ذلك الى السلطان، فما يروى أنه كان هو وعبد الله نديم الكاتب المصري المشهور في متنزه «الكاغد خانه» فصادفا الجناب الخديوي عباس حلمي، وسلم بعضهم على بعض، وتحادثوا نحو ربع ساعة تحت شجرة هناك، فيقال ان السيد أبا الهدى قدم تقريراً للسلطان



اسطمبول

بأن جمال الدين وعبد الله نديم تواعدا مع الخديوي على الاجتماع في الكاغد خانه. وهناك عند الاجتماع بايعاه تحت الشجرة. لكن السلطان بحسب قول جمال الدين لم يحفل بهذه الوشاية. ولكن هذا الخلاف مع أبي الهدى لم يزعزع مكانة جمال الدين من السلطان وربما زاده لديه زلفى، وإنما أدى إلى وحشة الخليفة منه، استمراره في مجالسه التي كانت تنتابها الناس دائماً على القدح في شاه العجم مما حمل سفير ايران على رفع الشكوى الى السلطان، فاستدعى السلطان اليه السيد جمال الدين وقال له: «إن سفير العجم ترجاني ان أتكلم معك في الكف عن الوقيعة في الشاه وأنا بناء على أملي فيك وعدته بأنك تكف عنه» وقد روى لي السيد رحمه الله هذه القصة عندما رجعت من أوروبا الى الاستانة في أواخر سنة ١٨٩٢. فقال لي هكذا بالحرف: «فقلت للسلطان ما كنت ناويا أن أترك شاه العجم حتى أنزله في قبره، ولكن بعد أن أمر أمير المؤمنين بالكف عنه، فلا بد من طاعته». بمثل هذا كان المترجم يخاطب الملوك ولا يبالي عن موقع مثل هذا الكلام منهم، مع ان أشدهم حذراً ووسواساً كان السلطان عبد الحميد، فلا عجب ان وقع في نفسه شيء منه. ولكن ليت السيد كف بالفعل عن أذى الشاه، إذ لم يلبث ان عاوده الغضب الذي هو العيب الذي عوذ الله به حسناته العديدة، والذي جرّ عليه كثيراً من المصائب، حتى قال الشيخ محمد عبده في وصفه: «وكثيراً ما هدمت الحدة ما رفعته الفطنة». ففي أحد الأيام قدم على جمال الدين رجل من العجم، بابيّ المذهب، اسمه رضا آقاخان، صادف انه وجد مع جمال الدين في حبس واحد في قزوين عندما اعتقله الشاه، فحصلت بينهما صحبة أكيدة ثم تفارقا عندما أخرج جمال الدين من

الحبس ونفي الى بغداد ثم أخلي سبيل رضا آقا هذا، ولما بلغه مجيىء السيد الى الاستانة جاء يزوره فيها، فسر به السيد كثيراً، وكان دائماً يحادثه ويتكلمان عن شقاء الأمة الايرانية بسوء ارادة سلطانها ناصر الدين. فقال رضا آقاخان يوماً انه هو حاضر أن يفدي نفسه لتخليص أمته فقال له جمال الدين: «ان كان كذلك فاذهب وافعل» فذهب رضا آقاخان، وبعد أشهر بينما ناصر الدين شاه في جامع عبد العظيم في طهران إذ دنا منه هذا الرجل وقتله غيلة وقال لـه: «بدى از جمال الدين» أي خذها من يد جمال الدين ووردت الأخبار الى الاستانة وحدث بها الناس كما لا يخفى، فأبدى السيد جمال الدين مزيد سروره بهذا الخبـر وشرع يقـول: «قد تحقق الآن أن الأمة الفارسية لم تمت وانها أمة لم تنقطع منها الآمال، لأن الأمة التي يقوم من أبنائها من يأخذ بثارها ويفتك بالطاغي الذي على رأسها، لا تكون قد فقدت جراثيم الحياة». وكلاماً من هذا القبيل كان يردده. ثم لما ورده عدد من مجلة «الايلوستراسيون» التصويـرية الفرنسية، وفيها صورة القاتل رضـا آقاخـان مصلوباً معلقاً، والناس ينظرون من حوله هتف: «علو في الحياة وفي الممات. وقال: انظروا كيف علقوه عالياً حتى يكون ذلك رمزاً الى أنهم كلهم كانوا من دونه». وكان الجواسيس ينقلون الى السلطان كل كلمة يفوه بها السيد، فلم يشك عبد الحميد في كون قتل الشاه كان بسبب جمال الدين، وانه ما زال وراء الشاه حتى «أنزله في قبره» كما قال. ومن الغريب ان الشاه بعد أن خلى سراح جمال الدين، وذهب هذا الى أوروبا بلغ الشاه ان المتـرجم كان يسعى في تـدبير مكيدة مع بعض الايـرانيين، لخلـع الشاه او لقتله، فندم جداً على افلاته، ويقال انه هو الذي بعث الى السلطـان عبد الحميـد يرجـو منـه استقـدام جمـال الـدين اليـه، ووضعـه تحت المراقبة أماناً من شر غوائله، فاستقدمه السلطان بكتاب من قلم أبي الهدى. ولما ورد الاستانة أمر بالمبالغة في برّه واكرامه، ليلهيه عن عداوة شاه العجم، فكان مع ذلك ما كان، ولا يمنع حذر من قدر. فلما تحقق السلطان كيفية قتل الشاه غضب غضباً شـديداً. وأمـر بتشديـد المراقبة على المترجم ومنع أي أحد من الاختلاط به الا بارادة سلطانية، فأصبح السيد في قصره محبوساً. وكانت الحكومة الايرانية شرعت في تحقيق حادثة القتل فثبت لديها اغراء جمـال الدين لرضـا آقاخـان بالاشتـراك مع شخص فارسي آخر اسمه رضا آقاخان أيضاً، وشخص بغدادي اسمه الشيخ ابراهيم. فطلبت الدولة الايـرانية من البـاب العـالي تسليمهـا هؤلاء الثلاثة، فالسلطان عبد الحميد ابى تسليم جمال الـدين، ولكن الشخصين الآخـرين بلغني انه جـرى تسليمهمـا وقتـلا في ايـران بحجـة اشتراكهما بالمؤامرة. ثم ان التضييق بلغ حده عـلى المترجم حتى أرسـل الى فيس مـوريس مستشار سفارة انكلترة يلتمس منه ايصاله الى باخرة يخرج بها من الاستـانة، فحضر فيس موريس اليه وتعهد له بما طلب، وإذ ذاك بلغ السلطـان الخبر، فـأرسل اليـه أحد حجـابه يستعطف خاطره باسم الاسلام أن لا يـرضى بمس كرامة الخليفة الى هذا الحد، ولا يلتمس حماية أجنبية. فثارت في أنفه حمية الاسلام، وبعـد أن كان زمّ حقـائبه للسفـر قال لفيس موريس انه عدل عن السفر، ومهما كان فليكن. ولكن المراقبة عليه كانت لم تزل باقية، وكل من أراد أن يشاهده فلا بد له من اذن خاص. وبعد أشهر من هذه الحادثة ظهر في حنكه مـرض السرطان واشتد عليه، فصدرت الارادة السنية باجراء عملية جراحية يتولاها قمبورزاده اسكندر باشا، كبير جراحي القصر السلطاني، وكان هذا مقرباً جداً الى الحضرة السلطانية، فأجرى له العملية فلم تنجح، وما لبث الا أياماً قلائل حتى فاضت روحه رحمه الله وعفا عنه. وهنا تقوّل الناس أشكالاً وألواناً في قضية هذا السرطان وهذه العملية الجـراحية، لقـرب عهد المـرض بحادثة قتل الشاه، وما كان معروفاً من وساوس عبد الحميد. فقيـل ان العملية الجـراحية لم تعمل على الوجه اللازم لها عمداً، وقيل لم تلحق بالتطهيرات الـواجبة فنـا: بحيث انتهت بموت المـريض. وحدثني صـديقي الكـونـت لاون أوستروروغ، المستشرق العلامة، مترجم كتاب الأحكام السلطانية للماوردي، وحديثه هذا كان لي في هذه الأيام الأخيرة في لوزان (شهر يناير

السلطان عبد الحميد



سنة ١٩٢٣)، أن المترجم كان صديقه فدعاه اليه بعد اجراء العملية الجراحية وقال له، ان السلطان أبى ان يتولى العملية الا جراحه الخاص، وانه هو رأى حاله ازدادت شدة بعد العملية، فيرجو منه ان يرسل اليه جراحاً فرنساوياً، مستقل الفكر، طاهر الذمة، لينظر في عقب العملية. فأرسل اليه الدكتور لاردي، وهو رجل لا يزال حيا واقامته بجنيف من سويسرة، فوجد ان العملية لم تجر على وجهها، ولم تعقبها التطهيرات اللازمة، وان المريض قد أشفى بسبب ذلك، وعاد الى أستروروغ، وأنبأه بهذا الأمر المحزن، وما مضت أيام حتى فارق جمال الدين الحياة. وقال لي واحد ممن كانوا في خدمة عبد الحميد وقد رويت له هذه القصة: أن قمبور زاده اسكندر باشا كان أطهر وأشرف من ان يرتكب مثل تلك الدناءة، ولكن كان رجل عراقي اسمه جارح طبيب اسنان يتردد كثيراً على جمال الدين ويعاين له أسنانه. وكانت نظارة الضابطة قد استمالت جارح هذا بالدراهم وجعلته جاسوساً على المترجم، فصار له عدواً في ثياب صديق. قال لي صاحب هذه الرواية: فأردت مرة أن أمنع جارحاً من الاختلاط بجمال الدين فأشار الي ناظر الضابطة اشارة خفية بأن أتركه، وفهمت من الاشارة انه يذهب الى هناك ويطبب أسنان السيد بعلم من النظارة والسيد لا يعلم بشيء من ذلك، ويستخلص جارحاً ويثق به. قال فلا اعلم ماذا فعل جارح بواسطة طبه وثقة جمال الدين به؛ قصارى ما أعلم انه لم تمض عدة أشهر على حادثة الشاه، حتى ظهر السرطان في فك السيد من الداخل، وأجريت له عملية جراحية فلم تنجح، وجارح هذا ملازم للمريض. وبعد موته كنا نراه دائماً حزيناً، كئيباً، كاسف البال، واجم الوجه، خزيان، مما جعلنا نشتبه ان يكون ذا يد في افساد الجرح بعد العملية، أو في توليد المرض نفسه من قبل بوسيلة من الوسائل، فلما مات السيد أخذ يعذبه وجدانه على خيانته هذا الرجل العظيم، الذي كان وثق به. قال ولا أجزم

بكونه هكذا فعل، ولكنني أجزم بأنه كان جاسوساً على السيد والله من وراء العلم. وكانت وفاته رحمه الله في ٩ آذار سنة ١٨٩٧ وصلى عليه في جامع التشويقية في نشان طاش، ودفن في مقبرة على مقربة منه. ولي في جريدة الاهرام يومئذ مقالة بين يدي فقده ليست في يدي الآن لمراجعة تاريخها.

ذكرياتي معه:

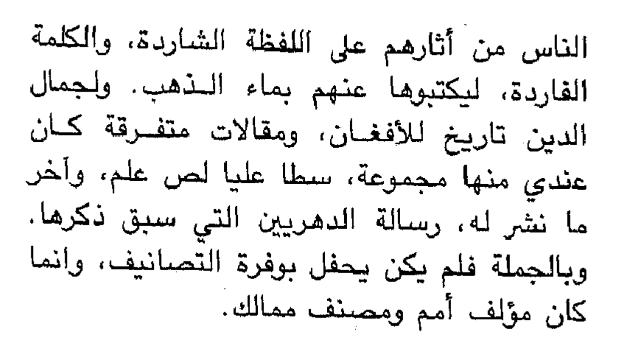
واذكر اني لما عدت من أوروبا الى الاستانة سنة ١٨٩٢، ذهبت اليه في نهار وصولي، فاستقبلني براً وترحيباً ولزمته تلك المدة الى ان اضطررت الى السفر الى وطني سورية، ففارقته آسفاً وأنا أمني نفسي بالعودة الى الاستانة، لمشاهدته والاستفادة منه. وسألني مرة عما شاهدته في أوروبا وأي نتيجة استخلصتها من حال أولئك القوم، لأنه كان فيلسوفاً تاما لا يرى الجزئيات الا من خلال الكليات، فلما اردت أن أبدي له ما يعن لي في هذا الباب، وكنت يومئذ في أول شبابي لم أجاوز الثانية والعشرين من العمر، غلبتني مهابة حكمته وخشيت ان لا أصيب المحز، فتحوطت لكلامي بشيء من انكار النفس واستكبار أنْ يكون مثلي ممن يجوز أن يتكلم بحضرة مثله، فما رأيته الا نهض وأمسك بيديّ وهتف قائلاً: «أنا أهنىء أرض الاسلام التي أنبتتك». فسمع الناس هذه الجملة وما زالوا يتناقلونها، وما اخاله قصد بها الا الجذب بضبعيّ الى الأمام، وجبر ما نقص من قوتي المعنوية. وحكيت له مرة أن احدى جرائد امريكا بحثت في موضوع اكتشاف تلك القارة، فقالت يروى ان العرب خاضوا الاوقيانوس الاطلانتيكي ناشدين البر الذي وراءه، وسالت هل عند مؤلفي العرب شيء من هذا الخبر، فعربت ذلك جريدة النشرة الاسبوعية في بيروت، وألقت السؤال نفسه على علماء العرب وكنت في باريز، فلما اطلعت على القضية لبيت ذلك النداء وراجعت في المكتبة الوطنية كتب الشريف الادريسي الجغرافي العربي الشهير، ونقلت من كتابه نزهة المشتاق الى اختراق الآفاق، خبر الاخوة المغرورين، الذين ركبوا سفينة من لشبونة وجعلوا فيها كل ما يلزمهم من الزاد والماء، وخاضوا بها بحر الظلمات الى الغرب حتى وصلوا بعد مسيرة شهر الى جزيرة خالية لم يجدوا بها الا الوحوش، فركبوا البحر متجهين الى الجنوب، وبعد نحو شهر أيضاً نزلوا بجزيرة فيها أناس وملك يحكم عليهم، فقفلوا من عنده متجهين شرقاً، حتى نفذوا بعد مدة الى مرسى اسفي بالمغرب الأقصى. فلما أكملت له الرواية و أني حررتها جواباً على النشرة الأسبوعية، وقد أثرتها عنها جميع الجرائد، التفت الي قائلاً: «لا أريد أن أسّر المسلمين بكلمة. هؤلاء قوم كلما قال لهم الانسان: كونوا بني آدم. أجابوه: إن آباءنا من الربعة، لا ينفي ما هم عليه اليوم من الخمول والضعة. قال: إن الانسان إذا بنى قصراً مستوفياً جميع شروط البهاء والنيقة، ولم يفته فيه شيء من الرفاهة والفراهة، فهو يفكر حينئذ بأن يأتي الى قصره بالرياش الفلاني النادر من القطر الفلاني، ويكمل زينة قصره بالآنية الفلانية التي لا يملكها الا القليلون، وأن يجعل في حديقة القصر هذه الزهرة البديعة وتلك الريحانة العجيبة. فأما وهو قصر متداع الى السقوط، والجص نازل الى الأرض، والسقوف قد هوت من كل جانب، وهو لا يقدر على ترميمها، فهل يخطر بباله أن يأتي لاكمال زينة قصره بهذه الآنية، وتلك الزهرة، وهاتيك الديباجة، كلا، لعمري ان من أعوزته الضروريات، لا حاجة به الى الكماليات». قال لي: «وأنا لا اقول لك ان الشرقيين قد أصبحوا بهذه المثابة، وهي كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر، قالوا: أفلا ترون كيف كان آباؤنا؟ نعم قد كان آباؤكم رجالا، ولكنكم أنتم أولاء كما أنتم. فلا يليق بكم أن تتذكروا مفاخر آبائكم الا أن تفعلوا فعلهم». وكأنه ينظر بهذا الى قول القائل:

نبني كما كانت أوائلنا
تبني ونفعل مثلما فعلوا

وكان من شدة ما يجد من الألم لحال الاسلام، تخطر له خواطر نادرة في هذا الموضوع، فقال لي احدى المرار: «قد فسدت اخلاق المسلمين الى حد ان لا أمل بأن يصلحوا، الا بأن ينشأوا خلقاً جديداً، وجيلاً

مستأنفاً، فحبذا لو لم يبق منهم، الا كل من هو دون الثانية عشرة من العمر، فعند ذلك يتلقون تربية جديدة تسير بهم في طريق السلامة». وقال لي نوبة اخرى: «لم يبق في الاسلام أخلاق، فهذا محمود سامي (البارودي الشاعر الكبير، رئيس النظار أثناء حرب عرابي) عاهدني ثم نكث معي، وهو أفضل من عرفت من المسلمين». وقال لي أيضاً: «ان المسلمين قد سقطت هممهم، ونامت عزائمهم، وماتت خواطرهم، وقام شيء واحد فيهم وهو شهواتهم». وكان يندد هذا التنديد كله لما كان فيه من الوجد لاسترداد الاسلام مجده القديم، ولما كان يراه من غفلة المسلمين عن الأخذ بأسباب الرقي ومن السبات العميق الذي أمعنوا فيه، على حين صاح صائح الجد بسائر الأمم هيا على الفلاح. ومن قرأ مجموعة العروة الوثقى التي كانت ترجمان أفكاره، بقلم تلميذه الشيخ محمد عبده رأى انه أنبأ منذ أربعين سنة بما سيؤول اليه حال الاسلام، وما ستكون معه سياسة الدول المستعمرة، مما تحقق كله فيما بعد، حتى كأنه كان ينظر الى الحوادث المستقبلة في مرآة. وكان في أطوار حياته، فيلسوفاً كاملاً، عالماً عاملاً، فلا يقول ما لا يفعل ولا يكتفي من الحكمة بالنظر دون العمل، كما هو شأن كثير من العلماء الحفاظين الذين قلوبهم في واد وألسنتهم في واد. فكان يفطم نفسه عن الشهوات، ولا يرى من اللذات الا اللذة العقلية العالية. وقد حاول السلطان عبد الحميد أن يعلق قلبه بالمال والبنين، ويشغله بزينة الدنيا وراوده على الزواج، فأبى وأعرض، وقال له: قضيت حياتي مثل الطير على الغصن، فلا أريد في آخر أيامي ان أتعلق بعائلة. وكنت سامراً مرة عنده وعنّ هذا الموضوع، فقال له أحد الدمشقيين: يا مولاي لماذا لا تتأهلون ويكون لكم الذرية الصالحة؟ فلم يعجبه قوله، ولما انصرف الرجل أقبل عليّ السيد وقال «لم تدخل روح الفلسفة في هذه الأمة». وليس مراده بذلك التزهيد في الزواج، وانما تقرير حقيقة وهي أن الفلسفة لا تبالي بالنسل والذرية، وأن الفلاسفة قلوبهم في شغل شاغل عن ذلك، وكان ينظر الى المال نظره الى التراب فلا يدّخره، ولا يعرف معنى تثميره، ولا يتناول منه الا ما هو ضروري للحياة. ولما كان في الاستانة، كان عنده قهرمان هو الذي بيده الحساب والقبض والصرف، أما هو فلا يدري من ذلك شيئاً، وحاول السلطان أن يعطيه رتبة علمية كرتبة قاضي عسكر مثلاً، فأبى أن يقبل الرتبة، وأن يلبس كسوتها المزركشة بالقصب، وكذلك رفض قبول الوسام مهما كان عالياً، فسألته عن ذلك فقال: أأكون كالبغل يحمل على صدره الجلاجل؟ وبالجملة فلم يكن يؤخذ لا رغبة ولا رهبة، أما الرغبة فقد كان راغباً عن الدنيا بحذافيرها عيوفا عن زينتها معرضا عن زخرفها كما مرّ بك. واما الرهبة فلم يكن يعرف الخوف الى قلبه سبيلاً، وفيما سردنا لك من قصصه ما فيه مقنع. وعرض حديث أجريت فيه ذكر الشيخ محمد عبده فقلت، انه من الأفراد بمصر، فأجابني: «لا يوجد مثله بمصر». وكان هذا قبل أن صار الأستاذ في منصب افتاء الديار المصرية، ونال تلك الشهرة العظمى.

تحرينا في ترجمة حال هذا الحكيم الكبير، هذه الدقائق لأنه مما لا مشاحة فيه، أنه هو الموقظ الأعظم للشرق، وان طريقته ستزداد انتشاراً، ومبادئه ستطبق في يوم من الأيام بالشرق بأجمعه، فيسأل الخلف عن أحوال حياته، ويستقصون عن خواطره، ويجدون في جمع آثاره، كما نرى الاوروبيين اليوم يحرصون جد الحرص، على اكتشاف أقل شيء يعزى الى عظيم من عظمائهم، سواء من خبر أو أثر. ومن غريب ضرائب البشر أنهم لا يحرصون على آثار عظمائهم في حياتهم معشار ما يحرصون عليها بعد ذهابهم، وكنت أسأل مرة مارسل كاشين، وجان لونفه، وجماعة من رؤساء الاشتراكيين الفرنسيس، عن جوريس نابغة السوسياليست في هذا العصر، فبعد ان حدثوني عنه ساعة قالوا لي: «لم نكن نقدره قدره في حياته كما نقدره قدره اليوم» وأظن الحال كذلك مع رنان، ومع فيكتور هوغو، ومع سبنسر، ومع بسمارك، وجميع الأعاظم. فان أقدارهم تزداد بالوفاة، والولع بآثارهم يتضاعف مع تقادم العهد. وهكذا شأننا مع جمال الدين ومحمد عبده، وغيرهما من كبار المصلحين، كلما تقادم عليهم العهد، حرص



الناس من أثارهم على اللفظة الشاردة، والكلمة القاردة، ليكتبوها عنهم بماء الذهب. ولجمال الدين تاريخ للأفغان، ومقالات متفرقة كان عندي منها مجموعة، سطا عليا لص علم، وآخر ما نشر له، رسالة الدهريين التي سبق ذكرها. وبالجملة فلم يكن يحفل بوفرة التصانيف، وانما كان مؤلف أمم ومصنف ممالك.

ترجمة دائرة المعارف الاسلامية:

وممن ترجم السيد جمال الدين، العلامة غولد سيهر المستشرق المجري المشهور، شيخ المستشرقين في العلوم الشرقية، وصاحب التصانيف العديدة. فقد رأينا له في دائرة المعارف الاسلامية، المحررة باللغة الفرنسوية ترجمة خاصة بالمرحوم السيد جمال الدين، جاء فيها ما ترجمته:

«السيد محمد بن صفتر، من أعاظم رجال الاسلام في القرن التاسع عشر، كان بحسب رأي براون فيلسوفاً، كاتباً، خطيباً، صحفياً. وقبل كل شيء، كان رجلاً سياسياً يرى فيه مريدوه وطنياً كبيراً، وأعداؤه مهيجاً خطيراً. وقد كان له تأثير عظيم في حركات الحرية، والمنازع الشورية، التي جدت في العشرات الأخيرة من هذه السنين، في الحكومات الاسلامية وكانت حركته ترمي الى تحرير هذه الممالك من السيطرة الاوروبية، وانقاذها من الاستغلال الاجنبي، والى ترقية شؤونها الداخلية بتأسيس ادارات حرة. وكذلك كان يفكر في جمع هذه الحكومات بأجمعها ومن جملتها ايران الشيعية، حول الخلافة الاسلامية. لتتمكن بذلك الاتحاد من منع التدخل الاوروبي في أمورها. فجمال الدين بقلمه ولسانه، كان أصدق ممثل لفكرة الجامعة الاسلامية. وأسرته الشريفة تنتمي الى الحسين بن علي بن أبي طالب بواسطة المحدث الشهير الترمذي، فهو من أجل ذلك يلقب بالسيد».

ثم يقول انه بعد اكمال تحصيله بكابل، ذهب الى الهند، ثم حج البيت سنة ١٢٧٣، أو ١٨٥٧ وبعد اوبته من الحج، دخل في خدمة دوست محمد خان أمير الأفغان، ورافقه في حصار هراة، ولما توفي دوست محمد خان، دخل



الشيخ محمد عبده

في خدمة محمد أعظم الذي استوزره الى أن كان سقوطه واستيلاء شير علي خان على المملكة. فرحل السيد جمال الدين الى الهند (١٨٦٩) ومنها قدم القاهرة حيث أقام أربعين يوماً، ومنها قصد الاستانة، فأقبل عليه وزراؤها وعلماؤها، وأجلّوا قدره، وعرفوا فضله وعينته الدولة عضواً بمجلس المعارف وصار يلقي بعض الدروس في أياصوفيا والسلطان أحمد، ودعي مرة الى القاء خطبة في دار الفنون على فوائد الصناعة، فذكر النبوة من جملة الوظائف الاجتماعية[1] فأدى ذلك الى أن حسن افندي فهمي شيخ الاسلام رماه بالزندقة، واضطر الى مغادرة الاستانة قاصداً مصر. فأجرت الحكومة المصرية عليه معاشاً شهرياً ١٢ ألف غرش بدون أن تكلفه إلقاء درس خاص، وإنما كان يقرأ على حلقة من الطلاب في منزله، واجتمع حوله كثير من العطاش الى مناهل العلوم العالية الخ.

وذكر غولد سيهر سائر ما يعرف من أحواله مما حرره الشيخ محمد عبده، في صدر رسالة الرد على الدهريين، وما هو بمعنى ترجمتنا له في هذا الكتاب، الا أنه يقول انه لما نفي من مصر الى الهند جعلوا اقامته بحيدر أباد الدكان، وهناك كتب رده على الدهريين، وأنه قد زعم ويلفريد سكافن بلونت وهو مما لم يذكره غيره من مترجميه، أن جمال الدين ذهب من الهند الى أمريكا، وانه منها جاء الى لندرة سنة ١٨٨٣.

وذكر غولد سيهر مناقشة جمال الدين مع رنان، في أمر قابلية الاسلام للعلم، فقال ما يأتي بالحرف:

«وقد فتحت له أشهر الجرائد وأعظمها نفوذاً أبواب المراسلة، فنشر فيها مقالات ممتعة، عظيمة القيمة على السياسة الشرقية، التي كانت تتنازعها انكلترة والروسية، وعلى أحوال تركيا ومصر، وعلى معنى حركة المهدي السوداني. وفي ذلك الوقت جرت بينه وبين ارنست رنان، المناظرة التي أساسها محاضرة ألقاها رنان في السوربون على الاسلام والعلم. فجمال الدين أراد تفنيد مزاعم رنان بعدم قابلية الاسلام للتوليد العلمي، وذلك في مقالة بجريدة «الدبا» ترجمت أيضاً الى الألمانية. ثم بعد ذلك بقليل، ترجمت محاضرة رنان، مصحوبة برد من قلم حسن افندي عاصم الخ».

ثم ذكر غولد سيهر العروة الوثقى، وكيف شددت الحكومة الانكليزية بمنعها من أول عدد صدر منها من الدخول الى مصر والهند. وقال انه سنة ١٨٨٥، بالرغم مما اشتهر به المترجم من عداوة انكلترة، داخله الانكليز باشارة المستر بلونت في أمر ايجاد حل لمسألة المهدي السوداني، ولكن لم يقترن بشيء من ذلك بالعمل. ثم زعم أن الشاه ناصر الدين دعاه بالبرق سنة ١٨٨٦ الى حاضرة ملكه طهران، وأكرم مثواه وبالغ في الاحتفاء به، ولكن خشية الرقباء حملت جمال الدين على الاستئذان من الشاه والذهاب الى الروسية، حيث أقام مدة وصارت له علاقات كثيرة، وان لقاءه للشاه في منيخ كان في المرة الثانية ودعاه هذا الى الرجوع الى طهران، وذلك سنة مجيء الشاه الى معرض باريز (١٨٨٩) وذكر غولد سيهر ان سبب الفتنة بين جمال الدين والشاه كان الصدر الأعظم ميرزا علي أصغر خان الملقب بأمين السلطان، نفاسة على جمال الدين بالمكانة التي أحرزها في ايران، وان جمال الدين التجأ الى مقام عبد العظيم الذي هو اشبه بحرم من دخله فهو آمن، وأقام به سبعة أشهر والناس تتردد عليه، الى أن أرسل الشاه كتيبة ٥٠٠ فارس، اخترقوا حرمة الحرم وأخذوا السيد منه عنوة، وساقوه مكبلاً بالحديد الى خانقين[٢].

ثم استوفى بقية خبره، وكيفية معاكساته لحكومة الشاه، ثم مجيئه الى الاستانة، وموته فيها على الوجه الذي حررناه. ■

الهوامش

(١) حقيقة هذه القصة أن السيد يومئذ شبه الاجتماع الانساني بجسم أعضاؤه الصناعات المختلفة، فشبه الصنعة الفلانية باليد، والفلانية بالرجل، وهذه بالعين، وتلك بالأذن؛ ثم قال وأما الرأس المدبر لهذا الجسم، فهو اما النبوة او الحكمة، والفرق بينهما أن النبوة وحي إلهي معصوم من الخطأ، وان الحكمة وضع بشري قد يخطىء وقد يصيب. وكان حسن فهمي افندي شيخ الاسلام يومئذ، ناقماً على الأفغاني قرارا سابقاً في مجلس المعارف ينال من رزقه، فانتهز فرصة هذا الخطاب ليقول، ان الأفغاني جعل النبوة من جملة الصناعات.

(٢) على حدود العراق.



● السياسة لغز يقضي الشعب وقته في محاولة حلّه، فاذا استطاع ان يصل إلى حلّ اللغز فالويل للسّاسة.

لتزاروس

● ان الاستقلال هو ترك الخوف من الموت، لأن الأمة التي تجيز لنفسها ان تتأثر من الخوف من الموت لن تنال استقلالها، وهي لو نالته لما استطاعت القيام عليه والاحتفاظ به.

غاندي

التاريخ الاجتماعي للألعاب في الغرب

جاك لوفرون

ترجمة: (تاريخ العرب والعالم)

● في إطار الاهتمام المتجدد بالتاريخ الاجتماعي للحياة في دول القارة الأوروبية منذ بداية نهضتها في القرون الوسطى، يواصل المؤرخون الغربيون التعمق في دراساتهم وأبحاثهم حول جوانب هذا الموضوع كافة، مؤكدين بذلك أن التاريخ كلّ لا يتجزأ وإن العادات والتقاليد والحياة اليومية من العناصر التي لا تقل أهمية عن الأحداث السياسية والاقتصادية والفكرية في صنع التاريخ البشري.

من هذا المنطلق كتب الباحث الفرنسي جاك لوفرون دراسة حول تاريخ الألعاب في الغرب منذ القرون الوسطى (راجع مجلة «ايستوريا»، عدد ٣٨٦، كانون الثاني - يناير - ١٩٧٩، من ص ١١٢ - ١٢٢) مشيراً الى أن مصادر هذا الموضوع عديدة ومنها الأغاني والقصص.

ويبقى على مؤرخينا في الوطن العربي دراسة ما وصل الينا من هذه الألعاب وما ابتكرناه وطورناه منها.

لعبة النرد:

كانت لعبة النرد في القرون الوسطى من اكثر الألعاب شعبية داخل القصور وفي بيوت الفقراء ومتوسطي الحال على السواء. وإذا كان من الصعب تحديد نشوء هذه اللعبة في دقة، فمن المؤكد أنها كانت معروفة على الأقل قبل العام ١٢٦٨م. وذلك ما نستنتجه من كتاب ايتيان بوالو «كتاب المهن» حيث أفرد مكانا محدداً لصانعي النرد.

وكان لهذه المهنة قوانين صارمة، منها الالتزام بعدم صنع نرد مزور.

انتشرت هذه اللعبة في كل مكان: في الحوانيت حيث كان من النادر أن لا يخسر أحد اللاعبين معطفه أو حتى قميصه ليغطي خسارته في اللعب، وفي القصور ودور الأغنياء حيث اتخذت هذه المراهنة طابعاً أكثر بذخا.

أورد المؤرخ الفرنسي جوانفيل (حوالي ١٢٢٤ - ١٣١٧) في مذكراته أنه في العام ١٢٤٨ رافق الملك لويس التاسع الى مصر. وفي الباخرة التي أقلتهما كان شقيقا الملك، شارل دانجو والفونس دو بواتييه، يلعبان النرد في حماسة كبيرة الى درجة أنهما لم ينتبها الى وصول لويس التاسع الذي ثارت ثائرته فأخذ النرد والطاولة ورماهما من فوق سطح الباخرة. صحيح أن الملك «فش خلقه»، الا أن الصحيح أيضا أن شقيقيه لم ينزعجا تماماً من هذا التصرف إذ هما عاودا اللعب بالنرد البديل الذي كان في حوزتهما، فور خروج الملك.

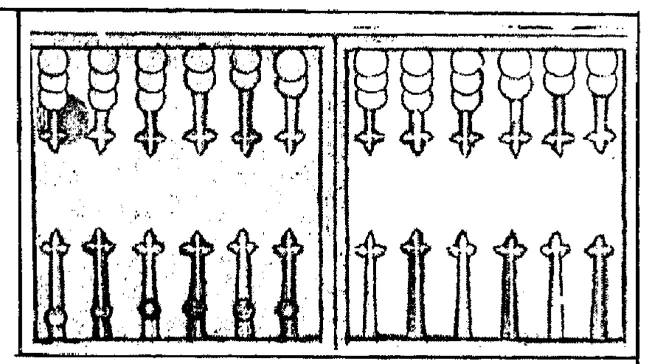
والمعروف أن لويس التاسع هو الذي أصدر المراسيم المتعلقة بتحريم لعبة النرد لأنها تعتمد على الحظ: ففي العام ١٢٥٤ وبعدما فشلت محاولاته في تقييد ممارسة هذه اللعبة، أصدر قراراً منع بموجبه تداول النرد في أي شكل كان. طبعاً لم ينفذ هذا القرار كما يجب بل على العكس، انتشرت هذه اللعبة على نطاق أوسع فأوسع ولم تنفع كل القرارات اللاحقة «للملك القديس» في الحد من اتساع دائرة اللاعبين بها. ويروي الشاعر جان بوديل، في أواخر القرن الثالث عشر، بأسلوبه المرح قصة المغامرات الناجحة لثلاثة غشاشين وقعوا في النهاية تحت رحمة غشاش أبرع منهم.

طاولة اللعب:

هذه اللعبة هي أكثر صعوبة من لعبة النرد. كانت منتشرة خصوصا بين الامراء الذين كانوا يتباهون بنوع الاحجار المستعملة وبزخرفة طاولة اللعب نفسها. وحتى اليوم توجد في متحفي «انجي» و«كلوني» الفرنسيين احجار رائعة الشكل والتصميم تدل على الاهتمام الكبير الذي أولاه الأغنياء لهذه اللعبة.

واشتق من هذه اللعبة نوعان آخران

تاريخ العرب والعالم - ٧٠



النرد أو لعبة الطاولة - المكتبة الوطنية، باريس

يعرفان حاليا بـ (back-gammon) و (jacquet) وهما لا يختلفان كثيرا عن اللعبة الأصلية.

الشطرنج:

يتفق المؤرخون على أن لعبة الشطرنج نشأت في الشرق وعرفها الفرنسيون القدامى منذ القرن التاسع وذلك على أثر الهدايا التي أرسلها هارون الرشيد الى شارلمان والتي كانت بينها هذه اللعبة. ولم تنتشر على نطاق واسع الا في أواخر القرن الحادي عشر. وأصبحت في القرن الثاني عشر اللعبة المفضلة للنبلاء.

كشف جوانفيل في مذكراته عن أن «شيخ الجبل»، رئيس قبيلة «الحشاشين»، أرسل الى لويس التاسع لدى وصوله الى الاراضي المقدسة



لعبة الشطرنج - لوحة مصغرة من القرن الخامس عشر

في فلسطين، لعبة شطرنج أحجارها من الكريستال المرصع بالذهب. ولكن يبدو أن «لويس القديس» لم ترق له هذه اللعبة أيضا فمنعها، كما منع في السابق لعبة النرد، بقراره الصادر في العام ١٢٥٤. ولم تردع كل قرارات لويس التاسع الكهنة عن ممارسة اللعبة، فهي لاقت رواجا كبيراً داخل الأديرة على رغم رفض السلطات الدينية لها. وفي القرن الثامن عشر عرف الشطرنج رواجاً كبيراً بسبب مؤاتاته لجو عصر النهضة الغربية يومها: فكان جان جاك روسو ينسجم كثيراً بهذه اللعبة مع ديدرو ودالامبير. وفيما بعد كان روبيسبيير وبونابرت من المبدعين في الشطرنج.

ومن الطريف أن السلطات البريطانية استخدمت تقسيمات رقعة الشطرنج من أجل تقديم الحسابات العامة. ولا عجب بالتالي أن يحمل وزير المالية البريطاني حتى اليوم لقب Chancelier de l'Echiquier أي حرفيا «مستشار رقعة الشطرنج» .

ألعاب الصغار:

من هذه الألعاب التي لا تتطلب أية أدوات خاصة بها، نذكر: - لعبة Jeu des Combles ومفادها أن على كل شخص البحث عن أقصى حد لشيء ما ، ومن يجد الجواب الأفضل يربح.

- لعبة «القديس كوم»: يختار شخص ليمثل دور القديس الذي عليه أن يحافظ على هدوئه ورصانته أمام شتى أنواع الحركات الضاحكة والغمز، والا، يفقد ويأخذ مكانه من نجح في إضحاكه.

- لعبة «الملك الذي لا يكذب» على الملك (أو الملكة) أن يدافع عن لقبه هذا من خلال الأجابة بصدق وبصراحة تامة عن كل الأسئلة التي تطرح عليه، حتى المحرجة منها.

- الدمية: عرف أولاد الفرنسيين القدامى الدمية قبل أكثر من ٢٠٠٠ عام ق. م ويمكن التعرف بدقة على «موضة العصر» على مر الأزمنة من خلال ثياب الدمى. وهنا تبرز آفاق



مسرح العرائس والعاب اخرى للأطفال

واسعة جدا للباحثين والمؤرخين في مجال الحياة الاجتماعية للشعوب، إذ إن صور وأشكال هذه الدمى كانت إما محفورة على الحجر والخشب أو مرسومة ومطرزة على أنواع مختلفة من الورق والقماش.

وإذا كانت دمى أطفال الأمراء والنبلاء مكسوة بأبهى الثياب فان دمى ابناء الفئات الفقيرة كانت بالطبع على شاكلتهم من حيث الثياب غير الفاخرة.

– لعبة «حَجَر الرجل» (أو «إيكس») وهي لعبة للأولاد الذين عليهم أن يقفزوا على رجل واحدة يدفعون بها حجراً لادخاله ضمن خانات مرسومة على الأرض. واستناداً الى بعض الوثائق فان هذه اللعبة لم تكن سهلة كما هي اليوم.

... وللكبار الأشداء:

– لعبة «المصْوبة» Quintaine. وهي لعبة يبدو أنها لم تعد متداولة في ايامنا. وهذه اللعبة عبارة عن دمية مشدودة الى عمود ومزودة بعصا. وكانت تستعمل للتدرب على التصويب كما كانت أيضا النصب الاخرى المخصصة للقوس والنشاب.

uirent se li fisent mout grant
Mais ore se taist li contes si di
de genieure se fillastre cleoda
le seneschal de carmelide et de s
parens qui mout haoient le r
leodegan.

لعبة المصوبة – لوحة مصغرة من الأرشيف الفرنسي

لعبة «السول» أو «الشول»



تعود أصول اللعبة الى عهد الرومان، في مناسبة حفلة تدريع الفرسان: كان على الفارس الجديد أن يثقب برمحه الخشبي الطويل نصباً نصفيا يدور حول نفسه ومصنوعاً من شجر السوحر ومثبتا فوق عمود. فاذا اخطأ الفارس الاصابة في المكان الصحيح، يدور النصب دورة كاملة في اتجاهه ويلطمه بالسلسلة الحديدية المعلقة بأحد طرفيه. وكان توفير «المصوبة» يعتبر في بعض المناطق الريفية من واجبات الفلاح، عندما يهجر حياة العزوبية، تجاه سيد القصر أو الاقطاعي.

– وهناك لعبة غير معروفة تماما حاليا مع العلم أن منها ظهرت كرة القدم والركبي. وكانت هذه اللعبة التي تسمى Choule أو Soule عبارة عن كرة ضخمة من القماش أو الجلد أو حتى الخشب، وتتنافس للحصول عليها عدة مجموعات يتراوح عدد كل منها بين العشرين والمئتين كانت كل الأساليب مسموحاً بها في هذه اللعبة التي كانت تجري عادة بين قرية واخرى وتدوم طيلة النهار. ولا عجب بالتالي أن تقع إصابات عديدة بين اللاعبين بسبب خشونتهم وفظاظتهم أحيانا كثيرة.

نشأت هذه اللعبة الشعبية في فرنسا في القرن الثالث عشر واستمرت في بعض الأرياف حتى أواسط القرن التاسع عشر.

– إلى جانب هذه اللعبة القاسية كان سكان المدن يلعبون لعبة اهدأ منها وهي «لعبة الكرة»، على رغم أن مبادئها كانت هي نفسها تقريبا. وانتشرت هذه اللعبة في المدن الفرنسية الرئيسية الى حد أن شارل الخامس منع في العام ١٣٦٩ م. ممارستها في شوارع العاصمة. وكان لقرار شارل الخامس أثره الايجابي، إذ أن محبذي هذه اللعبة اضطروا بالتالي الى تخصيص أماكن مغلقة عرفت فيما بعد بـ «الملاعب».

لعبة «الراحية»

كانت لعبة «الراحية» Paume (وهي نوع من التنس) التي ما زالت على رواجها اليوم بعد تطوير مبادئها، منتشرة خصوصا في صفوف النبلاء وافراد البورجوازية.

من الصعب للغاية تحديد فترة نشوء هذه اللعبة، إذ أن المبدأ الذي قامت عليه – وهو أن يتقاذف اللاعبون الكرة – كان معروفا منذ هوميروس الذي أشار إلى أن الإلهة «نوزيكايا» كانت تمارس هذه الرياضة مع خادماتها.

ومارس الرومان القدماء أيضا هذه اللعبة. ويبدو أنهم هم الذين اوصلوها الى الفرنسيين.

وسميت بالراحية لأنها كانت تلعب في

بادىء الأمر بالأيدي فقط. ولم يستعمل المضرب إلا ابتداء من القرن الرابع عشر. من يومها أخذت هذه اللعبة تنتشر على حساب العاب اخرى. ففي العام ١٥٩٦ ذكر سائح ايطالي أنه استطاع احصاء ٢٥٠ لعبة من العاب الراحية في باريس وحدها.

كان هناك نوعان من الراحية: الطويلة التي تلعب في مكان مكشوف غير مسيج، والقصيرة التي تمارس ضمن ملاعب مستطيلة مقفلة.

وذكر المؤرخون في العام ١٣٥٥ م. أن الملك حنا الثاني الملقب بـ «الملك الطيب» كان يهوى كثيراً لعبة «الراحية». كما أن شارل الخامس شيد في قصر اللوفر ملعباً خاصاً بها. ويضيف هؤلاء أن هذه اللعبة كانت أحد اسباب وفاة الملك شارل الثامن الذي اصطدم جبينه بأحد العواميد بينما كان مسرعا للقاء اصدقائه في الملعب، وهذا سبب له نزيفاً حاداً في المخ. لكن الحادث لم يمنع الملك والامراء بعده من الاستمتاع بهذه الرياضة المسلية والمرفهة عنهم في ضجرهم.

وهناك دلائل على أن الطلاب كانوا هم أيضا من هواة هذه اللعبة. ويورد الباحثون في هذا الصدد أن ادارة مدرسة «نوارموتييه» القريبة من السوربون اصدرت في العام ١٣٩٠ قراراً تشترط فيهم على طلابها الراغبين بممارسة لعبة الراحية أن يستأذنوا أولاً اساتذتهم وأن يلتزموا ثانيا التخفيف من ضجيجهم وصخبهم اثناء اللعب لئلا يزعجوا زملاءهم المجتهدين الذين يراجعون دروسهم.

في القرن السادس عشر عرفت «الراحية» رواجا لا مثيل له، مما دفع بعض المستثمرين الى تخصيص أماكن عامة للعب وتأجيرها. وهذا ما أثار في حينه ردود فعل واسعة بسبب الاستغلال التجاري غير المعهود لهذه الرياضة. ووصف المؤرخ الفرنسي «ليتوال» (١٥٤٦ - ١٦١١) هذه العملية «بالفضيحة» واستنكرها في شدة.

في القرن السابع خف اهتمام الناس بهذه اللعبة على رغم تشجيع هنري الرابع ولويس الثالث عشر لها. وجاء لويس الرابع عشر ليطلق رصاصة الرحمة على «الراحية» مفضلا عليها لعبة البيليياردو.

لعبة الراحية، لوحة من العام ١٦١٢



ولكن لم تذهب الأماكن العامة المخصصة للعبة الراحية هباء، فهي تحولت الى مسارح للكبار والصغار على السواء. فهل من المبالغة القول أن هذه اللعبة لها فضل كبير على نشأة المسرح الفرنسي؟

ورق اللعب:

نشأت هذه اللعبة في الشرق الأقصى (الهند والصين)، ووصلت إلى اوروبا في القرون الوسطى (مدينة فارتسبورغ الالمانية) منذ العام ١٣٢٩ م. ثم انتشرت في ايطاليا واسبانيا ففرنسا. وفي العام ١٣٩٢ نقرأ في احدى فواتير الملك شارل السادس أنه دفع الى الرسام شارل غرينيوني مبلغاً من المال لقاء رسمه لثلاثة مجموعات أوراق لعب. من هنا نستنتج أن ورق اللعب كان باهظ الثمن. ولم تصبح هذه التسلية في متناول عدد أكبر من الناس الا عندما اخترعت الطباعة التي ساعدت على انتاج ورق اللعب بكميات تجارية.



جلسة من جلسات لعب الورق.

منذ القرن الخامس عشر عرف الفرنسيون لعبة رديفة لها: «التاروت» وهي عبارة عن ورق لعب أطول من الورق العادي ويحمل صوراً مختلفة وعدده لا يقل عن ٧٨ ورقة. وتفنن اللاعبون أيضا في استنباط أنواع جديدة لورق اللعب لا مجال هنا لتعدادها.

ولتلبية الرغبة المتزايدة في ممارسة هذه اللعبة فتحت المقاهي الخاصة حيث كان يمضي العاطلون عن العمل الساعات الطوال بعضهم في مقارعة البعض الآخر بورق اللعب. وكالعادة أصدر الملك هنري الثالث في العام ١٥٧٧ قراراً بمنع تداول ورق اللعب إلا ان همسات خدم الملك التي كشفت عن عدم التزامه هو بالقرار الذي اصدره، شجع الناس على تجاهل قرار المنع.

البيلياردو:

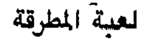
عرف البيلياردو منذ القرن السادس عشر، لكن رواجه لم يبرز الا بعد تشجيع الملك لويس الرابع عشر له. فخصصت للبيلياردو قاعات مغلقة في قصر فرساي. وكان الملك يرتادها كل يوم بين السابعة والثامنة مساء. أما حفيده الاصغر، لويس الخامس عشر، فيبدو أنه لم يتحمس له كثيراً، على عكس لويس السادس عشر الذي كان يهوى هذه اللعبة رغم ضعف بصره.

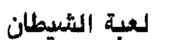
ومن الطريف أن النبلاء الفرنسيين لم تجتاحهم غيرة اقتناء البيلياردو، بغض النظر عن حبهم للعبة أم لا ، الا في عهد لويس السادس عشر إذ ان عهد هذا الملك الأخير كان في الواقع صورة كاريكاتورية عن عهد «الملك الشمس».

ومن يومها فقدت هذه اللعبة الارستوقراطية طابعها البورجوازي وانتشر البيلياردو في المقاهي الكبرى والأماكن العامة الى درجة أنه أصبح لهواة هذه اللعبة أكاديمياتهم الخاصة التي ما زالت موجودة في فرنسا حتى يومنا هذا.

العاب الكبار للصغار والعاب النساء للرجال:

كثيرة هي الألعاب التي تبرز ثم تختفي، أو تلك التي تخف شعبيتها بين الحين والآخر حسب حاجات العصر ومتطلباته، وكانت بعض الألعاب الخاصة بالكبار في فترة تاريخية معينة


لعبة المطرقة


لعبة الشيطان



تصبح في فترة اخرى من اختصاص الصغار، والأمر صحيح أيضا بالنسبة الى الألعاب التي كانت خاصة بالنساء فاصبحت من نصيب الرجال، وهكذا من غير أي حرج للجيلين أو للجنسين.

نذكر من هذه الألعاب لعبة النرد ولعبة الطاولة أيضا التي كانت في السابق من أكثر الهوايات شعبية عند النساء، ولعبتي الاستغماية والحطة - نطة اللتين كانتا في الأصل للشباب قبل أن يحتكرها الأولاد. وهناك لعبة طريفة جداً يبدو أنها اختفت اليوم وهي «لعبة الشيطان» (ديابولو): فهي عبارة عن قضيبين موصولين بحبل توضع فوقه بكرة. وعلى اللاعب أن يرفع البكرة بالحبل ويقذف بها في الجو ثم يلتقطها من جديد بواسطة الحبل. راجت هذه اللعبة الصعبة نوعا ما في القرن الثامن عشر ثم دخلت التاريخ المنسي.

وفي الوقت نفسه أيضا انتشرت «لعبة المطرقة» التي ما تندثر الا لتحيا من جديد في لعبتي الكروكي (لعبة بالكرات الخشبية) والغولف.

أما لعبتا الهيلاهوب واليويو فانهما تبرزان ثم تختفيان لأسباب متفرقة. المهم أن الانسان يبتكر دوما التسليات والألعاب التي تخفف من ضجره وتسد أوقات فراغه.

واليوم تفرخ الألعاب الجديدة بمعدلات قياسية ولا حدود لها الا حدود خيال الانسان. إذ من كان يتصور في القرن الثامن عشر أن تتحول لعبة «القنديل السحري» البدائية والبسيطة جداً الى «لعبة القرن العشرين»: السينما.» ■

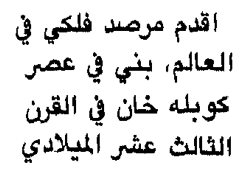


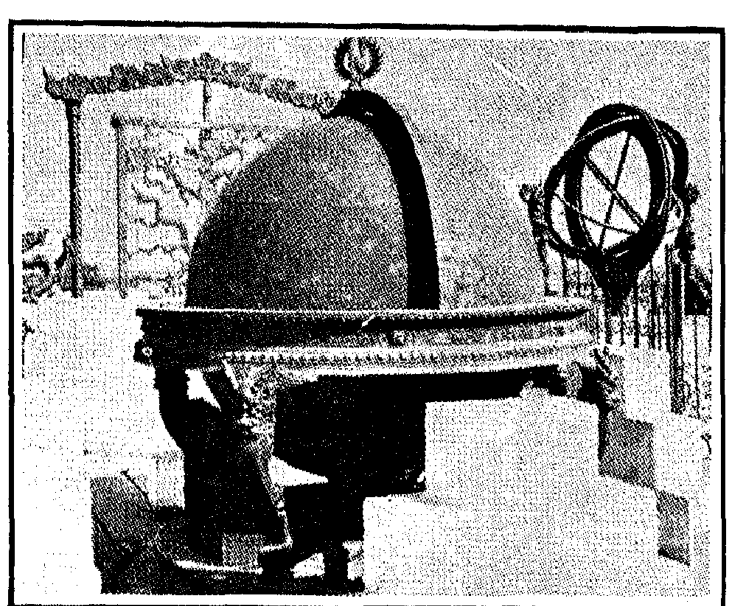
- الوقوف من المازق في منتصف الطريق، هو اكثر الأشياء تضييعاً للوقت. — نيوباير

- ان العبد الحقيقي هو ذلك الذي لا يستطيع ان يصرح بآرائه — اوريبيدس



رسائل الماجستير والدكتوراه





اقدم مرصد فلكي في العالم، بني في عصر كوبله خان في القرن الثالث عشر الميلادي

امبراطوريات الصين

الحلقة الثالثة

طارق فتحي سلطان

في الحلقة الثالثة والأخيرة من دراسة وتحليل تطور وتسلسل حكم الأسر لمقاطعات الصين، سنعرض الفترة الأخيرة التي تمتد من القرن الثاني عشر حتى الرابع عشر الميلادي مرافقين نشوء قوى حاكمة وتراجع اخرى مُخلية مكانها للأقوى والأفضل. وهي دراسة شاملة وموضوعية، علمية ودقيقة الأسانيد، يمكن ان تعد مرجعاً في التأريخ للصين وامبراطورياته منذ ظهور الاسلام.

٧ - امبراطورية سونغ الجنوبية: (Southern Sung) (١١٢٧-١٢٧٩م)

بعد ان قضت دولة الكين (Chin) على سلالة سونغ الشمالية فر (Kao Tsung) الى نانكين(Nanking)[١]، واعلن نفسه امبراطورا واسس امبراطورية سونغ الجنوبيه[١]. وقد خاضت هذه الامبراطورية حروبا طويلة مع الكين، انتهت بعقد صلح بينهما[٣]. وخضعت

● (امبراطوريات الصين) رسالة ماجستير اعدت في كلية الاداب قسم التاريخ في جامعة الموصل.

لهذه الامبراطورية المناطق الواقعة جنوب نهر اليانغستي، وقد وسعت اسرة سونغ الجنوبية علاقتها مع اقطار جنوبي شرقي اسيا، خصوصا بعد ان فقدت سيطرتها على طرق غربي اسيا، فاستوطن عدد كبير من التجار المسلمين واليهود في بعض مدن الصين[٤]، وعوضت امبراطورية سونغ الجنوبية عن فقدان سيطرتها على طرق غربي اسيا التجارية، بتوسيع وتنشيط اسطولها التجاري، وقد بنت لها اول اسطول بحري في هذه الفترة فبين سنتي ١١٣٠ - ١٢٣٧ م ارتفع العدد من ١١ اسطول الى ٢٠ اسطول وارتفع كذلك عدد طاقمها من ٣,٠٠٠ الى ٥٢,٠٠٠ رجل[٥].

اما عن علاقة سونغ الجنوبية مع المغول، ففي البداية كانت العلاقة بينهما حسنة، حيث ساعدت اسرة سونغ المغول في القضاء على دولة الكين (Chin)، مقابل حصول اسرة السونغ الجنوبية على المقاطعات الواقعة جنوب النهر الاصفر، وتم الاتفاق وسقطت اسرة كين سنة ١٢٣٤م، الا ان المغول نكثوا بوعدهم لذلك لم يقنع الامبراطور السونغي بما منح له، بل صمم على استعادة لويانغ (Lo-Yang)، الا ان المغول قاموا بكسر السدود المائية لتدمير جيش سونغ الجنوبية[٦]، وعقد المغول مجلسا في القوريلتاي في سنة ١٢٣٥م، بعدما احتل جيش السونغ مدينتي كاي فونج ولو يانج، لدراسة هذه الاعتداءات، فتوجهت ثلاثة جيوش الى الصين، احتل الاول منها تشينج تو ١٢٣٦م، واحتل الثاني مدينة سيانج يانج ١٢٣٦م، اما الجيش الثالث فتوجه الى هوانج تشو الواقعة على نهر اليانغستي، الا انها صمدت لهم، ثم قامت سلالة سونغ باستعادة سيانج يانج في سنة ١٢٣٩م، واستمرت الحرب بين المغول وامبراطورية السونغ قرابة ٤٠ سنة انتهت بانتصار المغول سنة ١٢٧٩ على اسرة سونغ الجنوبية[٧]. ومن الطبيعي ان هذه الحروب استنزفت الكثير من الاموال والانفس طوال هذه الفترة وما تعرض له اقتصاد الصين، جراء تسخير هذا الاقتصاد للمجهود الحربي ضد المغول، وسحب الكثير من الايدي العاملة في الانتاج الزراعي وغيره، للدفاع عن الامبراطورية.[٨]

٨ - المغول: يوان (Yuan). ١٢٣٤-١٣٦٨م

يطلق على المغول باللغة الصينية منغ كو (Meng-Ku)[٩]، والمغول من سكان منغوليا، حيث عاشوا عيشة حروب ومنازعات، كانت تحدث بين القبائل المتواجدة في منغوليا، حيث كانت تقوم الامارات وتسقط بفعل التحالفات التي كانت تقام بين بعض القبائل، ضد البعض الآخر، الى ان تمكن جنكيز خان من توحيد منغوليا برمتها، عند ذلك قام بمهاجمة هسيا - هسي (Hsia-Hsi) في سنة ١٢٠٩م، ثم توجه لضرب الكتان في حرب استمرت ٢٥ سنة، وبعدها اتجه نحو امارة القراخطاي في سنة ١٢١٨م[١٠]. ثم اندفع المغول لحرب سلالة الكين، واحتلوا عاصمتها بكين، فاضطرت سلالة كين الى نقل عاصمتها الى (Kai-Feng)، بعد ذلك جرى التحالف بين المغول وامبراطورية السونغ الجنوبية من اجل القضاء على الكين، فامدت امبراطورية السونغ الجنوبية المغول بـ ٢٠,٠٠٠ جندي، حيث تمكنوا من اسقاط هذه السلالة[١١]، بعد ذلك جرى التصادم بين المغول وامبراطورية السونغ الجنوبية في عهد الامبراطور المغولي اقطاي، حيث جنى ثمار هذا النصر خليفته الامبراطور قوبلاي، وبذلك تمت السيطرة المغولية على الصين. فقد اتخذ المغول الصين قاعدة لانطلاقهم الى اليابان واقطار جنوبي شرقي اسيا[١٢]، وقد حملت هذه السلالة المغولية في الصين اسم يوان (Yuan) سنة ١٢٧١م[١٣].

وعندما اتموا سيطرتهم على الصين، واجه المغول مشكلة ادارة البلاد، سيما وقد تجاوز عدد سكانها الستين مليون نسمة، وقد سيطر المغول في هذه الامبراطورية، على المراكز العسكرية وبقية المراكز الحساسة في الامبراطورية، واستعانوا بالكثير من الاجانب سواء اكانوا مسلمين ام اتراك او يغوريين في الادارة، فجرى تعيينهم في معظم الوظائف

الكتابية، ونظرا لأن المغول يجهلون اللغة الصينية، بعكس الاويغور الذين كانوا يجيدون اللغتين المغولية والصينية، وكانت أوامر الحكومة الرسمية تصدر باللغتين المغولية والصينية، كما منع المغول الصينيين من تعلم اللغة المغولية، او اية لغة اخرى، ومعنى هذا عدم السماح لهم، باشغال مراكز ادارية في هذه الامبراطورية[١٤].

وقد لاقى الشعب الصيني الامريين من الحكم المغولي، فقد عمل المغول على تمزيق وحدة الشعب الصيني متبعين سياسة فرق تسد، فجرى تقسيم الصين الى اربع طبقات هم ١ - المغول ٢ - الـ (Semus) (ذوي العيون الملونة) ويضمنهم سكان الاقاليم الغربية واقليم هسيا، ٣ - الهان ومعهم الخطاي، والـ (Nuchen) والكوريين في شمال الصين ٤ - سكان الاقاليم الجنوبية من مختلف القوميات[١٥]، وقد طبق المغول احكام الياسا على الشعب الصيني[١٦].

وكان المغول في قمة السلم الطبقي، حيث تميزوا هم والـ (Semus) باستثناءات قانونية، فإذا ارتكب شخص من هذه الطبقات جريمة، يحاكم في محكمة خاصة، واذا ضرب مغولي شخصا من الهان او من الجنوبيين، فإنه لا يعاقب، وإذا قتل مغولي شخصا من الهان او من الجنوبيين، فإن العقوبة تكون غرامة بسيطة[١٧].

وانتشر الجيش المغولي في مختلف اقسام الصين، وازدادت الضرائب حتى تجاوزت اكثر من ٢٠ ضعفا[١٨]. واستغلت الاراضي الزراعية الصينية، حيث اجبروا الفلاحين على العمل بها، كما ارتفعت ايجارات الارض التي كان يدفعها الفلاحين، فعلى سبيل المثال بلغ ايجار كل (Mou) من الارض من ٣٠ - ١٠٠ (catties) من الحنطة. بالاضافة الى ضرائب متنوعة اخرى، يضاف الى ذلك طرد الكثير من الفلاحين من اراضيهم[١٩]. وحتى الخيول التي كانت لدى الصينيين خضعت لمصادرة المغول، فقد فقد الفلاحون ٧٠٠,٠٠٠ حصان، كما قام المغول باقراض الفلاحين الصينين النقود بفوائد عالية قد تبلغ اكثر من ١٠٠٪، والتي يعجز الفلاحون عن تسديدها، لذلك كانوا يقعون هم او ممتلكاتهم تحت رحمة المغول. وحتى اصحاب المهن خضعوا ايضا لخدمة المغول، حيث اصبحوا كصناع حكوميين[٢٠].

لذلك نجد ان المقاومة تشتد ضد الوجود المغولي في الصين، جراء الاضطهادات التي تعرض لها الصينيون من المغول، في محاولة للتخلص منهم، واخذت الثورات تندلع ضد الوجود المغولي في مناطق متعددة من الصين.

وقد نشبت الثورة داخل الجيش المغولي نفسه، اذ اعلن ثيان قائد الجيوش في منشوريا ومنغوليا وشمال كوريا، وكايدو وحاكم التركستان، الثورة ضد قوبلاي خان، الا ان قوبلاي خان اسرع لضربهما وقضى على التمرد[٢١]. ولم يذكر ماركوبولو، سنة وقوع الحدث الا انه يرجح انه حدث في أوائل سني قدوم ماركوبولو الى الصين.

كما انطلقت ثورة اخرى في الصين نفسها، وفي عاصمة المغول بكين، اذ استغل الثوار غياب قوبلاي عن بكين، معلنين بدء الثورة، وكان يقيم نيابة عن الخان شخص آخر اسمه احمد(اتشمك)، فاتفق (Chen-Ku)، الذي كان قائدا على ٦,٠٠٠ رجل و (Van-Ku)، الذي كان قائدا على ١٠,٠٠٠ شخص من المدنيين - حيث استاء الاول من اعتداء احمد على زوجته وابنته، وكانت اشارة الثورة هي اشعال النار، والبدء بقتل كل ذي لحية، وقد تحايل (Chen-Ku) و (Van-Ku) لدخول القصر ليلا. وتم ارسال رسول الى احمد يخبره بقدوم ابن قوبلاي في هذه الساعة المتأخرة من الليل، الا ان أمر الثورة قد انكشف، وفشلت الثورة وقتل احمد فيها، وقد قتل المغول كل من وجد خارج بيته من الصينين، ولما عاد الامبراطور قوبلاي خان، تحرى عن اسباب الثورة، فانصبت اسبابها على احمد وابنائه، وقد عوقب كل من له يد في ظلم الناس من ابناء احمد. ويشير ماركوبولو الى ان احمد قد ظلم الناس وكان يفعل كل شيء بارادته من دون استشارة الخان، وحتى اذا استثاره يكون رأيه هو الارجح[٢٢]. وكان احمد يغتصب النساء حسب ما ذكره ماركوبولو، ولربما اعتقد

ماركوبولو بأن زواجه من اربع نساء، وهو ما يجيزه الشرع الاسلامي، مدعاة ان ينظر اليه بتعجب سيما وانه شخص مسيحي، وقد كانت للمكانة التي تمتع بها اتشمك (احمد) لدى قوبلاي جعلت ماركوبولو ينظر اليه بشيء من الحسد.

لقد استعانت الادارة المغولية في الصين بـ ١٢ وزيرا من الصينيين من مجموع ٣٤ وزيرا ويقيمون في بكين ويختارون هم بقية الموظفين الاداريين من الصينين[٢٣]. الا ان هذه الادارة المغولية لم تستطع ان تحل مشاكل المواطنين نتيجة لاسباب متعددة منها جهل المغول اللغة الصينية، وعدم تفهمهم لمشاكل الناس نتيجة لعدم معايشتهم لها. بالاضافة الى تردي اوضاع الناس بصورة عامة ففي احصاء عام ١٣٢٩م تبين ان ٧,٦٠٠,٠٠٠ شخص في الامبراطورية يعانون من الجوع، وهذه هي الاحصاءات الرسمية، اذ يرجح ان تكون الارقام الصحيحة هي اكثر من هذا الرقم بكثير[٢٤].

وهكذا كانت الثورات تنطلق في اماكن متعددة من البلاد، وكان يقود هذه الثورات ناس من طبقات فقيرة منهم بائعو الملابس، صيادو السمك، الفلاحون، مهربو الملح، ابناء الجنود، وكان هؤلاء الثوار يهاجمون المغول. بل يهاجمون الاغنياء بسبب ما يعانونه من الجوع والحرمان[٢٥].

ونتيجة لهذه الاوضاع لم تعد الجيوش المغولية قادرة على مواجهة الثوار والقضاء عليهم، لكثرة الثورات واتخاذها اسلوب حرب العصابات وانتشارها في بلاد الصين.

كما لعبت العوامل الطبيعية دورها، ففي سنة ١٣٥١م انكسرت السدود على طول النهر الاصفر مع ما يعنيه هذا العمل من تدمير المحاصيل الزراعية، وقد قام المغول بدفع اكثر من ١٥٠,٠٠٠ رجل من اجل اصلاح السدود، ثم اندلعت الثورات الصينية في هونان و (Kiangsu) و (Shantung)، وكان لاعمال السخرة دور واضح في هذه الثورات، وكان لبعضها اهداف دينية او اهداف سياسية كإعادة اسرة سونغ الى الحكم[٢٦]. وكان



من كتاب صيني للاعشاب، يشرح عن نبتتين تفيدان أمراض الصدر.

لضعف الاباطرة المغول المتأخرين وانغماسهم بالملذات وعزوفهم عن ادارة الامبراطورية، اثر في تأجج الثورات واستمرارها[٢٧].

فانطلقت المقاومة من الجنوب فالتحق (Kuo) مع رجل راهب اسمه (Chu-Yuan Chang)، والذين استطاعوا جمع الناس الساخطين ضد الوجود المغولي في الصين، وقادوا الثورة، وفي سنة ١٣٥٥م توفي (Kuo) وحل (Chu) محله في قيادة الثوار[٢٨]. وقد احتلوا المناطق تباعا، ابتداء من نانكين التي سقطت سنة ١٣٥٦م. وكانتون ١٣٦٧م، وبكين ١٣٦٨م، ثم اتخذت هذه الثورة نانكين عاصمة

لها[٢٩]. وقد قتل جميع المغول الذين بقوا في المدن الصينية، واستطاعت الدولة الجديدة طرد المغول من الاجزاء الشمالية للصين، كما عمل الامبراطور (Chu Yuan-Chang)، على طمس المعالم المغولية، والعودة الى كل ما هو صيني، وربط الصين بماضيها القومي، وجرى الاهتمام بالديانة البوذية والكنفوشية[٣٠]، الا ان الاستقرار لم يكن شاملا حتى مجيء الامبراطور (Yung-Lo) ١٤٠٣ - ١٤٢٤م الذي قام بنقل العاصمة الى بكين[٣١]، واعاد الهدوء الى البلاد.

وقد اتخذت هذه الدولة لنفسها اسم سلالة منغ (Ming)، وقامت بتوجيه ضربة للوجود المغولي في منغوليا سنة ١٤٠٣م، حيث دمرت عاصمة المغول قراقورم، واصبحت منغوليا بعد هذا جزءا من اراضي الصين[٣٢]، كما مدت الصين نفوذها الى المناطق الجنوبية ومنها مقاطعة يونان[٣٣].

الهوامش

(١) نانكين هي (Shang Chin)في اقليم هونان، ثم نقلت العاصمة بعد ذلك الى Linan (Hang chow)، A.O.H.C.: P.146

(٢) A.O.H.C.: P.146.

(٣) Ibid: P.145-150; راجع كذلك امبراطورية الـ (Chin).

(٤) Bohot, Jean: Chinese and Japanese ART New York 1967 P.104.

(٥) زيادة: المصدر السابق ص.١٢٨؛ Simkin: op.cit P.90

(٦) A.O.H.C.: P.152-153.

(٧) العريني: المصدر السابق ص.١٦٥.

(٨) Files, Teobaldo: Chino and Africa in the Middle Age London 1972,p.26.

(٩) Eberhard: op.cit.p.238.

(١٠) بروي: المصدر السابق مجلد ٣ ص.٢٥٩ - ٢٦١.

(١١) A.O.H.C.: p.152-153.

(١٢) بروي: المصدر السابق مجلد ٣ ص.٢٥٩ - ٢٦١.

(١٣) A.O.H.C.: p.154.

(١٤) Eberhard: op.cit.p.238-239.

(١٥) A.O.H.C.: p.157.

(١٦) Eberhard: op.cit.p.247.

(١٧) A.O.H.C.: p.158.

(١٨) A.O.H.C.: p.158.

(١٩) Ibid: p.157.

(٢٠) Ibid: p.156-157.

(٢١) ماركوبولو: المصدر السابق ص.١٢٩ - ١٣٢.

(٢٢) ماركوبولو: المصدر السابق ص.١٤٧ - ١٥٠.

(٢٣) بروي: المصدر السابق ص.٣٧٧.

(٢٤) Eberhard: op.cit.p.246.

(٢٥) Ibid: p.246.

(٢٦) Ibid: p.247.

(٢٧) Simkin: op.cit.p.141.

(٢٨) Eberhard: op.cit.p.247-248. وقد اطلق على هذه الجماعة التي قادت الثورة اسم جمعية الـ (Red Turbans) السرية. A.O.H.C.: p.159.

(٢٩) Simkin: op.cit.p.141.

(٣٠) بروي: المصدر السابق مجلد ٣ ص.٣٨٨. Eberhard: op.cit.p.250.

(٣١) Simkin: op.cit. p.141.

(٣٢) Needham: op.cit.Vol. 1p.143.

(٣٣) Fitzeraled: op.cit.p.90-91.

مواعيد رحلات طيران الشرق الاوسط الى

الخليج

الكويت :	يوميا	ماعدا السبت	الإقلاع الساعة ١٨.٣٠
الظهران :	يوميا	ماعدا الثلاثاء	الإقلاع الساعة ١٨.٢٠
*البحرين :	يوميا		الإقلاع الساعة ١٧.٥٥
*الدوحة :	يوميا		الإقلاع الساعة ١٧.٥٥
*دبي :	يوميا		الإقلاع الساعة ١٨.١٠
*ابوظبي :	يوميا		الإقلاع الساعة ١٧.٤٠
*مسقط :	أيام الاثنين - الاربعاء والجمعة		الإقلاع الساعة ١٨.١٠
*رأس الخيمة :	يومي الثلاثاء والسبت		الإقلاع الساعة ١٨.١٠

للاستعلامات والحجز راجعوا وكيلكم للسفر المعتمد لدى «اياتا» أو مكاتب الشركة :

مركز جفينور ت : ٣٦٨٠٠٠ — صيدا ت : ٧٢١٤٦٠

مكتب المبيعات في الادارة العامة ت : ٣١٦٣١٦ — طرابلس ت : ٦٢٧٢٧٥

أوتيل الكسندر ت : ٣٣٩٩٣٠ — بحمدون ت : ٥٦٠٥٠٥

مكاتب الحجز تفتح ليلا نهارا ت : ٢٧٤٣٣٠ / ٢٩٢٢٢٠



*بالاشتراك مع طيران الخليج

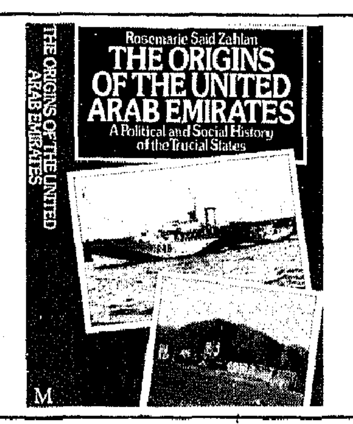


كتب وردتنا

The Creation of
QATAR





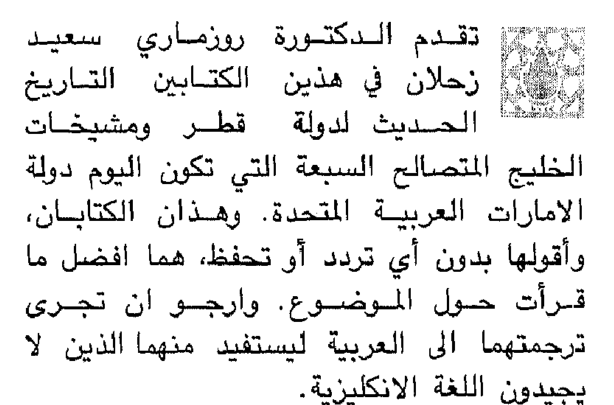


أصول الامارات العربية المتحدة

تكوين دولة قطر

روز ماري سعيد زحلان

مراجعة : د. خلدون ساطع الحصري



تقدم الدكتورة روزماري سعيد زحلان في هذين الكتابين التاريخ الحديث لدولة قطر ومشيخات الخليج المتصالح السبعة التي تكون اليوم دولة الامارات العربية المتحدة. وهذان الكتابان، وأقولها بدون أي تردد أو تحفظ، هما افضل ما قرأت حول الموضوع. وارجو ان تجرى ترجمتهما الى العربية ليستفيد منهما الذين لا يجيدون اللغة الانكليزية.

إن أكثر ما هو منشور عن منطقة الخليج يركز اهتمامه الرئيسي على علاقات الدول الأجنبية بالمنطقة، مهملاً دراسة التطورات في داخل المجتمعات الخليجية. كما أن اكثر ما نشر مكتوب من وجهة النظر الأوروبية، بصورة عامة، ومن وجهة النظر البريطانية، بصورة خاصة. كذلك، أكثر ما نشر لم يستخدم الوثائق البريطانية المتعلقة بالخليج، فان هذه الوثائق لم تكن مفتوحة للباحثين. اما كتابا الدكتورة زحلان فخاليان من هذه العيوب.

ويثير ما كتبته الدكتورة زحلان، ككل الكتابات التاريخية الجيدة، عددا من الأسئلة والملاحظات والخواطر، قد لا يكون لبعضها صلة مباشرة بمنطقة الخليج، او حتى بالفترة الزمنية التي كتبت عنها. واريد ان اسجل هنا بعضها:

ما هي خصائص الاستعمار البريطاني الذي عرفته منطقة الخليج لمدة قرن ونصف؟ ما هي اوجه الاختلاف بينه وبين الاستعمار البريطاني في مناطق آخرى من العالم العربي؟

لربما كان الاستعمار البريطاني في الخليج أسوأ الاستعمارات البريطانية التي ابتلى بها العالم العربي. وذلك لأنه كان من بعض الأوجه «اقوى من اللازم»، ومن بعض الأوجه الأخرى «أضعف من اللازم»، لأنه «تدخل اكثر من

اللازم»، و«لم يتدخل بقدر ما هو لازم» في شؤون المنطقة.

وفي الخطاب الشهير الذي القاه اللورد كورزن عام ١٩٠٢ على شيوخ الشاطىء المتصالح ذكّرهم بأن علاقات بريطانيا بهم تستند الى الاتفاقات والمعاهدات المعقودة معهم والتي وفقاً لها «تصبح الحكومة البريطانية الحاكم الأعلى عليكم والحامية لكم، ولا تكون لكم علاقات مع أية دولة اخرى. كل امارة من الامارات المعروفة بامارات الشاطىء المتصالح قد ألزمت نفسها، كما تعلمون، بأن لا تعقد اي اتفاق وأن لا تقيم اية صلات مع دولة اخرى، وان لا تقبل فيها ممثلاً لأية حكومة اخرى، وان لا تتنازل عن أي جزء من اراضيها. هذه الاتفاقيات ملزمة لكل فرد منكم».

وبهذا الالزام قطعت بريطانيا كل صلات مشيخات الخليج بالعالم الخارجي وبالقوى الخارجية. وهكذا، لم يمنح أي «أجنبي» في فترة ما بين الحربين العالميتين «فيزا»، تأشيرة، لزيارة الشاطىء المتصالح. (وتظهر الوثائق البريطانية التي تفحصتها من مدة في لندن كيف ان السلطات البريطانية ضغطت على امير الكويت ليلغي دعوة كان قد وجهها الى فيصل الأول ملك العراق لزيارة الكويت).

ان عزل مشيخات الخليج عزلاً شبه تام عن العالم الخارجي وتياراته كان عاملاً فعالاً في منع تطويرها وتوحدها. فالوجود الاستعماري البريطاني في الخليج كان يحول، مثلاً، بين السعودية وبين توحيد مشيخات وامارات الخليج، او معظمها، كما اخضعت امارة حائل وعسير لسلطتها المركزية. وكان هذا ممكناً.

وأضرار الاستعمار البريطاني بالنسبة لقضية التوحيد لم تقف عند هذا الحد. وتقول الدكتورة زحلان حول ذلك «وطيلة القرن التاسع عشر، وبسبب المعاهدات المتعاقبة، قوّت بريطانيا الهوية المنفصلة للمشيخات وساعدت حكامها على ان يرسخوا انفسهم بصورة اقوى». كذلك كانت بريطانيا تستطيع ان تعاون احد الحكام المحليين الأقوياء على توحيد المشيخات او بعضها على الأقل، وكان هذا ممكنا على الأرجح خلال الفترة الطويلة لحكم الشيخ زايد الأول، حاكم ابو ظبي القوي، وقد كانت ٤٦ عاماً، امتدت من ١٨٥٥ الى ١٩٠٩.

وهنا انتقل من الاستعمار البريطاني «الأقوى من اللازم»، الى الاستعمار البريطاني «الأضعف من اللازم». ما الذي كانت تريده الامبراطورية البريطانية من تواجدها على الشاطىء المتصالح؟ شيء واحد فقط: حماية خطوط مواصلاتها الى الهند. ولذلك كانت قد حصرت اهتمامها بالشاطىء دون الداخل. وعلى هذا كانت المعاهدة التي عقدتها مع مشيخات الخليج في ١٨٥٣ تمنع هذه المشيخات من التقاتل في البحر. اما ما كان يحدث في الداخل، في اليابسة، فلم تكن تتدخل فيه. وهكذا نرى المقيم البريطاني يكتب في عام ١٩٢٤ عندما كان القتال بين عجمان والشارقة على وشك الوقوع: «نحن لا نريد التورط في نزاعاتهم الداخلية. في الواقع قد يكون من الحظ الحسن (لنا) ان وراء هذه الموانىء (على الشاطىء)، الداخل الذي خلف الشاطىء، وفيه يستطيع هؤلاء ان يصرفوا ما لديهم من حيوية زائدة في العادة العربية السحيقة القدم: الغزو والغزو المضاد، بدون ان يكون لهذا تأثير علينا».

ومن البديهي ان غزو القبائل بعضها لبعض، في العراق مثلاً، لم يكن ممكناً «بدون تأثير» على بريطانيا ومصالحها. ومن هنا كان على بريطانيا ان تتدخل في العراق لايقاف الاقتتال القبائلي (وقد تدخلت فعلاً)، بينما كانت تقف مما يجري في الخليج موقف المتفرج.

إن عدم التدخل البريطاني في «الشؤون الداخلية» لمشيخات الخليج ادى إلى إبقاء أوضاعها على ما كانت عليه، بدون أي تطوير او تحسين، مثل فتح المدارس وشق الطرق وما إلى ذلك. (ولربما كان علينا ان نسجل هنا على الهامش بأن الاستعمار عندما يقوم ببعض الاصلاحات أحياناً، فهذه لا تكون من أجل «سواد عيون» المستعمَر، ولكن لمصلحته هو بالدرجة الاولى. فالمدارس المفتوحة تزود الاستعمار بالكوارد الضرورية من الموظفين لادارة المستعمرة، والطرق تشق لتحقيق اهداف المستعمر العسكرية والاقتصادية). في الخليج كان الأمر مختلفاً. وعلى هذا، في قطر – على

سبيل المثال - بنى الشيخ عبد الله بن قاسم اول مستشفى في عام ١٩٤٣ فقط. والمبادرة هنا كانت شخصية من قبل الحاكم القطري، وليست مبادرة بريطانية. ويمكننا القول بأنه ربما لم يكن للاستعمار البريطاني في الشاطىء المتصالح اي دور ايجابي، باستثناء مكافحته للرق ولتجارة الرقيق.

كذلك أدى انعزال مشيخات الخليج عن العالم الخارجي، وانطوائها على نفسها، الى ابقاء مجتمعاتهم بدوية صرفة، سواء في تركيبها، او في انماط الحياة والعلاقات السائدة فيها. وتلاحظ الدكتورة زحلان ان من اكثر معالم هذه الحياة البدوية ضرراً بمشيخات الخليج كان انعدام نظام ثابت لانتقال الحكم بالوراثة من الحاكم الى اكبر ابنائه سناً، ثم الى اكبر ابناء ذلك الابن الأكبر، وهكذا بالتعاقب. وهو ما يدعى بالانكليزية law of primogeniture. ان فقدان مثل هذا الاجراء الثابت لتوارث الحكم كان يؤدي الى نشوب صراعات عنيفة على الحكم والسلطة لدى وفاة او اغتيال حاكم احدى المشيخات، مما كان يؤثر تأثيراً سلبياً جداً على الحياة الاجتماعية والاقتصادية لسكان المشيخة. ولم تكن فترات عدم الاستقرار المصاحبة لهذه الصراعات قصيرة دائماً. ففي ام القوين، مثلاً، عقب وفاة الشيخ راشد بن احمد في ١٩٢٢، صراع دموي دام سبعة اعوام. وفي ابو ظبي أدت وفاة الشيخ زايد بن خليفة في ١٩٠٩ الى نشوب صراع دام ١٦ عاما، تعاقب على الحكم خلالها اربعة شيوخ.

ولنلاحظ ان الخلافة في التاريخ العربي لم تتخذ لها نظام توارث يعقب بموجبه الابن الأكبر الأب اوتوماتيكيا. لقداتبعت الخلافة، في الواقع، العرف البدوي القديم السابق للاسلام، وفيه لا يتولى الابن الأكبر للشيخ المشيخة عندما تشغر، ولكن يختار لها، من بين بيت الشيخ المتوفي، من هو اكبرهم سناً واحصفهم رأيا وأكثرهم كرما وشجاعة. ومثل هذا النظام للخلافة كانت له في الدولة العربية نتائج سيئة شبيهة الى حد كبير بما كان يحدث في مشيخات الخليج. ومن هنا كان الشهرستاني مصيبا عندما كتب في «الملل والنحل»: «واعظم خلاف بين الأمة خلاف الامامة (اي الخلافة)، اذا ما سل في الاسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الامامة (الخلافة) في كل زمان.»

ان دراسة وتحليل المحاولات الجارية في الخليج لاقامة دول عصرية في مجتمعات قبلية امر هام للغاية بالنسبة لفهم الدول والكيانات السياسية العربية القائمة الآن. ان تجربتي قطر ودولة الامارات العربية المتحدة، مثلاً، تلقي الكثير من الضوء على تجارب الدول العربية الأقدم عهداً، لأن هذه الدول أيضاً قامت في مجتمعات بدوية في الأساس، مع بعض التفاوت في درجة البداوة بين الواحدة والأخرى.

وعلى هذا بامكاننا القول ان الخليج الآن يمكن تشبيهه بمختبر يستطيع فيه عالم السياسة او الاجتماع او الانثربولوجيا دراسة المادة الخام التي صنعت منها الكيانات السياسية العربية القائمة وفهم هشاشتها ونقاط الضعف التي تعاني منها. ■



بسمارك

لأسباب فنية نعتذر عن ارجاء موضوع بسمارك، الذي أعلنا عنه لهذه العدد، إلى العدد المقبل، وسيكون بسمارك عنواناً لأكثر من دراسة في إحاطة وافية بشخصه ودوره السياسي، وأثر ذلك على العالم.



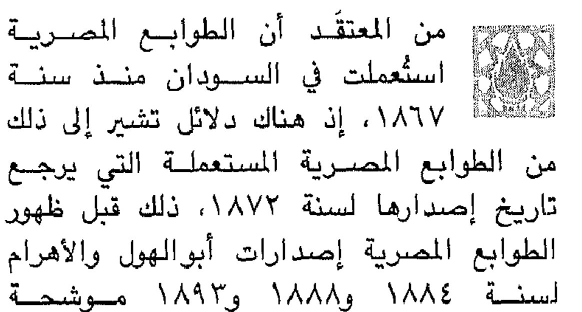
ميشال اسطفان

تاريخ طوابع السودان

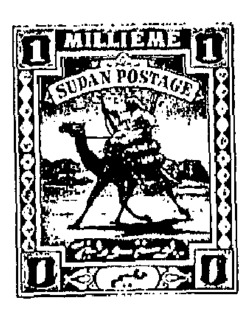
من المعتقَد أن الطوابع المصرية استُعملت في السودان منذ سنة ١٨٦٧، إذ هناك دلائل تشير إلى ذلك من الطوابع المصرية المستعملة التي يرجع تاريخ إصدارها لسنة ١٨٧٢، ذلك قبل ظهور الطوابع المصرية إصدارات أبوالهول والأهرام لسنة ١٨٨٤ و١٨٨٨ و١٨٩٣ موشحة «السودان». (صورة١).

ففي أول آذار/مارس سنة ١٨٩٧ صدرت مجموعة مؤلفة من تسعة طوابع مصرية من فئة مليم واحد إلى عشرة قروش موشحة بكلمة «السودان» بالعربية والافرنجية (صورة ٢)، مع مجموعة موشحة «السودان»، للأجور المستحقة (صورة ٣) فئة ٢و٤ مليمات وقرش واحد وقرشان، وقد حدث خطأ بالمجموعة العادية بفئة المليم الواحد والخمسة مليمات، إذ ظهر التوشيح مقلوباً وأصبح قيمة كل منهما اليوم ٢٠٠ جنيه استرليني ويزيد، ووجد أيضاً طابع الخمسة قروش بتوشيح مكرر وأصبح نادراً جداً.

اما المجموعة الثانية فكانت خاصة بالسودان وهي تمثل صورة ساعي بريد عربي حاملاً بندقية ويمتطي جملا، وهذه المجموعة مؤلفة من ثمانية طوابع من مليم واحد إلى عشرة قروش (صورة٤)، وتميز بعلامة مائية في وسط كل طابع تمثل صورة زهرة. ولكي لا نشوش على القارىء التفاصيل العديدة التي تميزت بها إصدارات السودان المتشابهة ظاهرياً والمكررة سنة بعد اخرى، فضّلنا أن نضعها في اسلوب جديد يسهل معرفتها جميعا.







فللسودان مجموعات للبريد العادي والتذكاري والجوي وللبريد الحكومي ولبريد الجيش وللاجور المستحقة، وهناك كذلك فئات إفرادية صدرت موشحة بفئات اخرى لحاجة البريد لها بسبب شحتها.

فلنبدأ بالمجموعات العادية التي تحمل صورة الجَمَل والعربي ساعي البريد الذي يحمل بندقية.

فبعد المجموعة الاولى من هذا النوع، والتي علامتها المائية زهرة في الوسط صدرت:

مجموعة رقم٤: سنة ١٩٠٢/١٩٢١ - مجموعة الجمل (صورة٤)، مؤلفة من ١١ طابعاً من مليم واحد إلى عشرة قروش بعلامة مائية هلال كبير بداخله نجمة مخمّسة.

مجموعة رقم٥: وفي سنة ١٩٢١/١٩٢٣ - مجموعة الجمل (صورة٤)، مؤلفة من ٧ طوابع حجم صغير من مليم واحد إلى ١٥ مليماً وبالعلامة المائية: الهلال.

مجموعة رقم٦: وفي سنة ١٩٢٧/١٩٤٠ - مجموعة الجمل(صورة٤)، مؤلفة من ١٥ طابعاً من مليم واحد الى ١٥ مليما حجم صغير و من قرشين إلى ٢٠ قرشا وبعلامة مائية «S.G.».

المجموعة رقم٧: وفي سنة ١٩٤١ آذار/مارس وآب/اغسطس - مجموعة تحمل صورة النخيل مؤلفة من ١٥ طابعاً من فئة مليم واحد الى ١٥ مليماً حجم صغير وقرشان الى ٢٠ قرشا حجم كبير قيمتها اليوم حوالي ٥٠ جنيها استرلينيا.

مجموعة رقم٨: وفي سنة ١٩٤٨ - أول كانون الثاني/يناير - مجموعة الجمل، ولكن تحمل أسم «بريد السودان» بدلاً من «بوستة سودانية»، مؤلفة من ١٦ طابعاً من مليم واحد الى ١٥ مليما حجم صغير وقرشان الى ٥٠ قرشا حجم كبير بعلامة مائية «S.G.».

مجموعة رقم٩: وفي سنة ١٩٥١ - أول أيلول/سبتمبر - مجموعة مختلفة المناظر من حيوانات وعمال ومؤسسات صناعية، مؤلفة من ١٧ طابعاً من مليم واحد إلى ١٥ مليماً حجم صغير ومن قرشين إلى ٥٠ قرشا حجم كبير وبعلامة مائية «S.G.».

وفي سنة١٩٠٣ أيلول/سبتمبر - طابع الجمل فئة الخمسة قروش من إصدار ١٨٩٨ موشحا بفئة ٥ مليمات وحدث أن توشح مقلوباً وبكمية محدودة جداً وقد أصبحت قيمته اليوم ١٨٠ جنيها استرلينيا.

وفي سنة ١٩٤٠/١٩٤١ - ٢٥ شباط/فبراير - طابع الجمل فئة ١٠ مليمات موشحا بفئة ٥ مليمات وطابع آخر فئة ٥ مليمات موشحا ½٤ قرشا وطابع ثالث فئة ٨ قروش موشحا أيضاً ½٤ قرشا. قيمتهم



اليوم تزيد على ١٢ جنيهاً استرلينيا.

أما للبريد الجوي فقد صدر:

في سنة ١٩٣١ - ١٥ شباط/فبراير وأول آذار/مارس مجموعة الجمل (صورة٤)، موشحة بكلمة «AIR MAIL» أي بريد جوي، فئة ٥ و١٠ مليمات حجم صغير وقرشان حجم كبير.

وفي سنة ١٩٣١ - أول ايلول/سبتمبر - مجموعة تمثال الجنرال غوردن (صورة٥) مؤلفة من ١٢ طابعا تخريم ١٤ × ١٤، وفي سنة ١٩٣٧ مجموعة من الصورة ذاتها مؤلفة من ٨ طوابع فقط، تخريم ½١١ في ½١٢.

وإيضاحا لمقاس التخريم فانه يعتبر ضمن قياس من سنتمترين فقط، أي عدد الأسنان يجب ان يطابق ضمن ٢ سنتمتر.

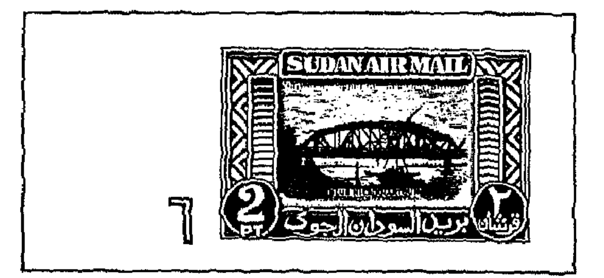
وفي سنة ١٩٣٢ - ١٨ تموز/يوليو - طابع واحد فئة قرشان (صورة٤)، موشحا «AIR MAIL» في الوسط و ½ ٢بالافرنجي في الزاويتين العليا، و½٢ بالعربي في الزاويتين السفلى.

وفي سنة ١٩٣٥ - مجموعة مؤلفة من ٦ طوابع موشحة بفئات، ١٥ مليم على ١٠م و½ ٢ قرش على ٣م و½٢ق على ٥م و٣ق على ½ ٤ و½ ٧ على ½ ٤ق و١٠ق على ½ ٤ق وقد حدث أخطاء عدة في التوشيح منها المقلوب ومنها المكرر؛ نذكر أهمها وهو أول طابع بتوشيح مكرر قيمته اليوم ٥٠٠ جنيه استرليني، وكذلك الثالث بتوشيح مكرر قيمته أيضاً ٥٠٠ جنيه استرليني.

وفي سنة ١٩٣٨ - أول تموز/يوليو مجموعة من ٤ طوابع موشحة بفئات مختلفة عن الاصلية، ٥م/ ½ ٢ق و٣ق/ ½ ٣ق و٣ق/ ½ ٧ق و٥ق/١٠ق، وهناك الثلاث فئات الأخيرة صدرت بتخريم مختلف عن الأول وهو

١١½ ½ ١٢ بدلاً من ١٤ × ١٤ أصبحت قيمتها اليوم ٨٢٥ جنيهاً استرلينياً.

وفي سنة ١٩٥٠ - أول تموز/يوليو مجموعة مؤلفة من ٨ طوابع تحمل صوراً مختلفة (صورة٦)، من فئة قرشين إلى ٢٠ قرشاً.



٦

أما الطوابع التذكارية فقد صدرت هكذا:

ففي سنة ١٩٣٥ - أول كانون الثاني/يناير، صدرت مجموعة تذكارية لمناسبة الذكرى الخمسين لوفاة الجنرال غوردن مؤلّفة من ٩ طوابع، ٤ منها تحمل صورة الجنرال وثلاث لكلية غوردن في الخرطوم والاثنتان الاخيرتان تحملان صورة لخدمة العلم مع صورة الجنرال في الزاوية اليمنى العليا، وقيمة هذه المجموعة اليوم تساوي ٨٠ جنيهاً استرلينياً.

وفي سنة ١٩٤٨ تشرين الاول/اكتوبر، صدر طابع بفئة قرشين صورة الجمل لمناسبة العيد الخمسيني لأول طابع سوداني.

وفي سنة ١٩٤٨ - كانون الاول/ديسمبر صدر طابعان فئة ١٠ مليمات وخمسة قروش صورة الجمل لمناسبة افتتاح الجمعية التشريعية.

وقد صدر للاجور المستحقة ٣ مجموعات بعد الأولى الموشحة وهي:

سنة ١٩٠١ اول كانون الثاني/يناير مؤلفة من ٢،٤،١٠،٢٠ مليماً صورة باخرة حربية نهرية، ولكن بعلامة مائية الهلال.

وفي سنة ١٩٢٧/١٩٣٠ مجموعة مؤلفة من ٢،٤، و١٠ مليمات صورة الباخرة النهرية ذاتها ولكن العلامة المائية «S.G.».

وفي سنة ١٩٤٨ - أول كانون الثاني/يناير، مجموعة من ٢،٤،١٠و٢٠ مليماً صورة الباخرة النهرية ذاتها ولكن باسم «بريد السودان» بدلاً من «بوستة سودانية» والعلامة المائية «S.G.».

وللبريد الحكومي مجموعات عدة نذكرها كالآتي:

ففي سنة ١٩٠٠ - ٨ شباط/فبراير، طابع واحد فئة ٥ مليم صورة الهرم وأبو الهول الموشح «السودان» باللغتين، إصدار المجموعة الأولى، مخرماً في الوسط بحرفي «S.G.» أي حكومة سودانية، قيمته اليوم حوالي ٣٠ جنيهاً استرلينياً.

وفي سنة ١٩٠١ - كانون الثاني/يناير - طابع واحد فئة مليم واحد(صورة٤)، إصدار المجموعة الثانية مخرماً في الوسط بحرفي «S.G.»، قيمته اليوم ٢٢ جنيهاً استرلينياً.

وفي سنة ١٩٠٢ - طابع واحد فئة مليم واحد (صورة٤)، إصدار المجموعة الثانية ولكن موشحاً «O.S.G.S.» أي (ON SUDAN GOVERNMENT SERVICE) ما معناه لخدمة الحكومة السودانية. وفي هذا الاصدار حدثت أخطاء كثيرة منها التوشيح المقلوب أو المكرر وغير ذلك قيمتها اليوم تتراوح بين ٥٠ و١٦٠٠ جنيه استرليني.

وفي سنة ١٩٠٣/١٩١٢ - طابع الجمل أيضاً فئة ١٠ قروش موشحاً «O.S.G.S» بعلامة مائية «الزهرة» مع مجموعة كاملة من ١،٣،٥ مليم وقرش واحد وقرشان و٥ و١٠ قروش صورة الجمل أيضاً موشحة «O.S.G.S» وبالعلامة المائية الهلال.

وفي سنة ١٩٣٦ الى ١٩٤٦ - مجموعة موشحة «S.G.» صورة الجمل مؤلفة من ١٥ طابعاً من مليم واحد إلى ٢٠ قرشاً.

وفي سنة ١٩٤٨ - أول كانون الثاني/يناير مجموعة رقم ٨ موشحة بحرفي «S.G.» صغيرين لفئة مليم واحد إلى ١٥ مليماً وبحرفين كبيرين للباقي.

وفي سنة ١٩٥١ - أول أيلول/سبتمبر، مجموعة رقم٩ موشحة بالطريقة ذاتها ظهر منها طابع فئة قرش واحد بتوشيح مقلوب قيمته اليوم ٣٥٠ جنيهاً استرلينياً، وطابع فئة ٢٠ قرشاً مقلوباً أيضاً قيمته اليوم ٢٧٥ جنيهاً استرلينياً.

وفي سنة ١٩٦٢ - ثلاثة طوابع فئة ١٠،٥، و١٥ مليماً من المجموعة رقم٩ أيضا موشحة بحرفي «S.G.» حرف رفيع يختلف عن الأول.

الآن جاء دور الطوابع الخاصة بالبريد العسكري:

ففي سنة ١٩٠٥ - كانون الثاني/يناير، طابع الجمل فئة مليم واحد علامة مائية الهلال، موشحا «ARMY OFFICIAL» أي رسمي عسكري، توشيحا عمودياً بأحرف سميكة ومرة اخرى بأحرف أصغر. والطابع ذاته ظهر بتوشيح أفقي مرة بالأحرف السميكة واخرى بالصغيرة. قيمتها اليوم ١٦٠ و١١٠٠ جنيه استرليني. ومرة رابعة ظهر الطابع بتوشيح عمودي ولكن مقلوباً وبالأحرف السميكة والصغيرة أيضا، قيمتها اليوم ١٦ و٢٢٥ جنيها استرلينيا.

وفي السنة ذاتها تشرين الثاني/نوفمبر، طابع الجمل فئة مليم واحد ولكن بعلامة الزهرة المائية موشحا «ARMY OFFICIAL» بالأحرف السميكة والصغيرة إيضا، قيمتها اليوم ٦٠ و٧٥٠ جنيها استرلينيا.

وفي سنة ١٩٠٦/١٩١١ كانون الثاني/يناير مجموعة من ٩ طوابع موشحة «ARMY SERVICE» أفقيا، من مليم واحد إلى ١٠ قروش قيمتها اليوم حوالي ٤٠٠ جنيه استرليني، وظهر بها أخطاء عدة منها المقلوب والمكرر او جزء من التوشيح غير موجود أو مغلوط قيمتها تتراوح بين ١٣٠ و٢٥٠٠ جنيه استرليني، والمجموعة من مليم واحد إلى قرش واحد توشحت أيضا «SPECIMEN» أي نموذج قيمتها اليوم ٣٠٠ جنيه استرليني.

وأخيراً وبنفس التاريخ ثلاثة طوابع فئة قرشين وخمسة قروش و١٠ قروش بعلامة مائية الزهرة، موشحة بالتوشيح ذاته قيمتها اليوم ٨٠ جنيها استرلينيا. وتوشحت «SPECIMEN»، وقيمة الثلاث طوابع اليوم ٢٧٥ جنيها استرلينيا.

وهناك مجموعات منذ سنة ١٩١٢ مخرمة «S.G.» أو «A.S.» لا يسجلها القاموس الانكليزي «Gibbons» إنما هي موجودة ومذكورة في الكتالوج الافرنسي «YVERT» وتفاصيلها كالآتي:

سنة ١٩١٢/١٩٢٢ - تسعة طوابع من المجموعة العادية رقم٤، من مليم واحد إلى ١٠ قروش ما عدا طابعان فئة الأربعة مليمات مخرمة «A.S.» وتسعة اخرى من الفئات ذاتها مخرمة «S.G.».

سنة ١٩٢٢/١٩٢٥ - ثلاثة طوابع من المجموعة العادية رقم٥ فئة ١٠،٥،٢ مليمات مخرمة «A.S.» وأربعة طوابع اخرى من المجموعة ذاتها فئة ٥،٤،٣ و١٠ مليمات مخرمة «S.G.».

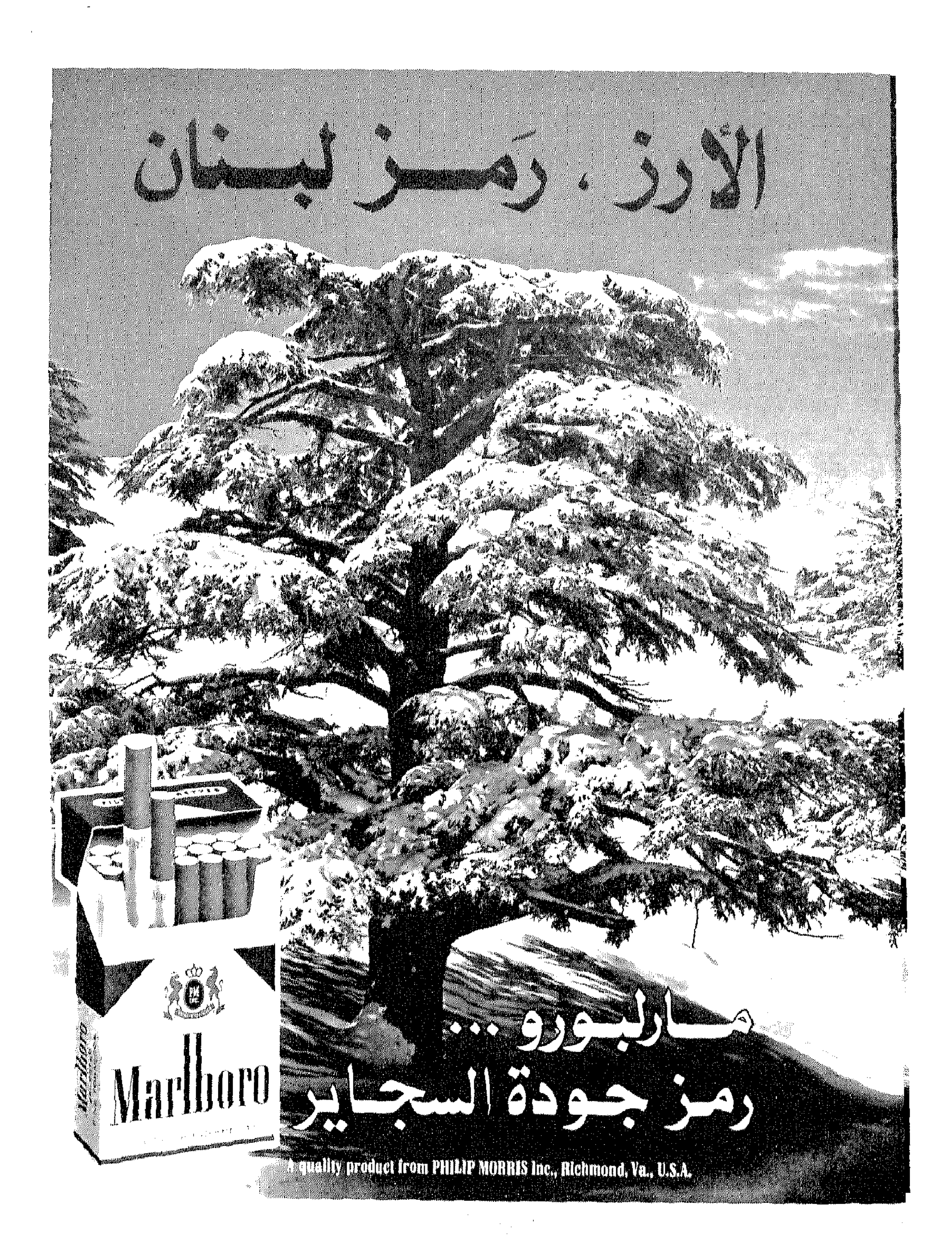
سنة ١٩٢٧/١٩٢٨ - سبعة طوابع من المجموعة العادية رقم٦ فئة ٥،٤،٣ و١٠ مليمات و٥،٢، و١٠ قروش مخرمة «S.G.».

وفي سنة ١٩٥٤ - ٩ كانون الثاني/يناير، صدرت أول مجموعة من ثلاثة طوابع صورة الجمل لذكرى الحكم الذاتي، وبالخطأ صدر عدد من المجموعات تحمل سنة ١٩٥٣ بدلاً من ١٩٥٤، قيمتها اليوم ١٢ جنيها استرلينيا.

وفي أول كانون الثاني/يناير سنة ١٩٥٦ حصلت السودان على استقلالها وأصبحت جمهورية مستقلة بعد أن كانت تحت الحكم المشترك الانكليزي المصري، بموجب اتفاقية ١٩ كانون الثاني/يناير سنة ١٨٩٩.

وفي سنة ١٩٥٦ - ١٥ ايلول/سبتمبر، صدرت أول مجموعة تذكارية لمناسبة الاستقلال مؤلفة من ثلاثة طوابع فئة ١٥ مليما، ٣و٥ قروش، صورة خريطة السودان بجناحين.

ثم درجت الاصدارات العادية والتذكارية للمناسبات العديدة أسوة بباقي البلاد العربية، منها الاصدارات الوطنية، ومنها المجموعات المقررة من قِبَل جامعة الدول العربية وجمعية الأمم المتحدة، نذكر منها الذكرى الخامسة لوفاة الإمام الصدّيق المهدي والسياسي مبارك زروق ومحمد نور الدين وعبد الله الفاضل المهدي وأحمد يوسف هاشم ومحمد أحمد المرضي والامبراطور هيلاسيلاسي والزعيم الراحل جمال عبد الناصر. ■



الأرز، رمز لبنان
Marlboro
مارلبورو ...
رمز جودة السجاير
A quality product from PHILIP MORRIS Inc., Richmond, Va., U.S.A.

الى القراء الأعزاء.

لم تزل مجلة «تاريخ العرب والعالم» تفتح صفحاتها لكل قارىء ولكل طالب دراسات تاريخية، يريد اطلاعنا، جميعاً، على موضوع تاريخي مهم او يكشف عن حقائق لم يعطها الباحثون حقّها بعد، أو ان يعرّفنا على مدينة او حي من وطننا العربي الكبير، بمقالة علمية او بصورة فنية، ونحن دائماً بشوق لمعلومات جديدة يضيفها قراؤنا.

وكنّا - خلال السنتين الماضيتين - قد أفرزنا لكل جانب من رسائل القرّاء باباً خاصاً، ورصدنا للمجلين منهم جوائز.. وقد رأينا ان نتاج القرّاء يصب عموماً في منحى واحد، فلذلك وتوفيراً للمساحة، سنضم - ابتداء من مطلع السنة الثالثة - ما نختاره من جيد الرسائل في باب «القراء يكتبون»، آملين ان يرضي القرّاء الأعزاء، بغناه وتنوعه. أما الجوائز فستزداد وترصد لمسابقة كبرى تهم الجميع.

... أريحا... أقدم مدينة على سطح الأرض

مهد التاريخ:

دلت الحفريات الاثرية (١٩١١ - ١٩٣٠ - ١٩٥١م) انّ هذه المدينة ترجع بأصولها إلى ما قبل التاريخ المدوّن، اي ما قبل الكنعانيين إلى سنة ٧٨٠٠ق.م. والدكتور عوني الدجاني وزير الآثار العامة الاردني يؤكد هذه الحقيقة فيقول: «إنّ مدينة آريحا هي اقدم مدن العالم على الاطلاق، كما بينها علم الآثار حتى اليوم، وهي اقدم من مدينة دمشق بخمسة آلاف سنة، وقد كانت آريحا مأهولة بالسكان قبل ايام ابي الانبياء ابراهيم الخليل (عليه السلام) بحوالي ستة آلاف سنة وقد ثبت بأدلّة تاريخيّة اثرية انَّ تدجين الحيوان ومعرفة الفلاحة والزراعة الاولى نشأت في هذه البقعة من الارض بالذات».

كيف دخلها اليهود اول مرّة؟

فكّر سيدنا يعقوب (المعروف باسم اسرائيل) بالنزوح مع قومه الاسرائيليين عن ارض الكنانة (مصر) لما لاقاه وقومه من قساوة المصريين، وكان ذلك على عهد سيدنا موسى، (عليه السلام)، الذي تربّى في بلاط رعمسيس الثاني، (فهو مصري المولد اسرائيلي الوجدان) قتل يوماً احد المصريين وقد رآه يعذّب واحداً من الاسرائيليين، وخشي انتقام المصريين له منه فهرب إلى صحراء التيه حيث تزوج هناك بابنة النبي شعيب (عليه السلام) واتجه بقومه إلى سيناء حيث عانوا جوعاً وعطشاً فأكرمهم الله بالمنّ والسلوى والماء الفرات لكنّ قومه كفروا جميعاً واستمروا في ضلالهم يعمهون. حاول موسى عبور فلسطين من ناحية سيناء لكنه لاقى مقاومة شديدة من اهلها ولم يفلح فاتجه إليها من جهة شرق الاردن حيث وافته المنيّة هناك، قرب مادبا.

خلفه القائد اليهودي السّفّاح، يوشع بن نون، احد الذين دخلوا فلسطين كجواسيس عام ١١٨٦ق.م. مع جنده (٤٠ الفاً) حيث ارتكبوا مجزرة بشعة قتلوا فيها ملك المدينة ومثّلوا بالاهل جميعاً، كما ورد في سفر يوشع والإصحاح السادس (١٧ - ٢٥): [صعد الشعب إلى آريحا، واهلكوا كل من بالمدينة من رجل وامرأة وطفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحدِّ السّيف واحرقوا المدينة بالنار مع كلّ ما بها. إنّما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد اجعلاها في خزنة الربّ].

آريحا الاسم والموقع والعهد الذهبي..

يقال انّ (آريحا) سميت كذلك نسبة للحفيد الرابع لسيّدنا نوح عليه السّلام، قال الحموي في معجم البلدان (سُمّيت باسم آريحا آرفخشد بن سام بن نوح، عليه السلام) ولم يتغيّر اسمها حتى اليوم، كما هو الحال مع اغلب اسماء المدن!

ونجد هناك مدناً وقرى اخرى ببلاد الشام اطلق عليها هذا الاسم فهناك، آريحا السورية، عروس مصايف الشمال السوري (جنوب ادلب ١٢ك.م) وقرية آريحا في سهل البقاع (٢ك.م) شمال بعلبك بلبنان. وغيرها مما لم نذكر هنا.

تلفظ آريحا اليوم (ريحا) وهي كلمة سريانية بمعنى (الرائحة والاريج) تقع على مسافة ٣٨ك.م شمال شرقي القدس، ٨ك.م غربي نهر الاردن، ونحو ذلك شمال غربي البحر الميت. طمع الطامعون، وتعاقب على آريحا الحضارات المختلفة، ومن اشهر ملوكها القدماء الامبراطور الروماني هيرودوس الذي ابتاعها من الامبراطورة كليوباترة وهذه كانت قد تلقّت (آريحا) هدية فاخرة من الاخير عام ٣٥ق.م لخصبها وجودة ثمرها. فاشتراها هيرودوس الكبير الذي اعجب بالمدينة لموقعها، وبنى مدينة جديدة، جنوب المدينة القديمة، اقام فيها الحدائق والمسارح والقصور، وميادين السباق، جاعلاً منها مشتى عالمياً رائعاً. لكن آريحا الرومانية هذه لم تعمر طويلاً فقد دمرتها الحروب بين الفرس والروم.

* * *

دخلت آريحا في حكم العرب والمسلمين في القرن السابع الميلادي، وكانت تابعة لمحافظة الرملة ضمن فلسطين. وكانت آريحا مدينة الغور، واهلها من قوم قيس وبها جماعة من قريش.

عام ١٩١٠ صارت آريحا ناحية بدلاً من قرية، وحاكمها مدير يتبع متصرف القدس. هذا على عهد العثمانيين.

وفي ٢١ شباط ١٩١٨ سقطت آريحا بيد الانتداب البريطاني البغيض.

في ١٤ ايّار ١٩٤٨ تولّاها الجنرال اللنبي قائد القوات الدولية وقتذاك وعلى اثر النكبة الفلسطينية نزلها العائدون الفلسطينيون فعمّروها واعادوا لها عزتها ومجدها.

في الاول من ديسمبر عام ١٩٤٨ عقد مؤتمر آريحا لضمّ الضفتين، وبويع الملك عبد الله بن الحسين ملكاً على الضفتين الغربية المتبقية من فلسطين على اثر الاحتلال الصهيوني وابتلاع فلسطين والشرقية من الاردن، تحت اسم المملكة الاردنية الهاشمية.

كانت آريحا آخر المدن التي امتدّ لها اخطبوط الاحتلال الاسرائيلي في حزيران عام ١٩٦٧ م ومنذ احتلاله لها وهو يقيم حولها المستوطنات العسكرية والزراعية، وبلغ عدد المستعمرات التي انشأها حتى اليوم سبع مستوطنات ويعدّ لإقامة ست مستوطنات أخرى.

— الا ردّ الله غربة آريحا وفلسطين وكل ديار العرب والمسلمين.

آثار آريحا: عين السلطان — دير قرنطل — بيت جبر الفوقا والتحتا.

خربة المفْجَرْ ٢,٥ك.م من آريحا وبها قصر هشام بن عبد الملك الاموي، يقال انّه تعرض لزلزال شديد قبل إتمام بنائه بأربع سنوات، لاحتوائه على اصنام وهياكل بشرية وحيوانيّة، فلم يتمكن الخليفة الاموي من سكناه.

دير القديس يوحنا المعمدان — قصر حجلة او دير حجلة — خربة المغيفر — العوجا وخربها الفوقا والتحتا.

افاض المؤرخون والرحالة العرب المسلمون والاجانب بخيرات آريحا وكثرة زرعها من نخيل حتى دعوها في يوم ما بمدينة النخيل.

ومن هؤلاء العرب المسلمين، ياقوت والمقدسي والبكري والقزويني وابو الفداء، ومن الاجانب، س. ف. فولني الفرنسي في رحلته للشام ١٧٠٣ – ١٧٨٥ م والرحالة الإنجليزي ايليو واربرش عام ١٨٤٣ والفرنسيان جاسان وسافنياك قبل الحرب العالمية الاولى.

عبد الغني محمود
عمّان – الاردن.

الدرعية «التاريخ والمجد»

الدرعية صدى تاريخ، ومنطلق مبدأ، ورمز حضارة ومثل امة .. الدرعية اسم منسوب للدروع من بني حنيفة سكنوا هذه المنطقة حقبة من الزمن فبقيت النسبة وباد المنسوب إليه، وهي منقولة من مدينة في القطيف تنسب ايضاً للدروع، فهاجر منهم رهط يرأسه «مانع المريدي» الجد الثالث عشر للملك عبد العزيز من القطيف ووفدوا على ابن عمهم في وادي صنيفة فأكرم مثواهم وانزلهم من جانب ملكه في قرار ومعين، اعطاهم «المليبيد» و «غصيبة» وما بينهما فسموه الدرعية انطلاقاً من احد التعليليين السابقين وكان ذلك حوالي سنة ٨٥٠ هـ. وسع آل المريدي نفوذهم على الجزء الاكبر والاهم من هذا الوادي عبر ما يقارب ثلاثة قرون ليكون الزمن ١١٣٩ هـ والحاكم «محمد بن سعود بن محمد بن مقرن» والمدينة هي الدرعية.

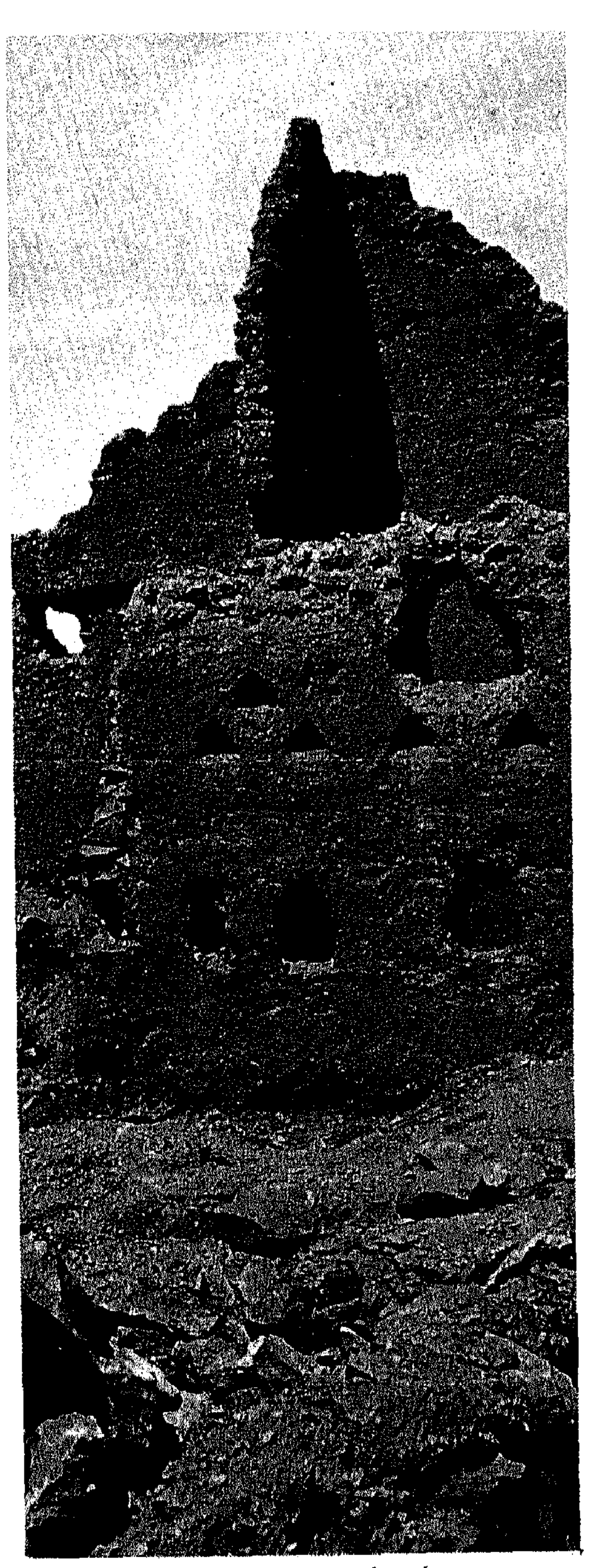
الدرعية ودعوة ابن عبد الوهاب:

قدم محمد بن عبد الوهاب إلى الدرعية لنشر دعوته، فتحمل اهل الدرعية هذه الدعوة وجاهدوا في سبيلها، وبدأت تنتشر الدعوة من الدرعية إلى المناطق المجاورة، وانتشرت الحركة الوهابية في انحاء الجزيرة العربية وامتدت إلى اطراف العراق وبلاد الشام، وكانت تدعو إلى التمسك بمبادىء الدين الاسلامي الحنيف إلى التحرر والاستقلال عن العثمانيين.

معارك الدرعية التاريخية:

اخذت الاستانة توجس من محمد بن عبد الوهاب ومن حركته، وقررت ان تضرب عصفورين بحجر، عن طريق تكليف محمد علي والي مصر بضرب الدرعية.

– ارسل محمد علي جيشاً بقيادة ابنه طوسون، فلقيهم النجديون في وادي الصفراء



أحد أبراج حي الطريف

بين ينبع والمدينة فهزمهم النجديون وقضوا عليهم.

– قاد محمد علي الحملة الثانية بنفسه فدخل الحجاز وابعد النجديين بعد عدة حروب جرت بينهم وبين ابنه طومسون في الحملة الثانية.

– ارسل محمد علي حملة ثالثة بقيادة ابنه ابراهيم فهزم النجديين على منهل «ماوية» وسار نحو الدرعية ماراً بالاماكن التالية: الرس، القصيم، شقراء، العارض، ضرمى، ثم الدرعية.

لقد حاربته الدرعية في عدة معارك اشهرها: موقعة الحريقة، موقعة السليماني، موقعة ناظرة، موقعة التليدة، موقعة كتلة، موقعة خيس نصر الله، موقعة فليقل. لقد ابلى اهل الدرعية بلاء الابطال وسقطت الدرعية، وتوالت الحملات ودمرت الدرعية واهلها ابيدوا وشردوا.

معالم الدرعية الباقية:

– زاوية لا تزال قائمة من قصر سعود بن عبد العزيز اسمها سلوى.

– قصر سعد بن سعود وبيت المال وحصن الدريشة ومسجد الطريف وقصر عمر بن سعود.

– ثلاثة اسوار خلف الدرعية لا تزال تشهد على عظمة وقوة البناء.

– سوق الدرعية على ضفتي الوادي وتتوزعه الاسواق الفرعية بمختلف الاجناس والسلع.

هذه هي الدرعية رمز تاريخ وقاعدة عقيدة وركيزة حضارة ومنطلق امة.

يوسف حسن ابو حجر
– سورية – دمشق

ماري - تل الحريري

منذ القرن الثلاثين ظهر في سورية الشعب السامي الأقدم / العموريون / الذي توزعت جموعه بالتدريج أولاً في وادي الفرات حيث قامت مدينة ماري (تل الحريري) وكان اكتشافها مفاجأة تاريخية أثرية عام ١٩٥٥ /م/ بعد غياب أربعين قرناً في عالم النسيان، فقد كشفت التنقيبات عن عشرين ألف لوح سماري وهو عدد لم تقدمه أي مدينة غير نينوى، وتمثل وثائق ومحفوظات (زمري ليم) آخر ملوك المدينة (١٧٣٠ – ١٧٠٠ق.م) وفي الألواح وثائق اقتصادية ورسائل ملكية وتقارير إدارية بددت الكثير من ظلمات تلك العصور.

أما القصر الذي وجدت فيه فهو أكبر قصور الشرق الأدنى القديم (٢٠٠ × ١٢٠٠) وفيه ٣٠٠ غرفة بألواح جدارية متقنة الإطارات والرسوم للرجال والآلهة وبعضها ملوّن بأزهى الألوان، وفي القصر تسهيلات للاستحمام وتصريف المياه وروعة البناء تجعلنا نصدق ما يقوله أحد الألواح فيه من أنه كان أحد مراكز الفرجة والمتعة في العالم.

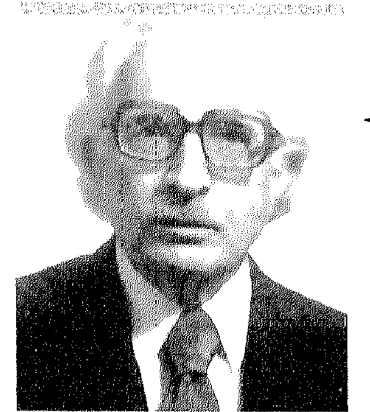
وتكشف أجنحته وصالاته ووثائقه انه كان المركز السياسي والإداري لملكة واسعة تمتد حتى أواسط سورية. وكانت ماري عقدة التجارة الهامة بين أقطار الحضارات القديمة كلها وهذا ما يفسر غناها الواسع وقدرتها على الدفاع عن نفسها وعلى توسيع المملكة التابعة لها ويفسر بالمقابل حقد الشعوب المجاورة وطمعها فيها حتى إذا ظفرت بها أيام حمورابي احرقتها ودمرتها التدمير النهائي على أنها بين هذا وذاك وخلال الألف الثالثة والثانية ق.م. سجلت واحدة من أقدم وأهم الحضارات التي عرفتها سورية القديمة.

وليد إبراهيم الأسود.
سورية – دمشق

المراجع:

– تاريخ سورية القديم – الدكتور هشام الصفدي.
– منشورات مديرية الآثار والمتاحف بدمشق.

رأي حر



د. نقولا زيادة

طلب مني صديقي الاستاذ فاروق البربير صاحب «تاريخ العرب والعالم» كلمة لتنشر في رأي حر. وكان طلبه عزيزاً علي. وأردت أن ألبيه، وتأخرت. فعتب وحسب الأمر تمنعاً وتدللاً. والواقع ان ما أنفقته من الجهد والوقت في سبيل كلمة للرأي الحر (أو لرأي حر)، كان يكفي لاعداد ثلاث مقالات لمجلته.

ولكن لماذا هذا التأخر.

الرأي متيسر، فانني أحسب ان كل شخص يمكنه أن يكون له رأي في قضية من القضايا - من الماضي، من الحاضر، نحو المستقبل؛ في المجتمع، في السياسة، في الاقتصاد، في الأدب، في الفنون التشكيلية وغيرها.

فالرأي ليس مشكلة.

المشكلة هي في الصفة التي ألزم بها صاحبي طلبه - حر.

هل باستطاعتي، أنا الرجل العادي في مجتمعنا العربي، أن يكون لي رأي حر؟ ما هي الأمور التي تمنعني، ولا أقول قد تمنعني؟

الماضي كله يمنعني من إبداء الرأي الحر، والحاضر يجثم علي بحيث لا أستطيع أن أبدي رأياً حرّاً. المجتمع مستعد أن يحاسبني. ولست أخشى الحساب، فذلك أمر أرحب به لأتعلم من الحساب والنقد. لكن الذي أخشاه طريقة الحساب، وطريقة المناقشة، وأسلوب الجدل.

نعم يا أخي القارىء.

وإذن فما العمل؟ لا بد من تلبية طلب الصديق، ولا بد من الكتابة عن رأي حر.

إذن فلأكتب عن شيء تعود آثاره علي وحدي. صحيح؛ لكن حتى هذا فيه محاذير. فمن الذي يضمن لي أن لا يسيء البعض تفسير ما أقوله عن نفسه، ويحسب انه هو المقصود، وعندها يأتي لمحاسبتي بأسلوبه وطريقته؟

فاذا كان لا بد من إبداء **رأي حر، وعن نفسي أنا**، فلا يجوز أن يتعلق باللباس، أو تربية الأولاد، أو نقد كتاب أنا واضعه.

وإذن، وإذن؟

وبعد إعمال الفكرة رأيت ان أكتب عن الكِيْلُوس والكِيْمُوس.

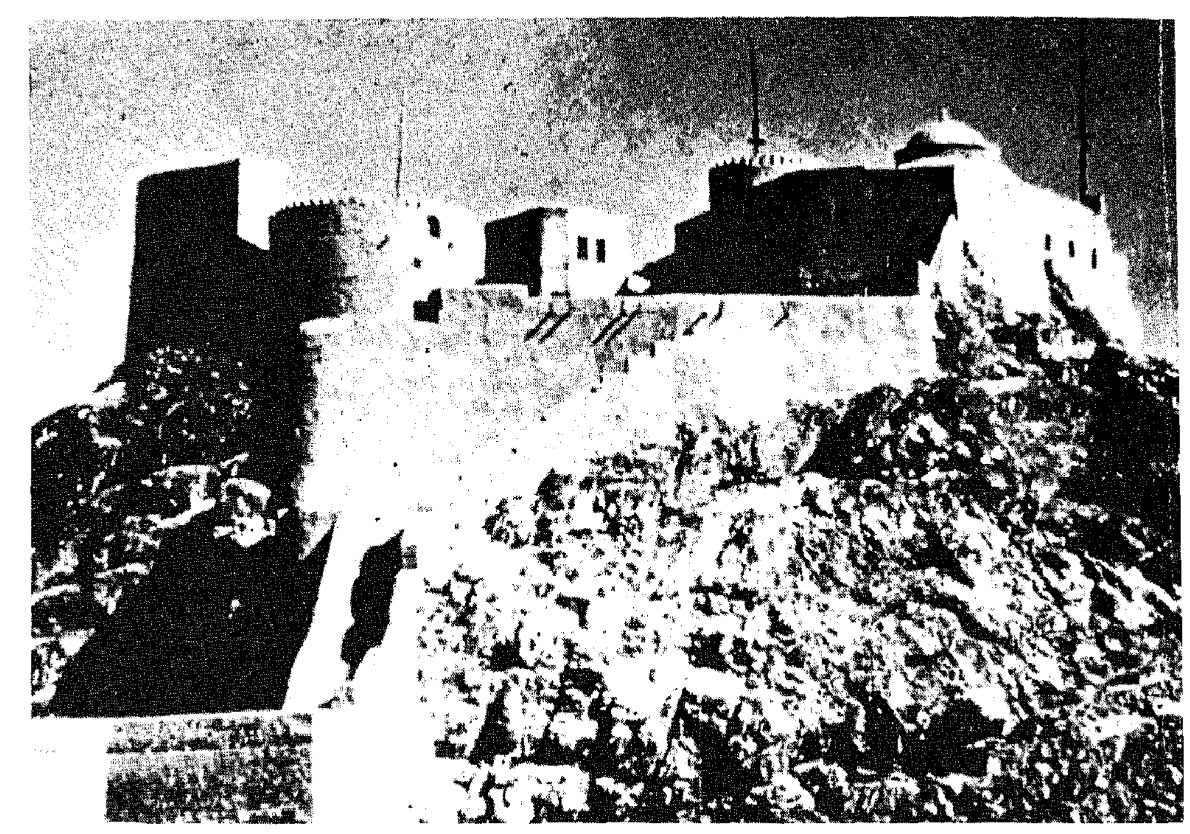
والكِيْلُوس، يا أخي القارىء، هو الطعام الذي آكله أنا، والذي تطحنه معدتي، فيصبح كالعجين، وذلك قبل أن ينتقل من معدتي إلى أمعائي.

والكِيْموس هو خلاصة الغذاء التي تمتصها أمعائي من الكيلوس القادم من معدتي. فمتى امتصت أمعائي حاجتها؛ خرج الباقي في طريقه.

لما وصلت إلى هذا الحد شعرت بالراحة. لقد أبديت رأياً، وكنت في إبدائه حرّاً. فهذا يا فاروق رأي حرّ.

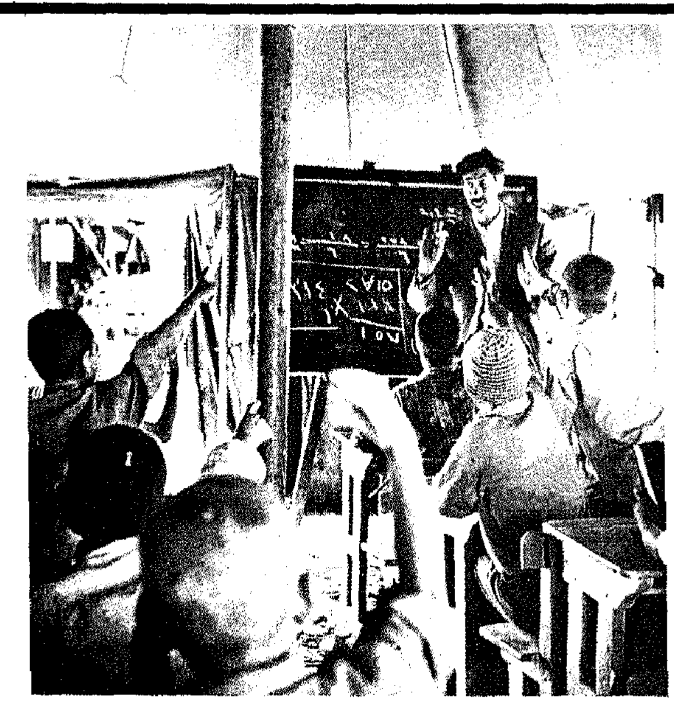
ولكن أيحق لي أن أكون حرّاً إلى هذا الحد؟
هذا السؤال أتركه إلى من يكتب بعدي ■

في العدد المقبل



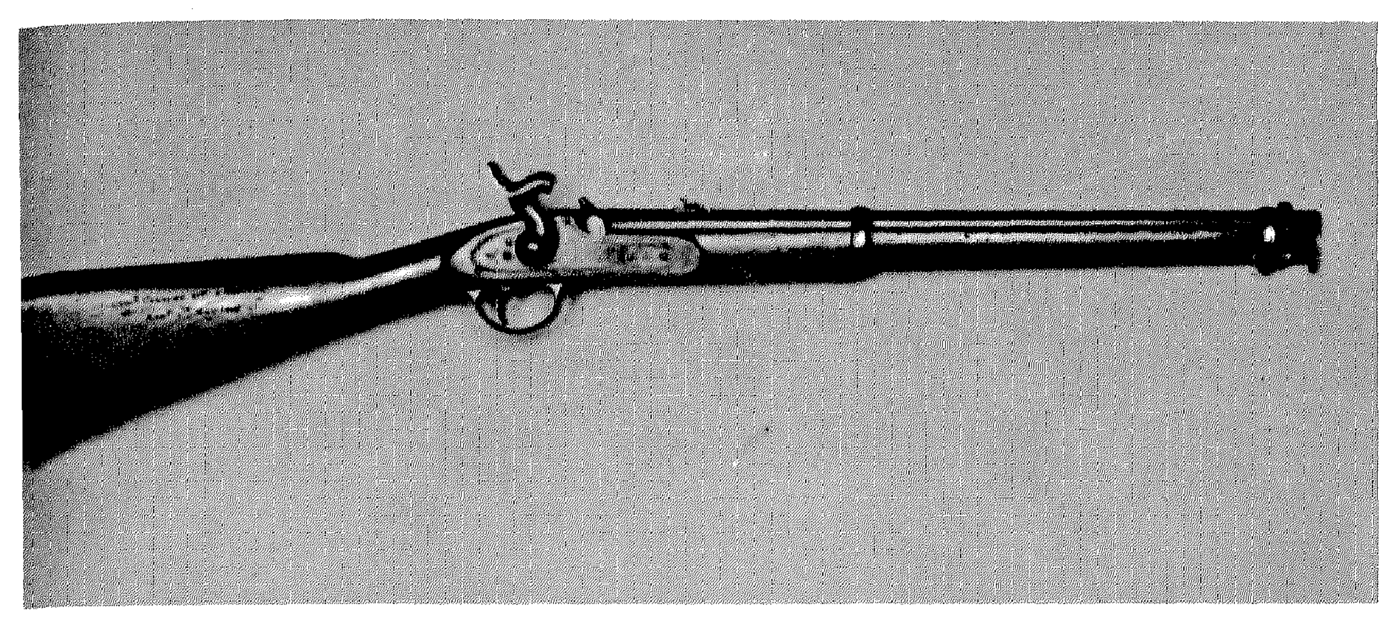
تحرير عمان من البرتغاليين

قلعة الميراني بناها البرتغاليون وكانت آخر موقع دافعوا عنه.



تاريخ انتشار اللغة العربية في افريقيا السوداء

● بندقية الرماة لسنة ١٨٥٦، قياس ٠,٥٧٧ انش ذات الخمسة أخاديد.



● صندوقة تحتوي على مسدسي مبارزة مع عدتهما، صنع بارتولوموز كتشنروتر ١٨٥٠م.